

مُقدِّمة

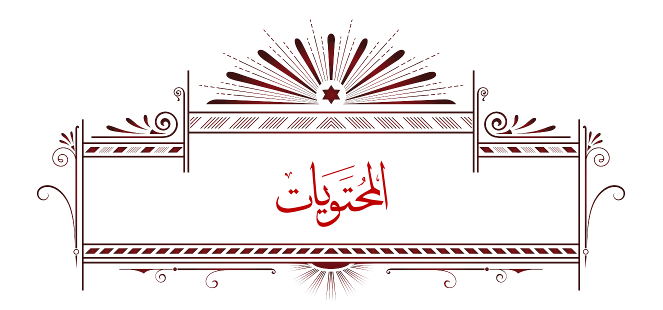
في الحضَارة الإسلَاميَّة



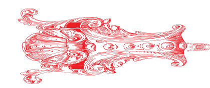
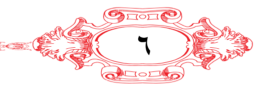


مُقدِّمة
في الحضَارة الإسلَاميَّة

تأليف
د. حسن الباشا



الموضوع	الصفحة





ببعثة النبي ﷺ ودعوته إلىٰ الإسلام بدأت تظهر حضارة جديدة مرتبطة بالإسلام كدين ودولة وتاريخ. سواء في نشأتها أو خلال نموها أو حين ازدهارها، وصار لها أثر كبير في تقدم البشرية يفوق أثر أية حضارة أخرىٰ من الناحية الإنسانية.

ونبعت هذه الحضارة الإسلامية من أصول وأسس كان لكل منها دوره في نشأتها وخصائصها ومثلها أهمها القرآن الكريم، وسيرة النبي ﷺ وسنته، وأمة العرب، واللغة العربية والشعوب التي اعتنقت الإسلام والإطار الجغرافي بالإضافة إلىٰ بعض التأثيرات الأجنبية التي وصلتها من الحضارات السابقة عليها والمعاصرة لها.

* أولًا- القرآن الكريم:

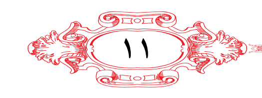
القرآن الكريم هو الأصل الرئيسي الذي نبعت منه الحضارة الإسلامية إذ كان المصدر الأساسي للإسلام الذي تنسب إليه، وشريعة المسلمين.

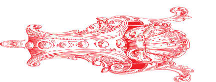
ولقد نزل القرآن الكريم علىٰ النبي ﷺ منجمًا مفرقًا علىٰ طول الثلاث والعشرين سنة التي ظل يدعو فيها إلىٰ الله ﷻ. وكان النبي ﷺ يتخذ كتبة يدونون الآيات عند نزولها، كما كان المسلمون يقبلون علىٰ حفظها عن ظهر قلب، وهكذا استخدم في حفظ القرآن الكريم وسيلتان هما الحفظ والتدوين، ثم قرر ترتيب سوره وآياته بشكل نهائي قبيل وفاة النبي ﷺ ولم يلبث أن جمع القرآن الكريم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه من واقع المدونات التي كانت لدىٰ كتبة الوحي وبمساعدة حفظته المشهود لهم بالتقوىٰ وقوة الذاكرة. وفي عهد عمر رضي الله عنه حفظ المصحف الكريم عند ابنته حفص زوج رسول الله ﷺ، وفي عهد عثمان رضي الله عنه دون منه نسخ فرقت في الأمصار باعتبارها النسخ المعتمدة دون غيرها(١)، ثم تداول المسلمون هذه المصاحف ونسخوا منها ما احتاجوا إليه، وكان النساخ يتحرون منتهىٰ الدقة في النسخ والمطابقة وما زال المسلمون حتىٰ اليوم يحرصون كل الحرص علىٰ نسخ القرآن سواء بالكتابة أو الطباعة أو التسجيل وهكذا ظل القرآن سليما من أي تحوير أو خطأ وصدق الله وعده: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وفي القرآن الكريم يكمن سر أصالة الحضارة الإسلامية وعظمتها: فهو كتاب الله يهدي للتي هي أقوم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فيه خير البشر سواء من الناحية الروحية أو العقلية أو الاجتماعية فهو يدعو إلىٰ عقيدة حقة تقوم علىٰ الوحدانية، عقيدة واضحة خالية من التعقيد والغموض والأوهام: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص ١-٤].

---

(١) محمد عبد العزيز مرزوق: المصحف الشريف مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد ٢٠ ص ٩-١٣.





وفي تعاليم القرآن سعادة البشر إذ ينظم المجتمع علىٰ أسس سليمة تضمن له الأمن والرخاء والسعادة، وهو يضمن حرية الرأي والعقيدة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ويدعو إلىٰ التعارف والتحاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات: ١٣]، وينص علىٰ المساواة ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣]، وينصف المرأة ويؤكد حقوقها وكيانها ولأمر ما ضرب الله المثل للكفار بامرأتين وللمؤمنين بامرأتين:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٠-١٢]، ولقد كانت المرأة هي أول شهيد في الإسلام(١).

والحق أنه لمن المتعذر استقصاء فضائل القرآن الكريم التي قامت عليها الحضارة الإسلامية، ويكفي أن نستشهد بقول الله تعالىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨].

* ثانيًا- سيرة النبي وسنته:

الأساس الثاني الرئيسي الذي استوحته الحضارة الإسلامية وتعطرت به هو سيرة النبي ﷺ وسنته. وسنة النبي ﷺ هي الأصل الثاني الأساسي من

---

(١) هي السيدة سمية رضي الله عنها.

أصول الدين الإسلامي، والإيمان بالنبي ﷺ هو ثاني شطري العقيدة الإسلامية: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وسيرة النبي ﷺ حية في ضمير المسلمين: بها يهتدون ومنها يأخذون القدوة الصالحة: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وتمتاز السيرة النبوية الشريفة أنها محيطة بجوانب الحياة وأطوارها وأنها مطبقة وليست مجرد نظريات وآراء كما أنها حقيقية وصحيحة وتاريخية وليست أساطير وخرافات.

وقد تخصص في كتاب السيرة علماء وقفوا حياتهم عليها يدفعهم إلىٰ ذلك حافز ديني باعتبارها الأساس الثاني للدين الإسلامي من جهة ولما فيها من عبرة من جهة أخرىٰ، وكانوا في عملهم هذا ينفذون أمر النبي ﷺ حين قال: «بلغوا عني»، «وليبلغ الشاهد الغائب» وكان من المسلمين من تلقىٰ عن النبي ﷺ أحاديثه ووعىٰ ما يتعلق بحياته فحفظه أو كتبه ثم أداه إلىٰ من بعده ثم نقله هذا بدوره إلىٰ من بعده وهكذا(١).

وقد أمر النبي ﷺ بكتابة كثير من سننه مثل خطبته يوم فتح مكة ورسائله إلىٰ الملوك وأحكام الزكاة والصدقات وكتاب الهدنة وغير ذلك من الأحكام، وكان كثير من الصحابة يكتبون حديث النبي ﷺ مثل عبد الله بن عمرو بن العاص وكان يسمىٰ صحيفته «الصادقة» وكان بعض علماء التابعين يكتبون الحديث ومنهم محمد بن شهاب الزهري، وهشام بن عروة بن الزبير، وقيس بن أبي حازم، وعطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبير، وأبو الزناد.

---

(١) انظر الندوي: الرسالة المحمدية.

وظهرت بواكير تدوين الحديث في عهد عمر بن عبد العزيز (ت سنة ١٠١هـ) إذا عهد إلىٰ القاضي أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن يبدأ في تدوين سنن النبي ﷺ وأخباره، فدون مرويات خالته عمرة وكانت من تلاميذ عائشة رضي الله عنها وكان ما روته محفوظًا عنده، ومن المعتقد أن أول كتاب في الحديث النبوي هو الموطأ لمالك بن أنس (ت سنة ١٥١ هـ) وأول كتاب في السيرة كتاب المغازي لابن إسحاق (ت سنة ١٧٩هـ).

وقد جمع المحدثون كل ما له علاقة بالنبي ﷺ أو نسب إليه، وكانوا يراعون الأمانة والدقة في نقل الحديث، ويتحرون النص لأجل التعرف علىٰ اللفظ الأصلي ومنهم من كان يأبىٰ أن يصلح الخطأ اللغوي مكتفيا بإبداء رأيه.

وقد تخصصوا في حديث النبي ﷺ وسيرته: فكان منهم من عكف علىٰ رواياتها وهم رواة الحديث، ومنهم من دونها، ومنهم من تفرغ لفحصها، ومنهم من درس رواتها، ومنهم من عني بتفسيرها ومن ثم نشأ من وراء ذلك علوم كثيرة منها علم تاريخ رجال الحديث أو علم أسماء الرجال الذي عنىٰ بدراسة تاريخ الأحاديث النبوية وقد نوه أحد علماء الغرب بهذا العلم فقال: «لم تكن فيما مضىٰ أمة من الأمم السالفة كما أنه لا توجد الآن أمة من الأمم المعاصرة أتت علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون في هذا العلم العظيم الخطير الذي يتناول أحوال خمسمائة ألف رجل وشئونهم»[(١)].

ومنها أيضًا علم الجرح والتعديل وهو: علم يبحث في جرح الرواة وتعديلهم بألفاظ مخصوصة لكل منها مرتبة[(٢)].

---

(١) انظر أسد رستم: مصطلح التاريخ.

(٢) من أهم كتب هذا العلم كتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي.

ومنها علم نقد الحديث وهو: علم يفحص الحديث من حيث الدراية والفهم أي يعني بنقد المتن وقد وضع قواعد له ابن القيم في كتابه «المنار».

ومنها علم علل الحديث وهو: علم يهتم بتبيان الخلل في الأحاديث الباطلة.

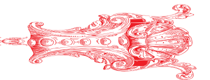
ومنها علم مختلف الحديث وعلم غريب الحديث وعلم الناسخ والمنسوخ في الحديث.

ويأخذ المسلمون من سيرة النبي ﷺ وسنته كثيرًا من الشرح والتفسير للقرآن الكريم فضلا عن التطبيق العملي لتعاليمه وأصول الدين ومكارم الأخلاق وحسن الشمائل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وبفضل النبي ﷺ وسنته وتأسي المسلمين به طبعت الحضارة الإسلامية بهذا الطابع الإنساني الذي يتمثل في حب الخير، والعمل الصالح، والصدق في المعاملة والإخلاص في العمل، والتسامح والرفق والحرص علىٰ العلم والتعمير والاتزان وغير ذلك من الشمائل العديدة التي جعلت المسلمين خير أمة أخرجت للناس.

* ثالثًا- أمة العرب:

من الأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية أمة العرب أو العرق العربي فالنبي ﷺ عربي والصحابة عرب، والعرب هم أول من تلقىٰ دعوة الإسلام وآمن بها وجاهد في سبيلها، وعلىٰ يد العرب دخل الإسلام كثيرًا من الأقطار؛ وانتشر بين سائر الناس «ومن ثم طبعت الحضارة الإسلامية بطابع العرق العربي».

والعرب ساميون وينقسمون إلىٰ بدو وحضر، وبالرغم من غموض تاريخ العرب قبل الإسلام كان من الممكن التوصل إلىٰ بعض معالمه من



ذلك ما عرف عن عرب اليمن من تحضر ورخاء وطمع الإغريق والرومان في ثروة جزيرة العرب ودور العرب في الحروب بين الرومان والفرس، وتنصيب فيليب العربي قيصرا رومانيًا سنة ٢٤٤م وتأسيس مملكة الغساسنة الموالية للرومان، وقيام مملكة الحيرة التي خضعت سنة ٦٠٥م للساسانيين، واستيلاء الأحباش علىٰ اليمن سنة ٥٢٥م ومحاولتهم حمل العرب علىٰ التنصر وطردهم علىٰ يد الفرس سنة ٥٩٧م، وإشراف قريش علىٰ طرق القوافل عبر جزيرة العرب(١)، والأخطار التي كانت تهدد بلاد العرب من الشمال والجنوب.

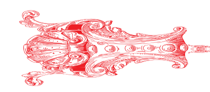
والحق أنه كان للعرب قبل الإسلام حضارة لم تكن تقل عن حضارة غيرهم من الأمم وكانت لغة ناضجة اختارها الله ﷻ لتكون لغة كتابه الكريم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، كما كان لهم آداب راقية من شعر ونثر وقصص وخطابة وحكم وأمثال وكلها أمور لا تتم عفوا ولكنها تنمو علىٰ مدىٰ تاريخ طويل.

وكان للعرب صلات تجارية خارجية مع الأمم المتحضرة ومن ثم كانوا علىٰ علم بالتطورات الحضارية وتهيأت لهم الفرص للاقتباس من غيرهم.

وهكذا صقل العرب بفضل تاريخهم وخبراتهم وتجاربهم وهيئوا لأن يحملوا رسالة الإسلام وينشروها، ولو كان العرب همجا كما زعم بعض المغرضين لما استطاعوا القيام بأعباء رسالة الإسلام، ولما نجحوا في نشرها هذا النجاح المذهل.

---

(١) حسن الباشا: طرق التجارية العربية من عهد سبأ إلىٰ صدر الإسلام. المجلة، القاهرة العدد ٩ ص ٥٩-٧١.




وكان العرب يعتمدون بصفة أساسية علىٰ الخيل والجمال وقد هيأهم ذلك ليكونوا فرسانا مهرة لا يُشق لهم غبار، كما مكنهم من سرعة الحركة والانتشار في الأرض.

وللعرب تقاليدهم وأخلاقهم التي زودتهم بالقدرة علىٰ القيام بجليل الأعمال عند الإيمان بها كالصبر والنشاط والثقة بالنفس والحكمة وخصوبة الخيال والعصبية والحماسة[(١)].

وازدهر الشعر عند العرب، والشعر يقوم علىٰ الابتكار شأنه في ذلك شأن غيره من الفنون، ومن ثم كان ازدهار الشعر سببًا في إشاعة روح الابتكار في المجتمع العربي تلك الروح التي ولدت المقدرة علىٰ الاختراع الذي لا تتقدم البشرية إلا بفضله.

ولقد كان لهذا كله أثره في نشأة الحضارة الإسلامية وتكوينها وتطورها وكان من الطبيعي أن يكون للعرب شأن كبير في إبداع هذه الحضارة التي نشأت في حجرهم.

* رابعًا: اللغة العربية:

كانت اللغة العربية عند ظهور الإسلام قد بلغت نضجها وقد اختارها الله ﷻ لتكون لغة آياته الكريمة التي نزل بها الروح الأمين علىٰ سيد المرسلين، ومن ثم جاء القرآن الكريم بلسان عربي مبين وشرفت بأن ينطق بها كلام الله جلا وعلا.

(١) انظر غوستاف لوبون: حضارة العرب - ترجمة عادل زعيتر- الطبعة الرابعة ص ٦٠ وما بعدها.

واللغة العربية من أرقىٰ لغات العالم إن لم تكن أرقاها وتتميز سواء في تركيب حروفها أو كلماتها أو جملها: فحروفها وإن لم تكن أكثر من حروف الأبجديات الأخرىٰ، إلا أنها تفي بالمخارج الصوتية وإعرابها سهل لا يزيد علىٰ أربع حركات واضحة: فتح وكسر وضم وسكون. كما أن كلماتها سهلة النطق وسلسة تتوزع حركاتها توزيعا متساويا من غير ضغط علىٰ حركة دون حركة ومن ثم يسهل نطقها علىٰ المبتدئين، فضلا عن أن تخضع لموازين أمكن حصرها في عدد من القواعد. وليس هناك لغة أخرىٰ وصلت إلىٰ ما تحقق في اللغة العربية في ضبط المشتقات بالموازين سواء من حيث المبني أو المعنىٰ. وبالرغم من أن الكلمة العربية تعني في أصلها معنىٰ ماديا واقعيا فإنها لا تلبث أن تصبح أيضا ذات معنىٰ شعري مجازي ولكن دون أن يقع لبس بين الدلالتين عند الاستعمال، أما جملها فلا يشترط في تكوينها ترتيب محدد بل يمكن تقديم الاسم أو الفعل حسب الرغبة في تأكيد معنىٰ معين كما لا يشترط إدخال الفعل أو الاسم في الجملة كما يحدث في لغات أخرىٰ بل يمكن تكوين الجملة دون فعل أو اسم إذا كان المعنىٰ لا يستدعي ذلك. ونظرا لسلاسة الألفاظ والجمل العربية ظهر في اللغة العربية فن العروض كفن كامل أثر في كثير من اللغات الأخرىٰ(١).

ويزعم البعض أن اللغة العربية لغة صعبة وهذا زعم باطل فلو كانت كذلك لما انتشرت هذا الانتشار الواسع في فترة وجيزة نسبيًا، ولما تأثر بها كثير من الشعوب التي احتكت بالعرب سواء غالبة أو مغلوبة، ولولا ظهور بعض النعرات القومية عند بعض الشعوب لظلت لها السيادة بين جميع الشعوب الإسلامية، ولو كانت اللغة العربية صعبة كما يزعم هؤلاء لما كتب

(١) سيجريد هونكه: فضل العرب علىٰ أوربا، ترجمة فؤاد حسين علي (ص٤٢٣-٤٤٥).

لها البقاء ولماتت كما مات غيرها من اللغات، ولما كانت أطول اللغات الحالية عمرًا.

هذا ولم تكن اللغة العربية التي نزل بها كلام الله قاصرة عن أن تكون لغة دولية يتكلم بها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ويعبرون بها عن أحساسيسهم وآدابهم ويتعلمون بها معارف غيرهم ويثبتون بها أفكارهم وعلومهم وهكذا كانت أداة سليمة ودقيقة للتعبير العلمي والفني.

ومن ثم صبت الحضارة الإسلامية في وعاء اللغة العربية، وإلىٰ هذه اللغة ترجمت معارف البشرية وتجاربها القديمة، وعنها نقلت الحضارة والثقافة الإسلامية إلىٰ الشعوب الأخرىٰ فترجم ما حوته من علم ومعرفة وثقافة وآداب إلىٰ الشعوب الأخرىٰ.

ويتصل باللغة العربية الخط العربي الذي أخذ شأنه في الازدياد منذ ظهور الإسلام إذ صار انتشار الخط العربي مصاحبًا لانتشار اللغة العربية بل زاد عليها حين صار يكتب به لغات غير عربية مثل الفارسية والأردية والتركية.

وقد عنىٰ بالخط العربي منذ ظهور الإسلام عناية موضوعية من حيث التوضيح عن طريق ابتكار علامات الإعراب والإعجام، ومن حيث التجويد من حيث ابتكار النسب الجميلة في كتابة الحروف والكلمات وتنسيق الجمل، وساعد علىٰ ذلك أن أصبح الخط العربي الوسيلة الأساسية لحفظ القرآن الكريم بالإضافة إلىٰ ما تشتمل عليه تعاليم الإسلام من تقدير للكتابة واعتبارها أداة العلم ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٣، ٤]، كما أن طبيعة الخط العربي وأشكال حروفه وما تمتاز به من الموافقة والمرونة هيأت له الفرص المناسبة للتحسين والتنويع وليس أدل علىٰ ما تحمله أشكال الحروف العربية من بذور الخصب والابتكار من أن

الحروف العربية كتبت بأكثر من ثلاثة آلاف هيئة بل إن بعض الباحثين عد لحرف الهاء وحده نحو تسعمائة شكل مختلف(١).

واحتل الخط العربي مكان الصدارة بين الفنون الإسلامية الأخرىٰ وكان أحد العناصر الزخرفية الأساسية فيها في جميع العصور والأقطار ومن ثم ظهرت بصمته علىٰ التراث الإسلامي بشتىٰ مظاهره.

وكان الخط العربي مثله مثل اللغة العربية وسيلة التعبير عن الحضارة الإسلامية وعاملًا مهما من عوامل الوحدة فيها(٢).

* خامسًا- ثقافة الشعوب الإسلامية:

كان للشعوب الكثيرة التي دخلت في الإسلام أثر في تكوين الحضارة الإسلامية: ذلك أن العرب لم يلبثوا أن فتحوا كثيرًا من البلاد حتىٰ أن فتوحاتهم امتدت في نحو قرن من الزمان ما بين الهند شرقًا والمحيط الأطلسي غربًا وما بين بحر قزوين شمالًا وبلاد النوبة جنوبًا، ثم انتشر الإسلام بعد ذلك فدخل أسبانيا وأجزاء من أوروبا وجزر البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرىٰ وأرمينية وبلاد البلقان كما انتشر شمال بحر قزوين ودخل الهند وما وراءها وتوغل في إفريقيا، وهكذا انضوىٰ تحت لواء الإسلام شعوب كثيرة كان لمعظمها ماضٍ حضاري تليد كالفرس والهنود والعراقيين والسوريين والروم والمصريين، فضلا عن شعوب أخرىٰ تميزت بالحمية والروح الحربية كالترك والمغول والبربر.

وليس من شك في أن هذه الشعوب قد أسهمت بتراثها الحضاري تارة وبخصائصها التقليدية تارة أخرىٰ في تشكيل الحضارة الإسلامية.

(١) Arnold (Th.) and Guillaume (A.) The legacy of Islam, Oxford, 1965, pp. 5-11.

(٢) Grube (EJ) The World of Islam, p. 11.

ومن الملاحظ أن العرب حين أخضعوا الشعوب الأخرىٰ لسلطانهم في القرن الأول بعد الهجرة كانوا علىٰ قسط وافر من الذكاء والحنكة السياسية والحس الحضاري بحيث حافظوا علىٰ تراث هذه الشعوب وعملوا علىٰ تنمية تقاليدها الفنية والصناعية وهكذا ساعدت الخبرات الفنية والثقافية والعلمية المتنوعة التي كانت تتمتع بها بعض هذه الشعوب في تشكيل الحضارة الإسلامية الجديدة وإغنائها بما توصلت إليه البشرية حتىٰ ذلك الوقت من معارف في مختلف المجالات وأن تسهم بالإضافة إلىٰ ذلك في إنمائها وإثرائها ولكن مع احتفاظها بطابعها العربي وروحها الإسلامية الأصيلة(١). كما ظلت هذه الشعوب تشارك في بنائها.

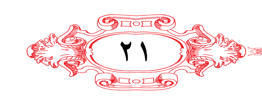
* سادسًا- الإطار الجغرافي:

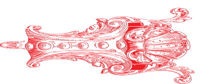
بدأ نشوء الحضارة الإسلامية في بلاد العرب أولًا حيث ظهر الإسلام ثم أخذت تنمو في الأقطار التي فتحها العرب بعد ذلك والتي دخلها الإسلام، وكان من الطبيعي أن يكون للإطار الجغرافي الذي نمت فيه الحضارة الإسلامية أثره في تشكيلها.

ومن الملاحظ أن هذا الإطار الجغرافي كان يشمل رقعة متصلة من الأرض تمتد بصفة أساسية من الهند شرقًا إلىٰ المحيط الأطلسي غربًا، وأن هذه الرقعة من الأرض ذات تضاريس وأجواء مختلفة مما يؤدي إلىٰ تنوع شعوبها وحيوانها ونباتها ومنتجاتها كما أنها بصفة عامة علىٰ درجة كبيرة من الخصب والثراء، وتتميز بصفة عامة باعتدال مناخها، وقد هيأ ذلك كله للحضارة الإسلامية التي نشأت في هذه الأقاليم أن تنمو في بيئة غنية خصبة مكتفية بذاتها مما زودها بطابع الثقة والأصالة.

---

(١) حسن الباشا: فنون التصوير الإسلامي في مصر ص٣٤.





* سابعًا- التأثيرات الأجنبية:

بالرغم من أن الإطار الجغرافي الذي ظهرت فيه الحضارة الإسلامية قد هيأ لها فرص الأصالة فإنه في الوقت نفسه قد مكنها من الإفادة من الخبرات البشرية السابقة والمعاصرة مما زودها بالحيوية وإمكانيات الرقي والتطور ذلك أن هذا الإطار الجغرافي كان مهد الديانات السماوية وموطن أقدم حضارات العالم كما أنه في الوقت نفسه كان يقع بين الصين شرقًا وأوروبا غربًا وكان ملتقىٰ الطرق التجارية والتيارات الثقافية ومن ثم كانت الحضارة الإسلامية غير جامدة أو منعزلة ودائمة الاحتكاك بالحضارات الأخرىٰ في الشرق وفي الغرب تتبادل معها المعارف والخبرات[(١)].

هذا وقد أجعل بعض المستشرقين أهم التأثيرات الأجنبية في الحضارة الإسلامية[(٢)] فيما يلي:

(١) تأثيرات هلينية دخلت الحضارة الإسلامية عن طريق مدارس الثقافة الهلينية في أنطاكية والإسكندرية ونيسابور وغيرها.

(٢) تراث يهودي ومسيحي مستمد من التوراة والإنجيل والساميات.

(٣) تأثيرات إيرانية في مجال الإدارة والحكم والفنون.

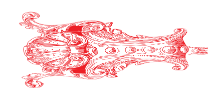
(٤) نظم رومانية في شكل بيزنطي.

(٥) خليط من الثقافة الهندية والصينية مثل الأرقام التي يقال أن العرب نقلوها عن الهند وصناعة الورق التي يزعم أن العرب تعلموها من الصينيين.

---

(١) جاك س. ريسلر: الحضارة العربية. ترجمة غنيم عبدون (ص١-٢٤).

(٢) Hitti (Ph, K.) History of the Arabs, London, 1956, pp. 306-316.



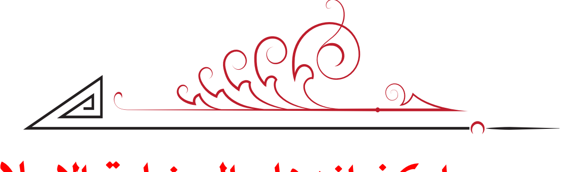

ومن الملاحظ أن هذه التأثيرات الأجنبية لم تكن عوامل أساسية في تكوين الحضارة الإسلامية ذلك إن الأساس الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية كان الثقافة العربية الإسلامية كما أن الإسلام الذي يدعو إلىٰ العلم وطلبه ويوجه الأنظار إلىٰ ما في الكون وما في النفس من أسرار هو الذي حفز المسلمين إلىٰ الإقبال علىٰ المعرفة وإلىٰ الإلمام بالثقافات السابقة وإساغتها.

وفضلا عن ذلك فإن الإرادة العربية النابعة من فطرة نقية ورأىٰ سليم وحماس واعتزاز وثقة بالنفس كانت الحافز الأساسي في نشأة هذه الحضارة الإسلامية العظيمة.

وبالرغم من أن العالم الإسلامي يشتمل علىٰ أجناس مختلفة فإن هذه الأجناس كانت تستخدم اللغة العربية كلغة رسمية وأدبية بالإضافة إلىٰ أن كثيرًا منها استعمل العربية كلغة تخاطب، وكانت اللغة العربية بما تمتاز به من غزارة وقوة بناء وسهولة تناول أداة للتعبير الدقيق عن متطلبات هذه الحضارة ووعاء صالحا لثقافتها وخبراتها كما سبق أن قدمنا.

وأخيرًا هناك حافز أساسي في نشأة الحضارة الإسلامية ورقيها ونعني بذلك روح الابتكار التي سبقت الإشارة إليها وقد جاءت هذه الروح عن طريق العرب ذلك أن تفوق العرب في فنون اللغة وبخاصة الشعر وازدهار هذه الفنون في العالم الإسلامي في العصور المختلفة أدىٰ إلىٰ أن يشيع في المجتمع الإسلامي روح الابتكار التي تزدهر أساسًا بفضل الازدهار الفني والتي لا يمكن أن تقوم بدونها نهضة حقيقية أو يحدث تقدم حضاري.

ومن ثم فإن كنا لا ننكر أن الحضارة الإسلامية قد استمدت من ثقافات أخرىٰ أجنبية سواء غربية أو شرقية شأنها في ذلك شأن غيرها من الحضارات الراقية إلا أنها في جوهرها حضارة عربية إسلامية.



مراكز ازدهار الحضارة الإسلامية

تعددت مراكز ازدهار حضارة الإسلام، ففي مكة والمدينة خاصة وجزيرة العرب بعامة نبعت أصولها وكملت أسسها الروحية والخلقية وذلك بفضل الإسلام الذي نزل أول ما نزل علىٰ العرب، والذي حمل رايته العرب.

وفي دمشق أخذت الحضارة الإسلامية تتشكل بمظاهرها المختلفة في عصر الخلافة الأموية القرن الأولىٰ الهجري وأوائل القرن الثاني.

وفي بغداد عاصمة الخلافة العباسية نضجت ووصلت مستوىٰ رفيعًا منذ أواخر القرن الثاني بعد الهجرة.

وفي الأندلس ازدهرت الحضارة الإسلامية حتىٰ نافست بلاد الأندلس بلاد الخلافة العباسية في هذا المضمار.

هذا ولم يقتصر ازدهار الحضارة الإسلامية علىٰ هذه البلدان التي ذكرناها بل انتشرت في كثير من بلاد الإسلام مثل مصر وإيران والهند وتركيا وشمال أفريقيا.

مجالات الحضارة الإسلامية

* تفوقت الحضارة الإسلامية في نواحٍ عدة منها:

سرعة ظهورها وازدهارها، فمنذ دعوة النبي ﷺ إلىٰ الإسلام ظهر الأثر الروحي والخلقي الذي كان التربة الصالحة والأساس الحقيقي لسائر المظاهر الحضارية الإسلامية.

ومن حيث الدولة ونظم الحكم: عنىٰ الإسلام بتنظيم الدولة علىٰ أحسن الأسس وأفضل المبادئ فنظمت الإدارة وسنت القوانين والتشريعات وحددت الوظائف ونظمت المعاملات وأخذت هذه الشئون في التطور حتىٰ بلغت مستوىٰ عاليًا من التقدم.

وحظي المجتمع الإسلامي في ضوء هذه المبادئ والنظم بتقاليد وعادات متحضرة تنبع من الفطرة السليمة وتتفق مع الروح الإنسانية وتضمن للمجتمع أمنه وتقدمه.

ومنذ ظهور الإسلام وجد الاحتفاء بالعلم والثقافة والحرص علىٰ التعليم، ولم يمض قرنان من الزمان علىٰ ظهور الإسلام حتىٰ كان المسلمون قد بلغوا شأوًا في مجال العلم يفوق ما حققه غيرهم من الشعوب السابقة والمعاصرة.

وترك المسلمون تراثًا ماديًا لا تزال آثاره شاهدة علىٰ عظمته سواء في مجال الفنون والعمارة والصناعات والزراعة والتجارة وغير ذلك.

التراث الروحي

إن أفضل ما اشتملت عليه الحضارة الإسلامية هو تراثها الروحي أو الديني، ونعني بذلك الإسلام، ومصدر الإسلام من القرآن والسنة النبوية الشريفة، وقد جاء الإسلام بالعقيدة الحقة الصحيحة التي تتلخص في الإيمان بأنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ووحدانية الإسلام وحدانية واضحة سهلة خالية من التعقيد والألغاز والله قريب من الإنسان وأقرب إليه من حبل الوريد ولا واسطة بين العبد وربه من كهنوت أو أوصياء ومحمد هو عبد الله ورسوله أرسله الله بالهدىٰ ودين الحق بشيرًا ونذيرًا، واختاره الله إلىٰ جواره بعد أن بلغ الرسالة وأدىٰ الأمانة ﷺ فهو بشر كسائر البشر ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وأمر الإسلام بالتسليم بقضاء الله وقدره والإيمان بالبعث الجزاء والثواب والعقاب، ولم يقف الإسلام عند حد العبادات بل جاء بخير الدنيا، ووضع أسس مبادئ التنظيم السياسي والتشريع والاقتصاد والمعاملات، وبذلك وضع أسس الفلاح للبشرية، فدعا إلىٰ العمل علىٰ التعمير بأقصىٰ ما يمكن من الجهد مع مراقبة الله تعالىٰ «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا».

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

ﱡﭐﱘﱠ [القصص: ٧٧]، وحض الإسلام علىٰ حسن المعاملة «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به» ولو سار الناس جميعًا علىٰ هذا المبدأ لصلح العالم.

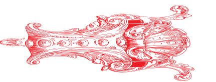
وحض الإسلام أيضًا علىٰ العدل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

هذا وقد سبق أن أشرنا عند الكلام عن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة إلىٰ ما اشتمل عليه الإسلام من فضائل، وذلك بالإضافة إلىٰ ما جاء به من أفضل التنظيمات في كافة الشئون العامة والخاصة.

وكان لفضائل الإسلام خاصة الفضل في انتشاره، أي أن الإسلام انتشر بفضل خصائصه الذاتية وتعاليمه الخيرة كما أن تسامح العرب كان من العوامل التي ساعدت علىٰ انتشاره.. ويزعم البعض أن الإسلام قد انتشر بالسيف وعن طريق الإكراه، وهم يعتمدون في ذلك علىٰ اعتناق بعض الأقطار التي فتحها العرب للإسلام مثل إيران والعراق وسوريا ومصر وشمال أفريقيا، ويبدو أنهم متأثرون في ذلك بما فعله شرلمان وخلفاؤه في نشر النصرانية بين شعوب أوربا بالسيف والنار، وإرغام الجرمان علىٰ اعتناق النصرانية إذا أرادوا أن يحتفظوا بممالكهم، والحق أن الإسلام قد انتشر في أقطار أخرىٰ، لم يفتحها العرب أو المسلمون مثل أندونيسيا والصين وبلاد القفجاق والسودان، كما عم كثيرًا من الأقطار الأفريقية: مثل مالي وأوغندا والصومال ونيجيريا وغيرها ولا يزال الإسلام ينتشر حتىٰ اليوم بين هذه الشعوب وغيرها بنسبة تفوق غيره من الأديان الأخرىٰ أضعافًا مضاعفة.

ولو كان الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف فكيف استجابت هذه الشعوب لدعوة الإسلام واستمسكت بعراه.





ولقد دحض كثير من المستشرقين أنفسهم هذا الزعم؛ يقول «غوستاف لوبون» الفرنسي في كتابه «حضارة العرب»[(١)].

«سيرىٰ القارئ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصارهم، أن القوة لم تكن عاملًا في انتشار الإسلام، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارًا في أديانهم. . . . ويزيد عدد مسلمي الهند يومًا فيومًا مع أن الإنجليز الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر يجهزون البعثات التبشيرية، ويرسلونها تباعًا إلىٰ الهند لتنصير مسلميها علىٰ غير جدوىٰ، ولم يكن القرآن أقل انتشارًا في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط».

وقال روبرتسن في كتابه «تاريخ شارلكان»: «إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرىٰ، وأنهم مع امتشاقهم الحسام نشرًا لدينهم تركوا من يرغبون فيه أحرارًا في التمسك بتعاليمهم الدينية».

وقال ميشود في كتابة «تاريخ الحروب الصليبية»: إن القرآن الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرىٰ، وقد أعفىٰ البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب، وحرم محمد ﷺ قتل الرهبان لعكوفهم علىٰ العبادات، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارىٰ بسوء حين فتح القدس، علىٰ عكس ما فعله الصليبيون الذين ذبحوا المسلمين وحرقوا اليهود بلا رحمة عندما دخلوها، **وقال الراهب «ميشو» في كتابه «رحلة دينية في الشرق»**:

«ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الأحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أي متقد عليهم بالقوة».

---

(١) نشر سنة ١٨٨٤م.

أما ما زعم البعض من أن انتشار الإسلام كان من أهم دوافعه دعوته إلىٰ التحلل من التكاليف التي كانت مفروضة في اليهودية أو النصرانية، وإباحة سوء الخلق، والترغيب بملاذ الجنة فهو عار من الصحة ولا يستحق المناقشة ويكفي أن نرد علىٰ ذلك بأقوال المستشرقين أنفسهم.

يقول «غوستاف لوبون»: «ويسهل علينا أن نثبت أن هذه المزاعم، لا تقوم علىٰ أساس فنقول، إن من يقرأ القرآن يجد فيه ما في الأديان الأخرىٰ من الصرامة وأن ما أباحه القرآن من تعدد الزوجات لم يكن غريبة علىٰ الشعوب المسلمة التي عرفته قبل ظهور الإسلام، وأن هذه الشعوب لم تجد نفعًا جديدًا في القرآن لهذا السبب».

ويقول أيضًا: «إن من الضلال إذن أن يعزىٰ انتشار الإسلام السريع في أنحاء الدنيا إلىٰ أنه يلقي عن كاهل الإنسان ما شق من التكاليف والأعمال الصالحة، وأنه يبيح له البقاء علىٰ سيء الأخلاق وقد دون (هوتنجر) قائمة طويلة بالأخلاق الكريمة والآداب الحميدة عند المسلمين، وأرىٰ أن هذه القائمة تحوي أقصىٰ ما يمكن أن يؤمر به إنسان من التحلي بمكارم الأخلاق والابتعاد عن العيوب والآثام.

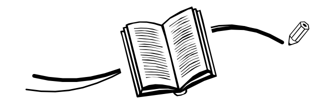
ومما نبه إليه العلامة (بيل) أن ملاذ الجنة التي وعد بها المسلمون لا تزيد علىٰ ما وعد به النصارىٰ في الإنجيل الذي جاء فيه (لم ترعين ولم تسمح أذن، ولم يخطر علىٰ قلب إنسان ما أعده الله للذين يحبونه».

وهناك افتراء آخر مرفوض، إذ يزعم البعض أن الجزية كانت من الوسائل التي لجأ إليها المسلمون لإكراه غيرهم علىٰ الدخول في الإسلام.

والحق أن الجزية قد فرضت فقط مقابل الحماية والرعاية ولم يفرضها الإسلام للإكراه علىٰ اعتناقه. قال تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولم تكن الجزية بالقدر الذي يدفع الإنسان إلىٰ تغيير دينه ولم تكن تفرض إلا علىٰ القادرين علىٰ دفعها، وكان يعفىٰ منها الأطفال والنساء والشيوخ والرهبان، ولو استخدم المسلمون الجزية كسلاح لنشر الإسلام، لكان من الأولىٰ أن يزيدوها علىٰ رجال الدين بصفة عامة، وأن يفرضوها علىٰ غير القادرين حتىٰ يرغموهم علىٰ اعتناق الإسلام، وكانت الجزية التي جباها المسلمون أقل مما كان يجبيه الفاتحون قبلهم، ومن ثم كان من أثر الفتح العربي الإسلام تخفيف الأعباء المالية المفروضة علىٰ أهل البلاد المفتوحة، وليس في تاريخ الإسلام ما يدل علىٰ أن الجزية كانت من عوامل الإكراه علىٰ الإسلام، بل من الغريب أننا نجد أن الجزية كانت من عوامل الإكراه علىٰ الإسلام، بل من الغريب أننا نجد أنه حدث من بعض ولاة المسلمين أحيانًا تخوف من انتشار الإسلام بين رعاياه، خوفًا من أن يؤدي ذلك إلىٰ نقص الجزية وإفقار الخزانة.

وقد أعفىٰ بنو تغلب النصارىٰ من دفع الجزية نظير اشتراكهم في الحرب مع المسلمين.





البَابُ الأَوَّل

نظام الدولة الإسلامية



الفَصْلُ الأَوَّلُ
تاريخ الدولة الإسلامية

بهجرة النبي ﷺ إلىٰ المدينة في السنة الثالثة عشرة بعد البعثة تطورت الدعوة الإسلامية إلىٰ مرحلة جديدة هي مرحلة الدولة الإسلامية إذ تأسست دولة علىٰ رأسها النبي ﷺ الذي أرسىٰ قواعدها حسب تعاليم الإسلام الحنيف ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

وفي أول الأمر كان النبي ﷺ يتولىٰ تسيير جميع شئون هذه الدولة الناشئة، ولكنه لم يلبث بعد أن اتسعت الرقعة وانتشر الإسلام في أنحاء جزيرة العرب، أن أناب عنه في الإدارة بعض الصحابة فعين القادة والولاة والقضاة والجباة، وغيرهم من الموظفين الذين توزعت عليهم شئون الحكم والإدارة تحت رئاسته ﷺ وكان هؤلاء يمضون أمورهم ويتصرفون في اختصاصاتهم حسب ما جاء به القرآن الكريم وما أمر به النبي ﷺ مقتدين بسنته. وهكذا بدأ تأسيس الوظائف المختلفة في الدولة الإسلامية، وبعد انتقال النبي ﷺ إلىٰ الرفيق الأعلىٰ خلفه في حكم الدولة الإسلامية أبو بكر الصديق بعد أن بايعه الصحابة علىٰ أن يخلف رسول الله في حكمهم وتولي أمورهم، أي أن يكون خليفة رسول الله فيهم، ومن ثم نشأ نظام الخلافة في الإسلام، ورفض بعض العرب أول الأمر الإذعان لولاية الصديق

أو الخضوع لنظام الدولة والانضواء تحت لوائها وامتنعوا عن أداء الزكاة كما ارتد البعض عن الإسلام، غير أن أبا بكر استطاع أن يرغمهم علىٰ الإذعان، ومن ثم ساد حكم الخليفة المسلمين كلهم.

وأوصىٰ أبو بكر قبل وفاته بالخلافة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي اتسعت الدولة الإسلامية في عهده: فشملت بالإضافة إلىٰ بلاد العرب، الشام، ومصر والعراق وإيران، ثم ولي الخلافة عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب الذي نقل عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة المنورة إلىٰ الكوفة، وبموت علىٰ بن أبي طالب سنة ٤١هـ انتهىٰ عهد الخلفاء الراشدين، وفيه كانت أنظمة الدولة ووظائفها تقوم بصفة خاصة علىٰ أساس روحي أقرب إلىٰ اليسر، وبعيدة عن المظاهر والتكلف.

ثم بدأ عصر الدولة الأموية علىٰ يد مؤسسها معاوية بن أبي سفيان واستمر من سنة ٤١ إلىٰ سنة ١٣٢ وكانت دمشق عاصمة لها، وفي عهد هذه الأسرة زاد اتساع الدولة شرقًا وغربًا فامتدت إلىٰ السند شرقًا وإلىٰ إسبانيا غربًا، كما استقرت أمور الحكم، وساد هذه الدولة الواسعة الأرجاء طابع العروبة، وانتشر فيها الإسلام، وأخذت نظمها ووظائفها في النمو والتفريغ تدريجيا، وبدأت المظاهر الحضارية تتبلور علىٰ أساس عربي إسلامي.

وبالقضاء علىٰ مروان بن محمد سنة ١٣٢هـ انتهت الدولة الأموية، وقامت في أعقابها الدولة العباسية، نسبة إلىٰ العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، ومن ثم زادت في الخلافة صفتها الدينية[(١)] وكان أول خلفائها (أبو العباس السفاح) ثم خلفه أخوه أبو جعفر المنصور الذي يعتبره البعض المؤسس الفعلي للإدارة العباسية، وأنشأ أبو جعفر مدينة بغداد واتخذها عاصمة للخلافة العباسية.

---

(١) انظر أحمد بن عبد الله القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة.

وورث العباسيون أنظمة الحكم والإدارة الأموية ثم طوروها إلىٰ درجة كبيرة، وعنىٰ خلفاؤها بتنظيم الدولة وقد بدأ التنظيم في عهد أبي جعفر وازداد كثيرًا في عهد الرشيد.

ونظرًا لاعتماد العباسيين في قيام دولتهم علىٰ الفرس، فقد تأثروا في نظم الحكم والإدارة وأساليب الحياة بالتقاليد الفارسية، وفي الوقت نفسه زادت إفادتهم من الثقافات والحضارات الأجنبية، وبذلك نمت الحضارة الإسلامية وازدهرت مشربة بثقافات أجنبية ولكن في إطار الشريعة الإسلامية التي بلغت في العصر العباسي مستوىٰ رفيعًا من حيث الشرح والتقنين.

وأثناء الخلافة العباسية مُنيت الدولة العباسية بالانقسام، ففي عهد أبي جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين، انفصلت الأندلس عن الحكم العباسي حين أسس فيها عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام من بني أمية دولة استقل بحكمها وأورثها أسرته من بعده، وهذه الدولة التي اصطلح علىٰ تسميتها بالدولة الأموية الغربية نافست الدولة العباسية في رعاية الحضارة الإسلامية.

ولم يلبث أن توالت الانقسامات في الدولة العباسية، فمنذ أواخر القرن الثاني الهجري أخذت تنشأ في بعض ولاياتها دول مستقلة، ازدهرت في بعضها الحضارة الإسلامية، مثل الدولة السامانية في خراسان والدولة الطولونية ثم الإخشيدية في مصر.

وفي القرن الثاني الهجري أخذ الخلفاء العباسيون يستكثرون من استخدام الغلمان الأتراك حتىٰ استفحل نفوذهم واستضعفوا الخلفاء واستبدوا بالسلطان دونهم، وكان من نتيجة ذلك أن ضعفت الإدارة المركزية واستطاع بعض الولاة أن يستقلوا بولاياتهم استقلالا فعليًا مع الارتباط بالإدارة المركزية ارتباطًا اسميًا، كما ظهرت وظيفة جديدة هي وظيفة أمير الأمراء

الذي استأثر بالسلطان واستبد بالحكم في مقر الخلافة، وكان ابن رائق هو أول من لقب بلقب أمير الأمراء وكان ذلك في سنة ٣٢٤هـ[١].

وبعد ذلك استبد بالخلافة العباسية أسرة من الديلم هي أسرة بني بويه، واستيلاء بني بويه علىٰ السلطة ازدادت التأثيرات الفارسية في الحضارية الإسلامية، وجرد بنو بويه الخلفاء العباسيين من نفوذهم تماما حتىٰ أنه لم يبق لهم من الخلافة إلا مظاهرها.

ونظرًا لتشيع بني بويه فقد حاولوا صبغ دولتهم الطابع الشيعي مما أدىٰ إلىٰ احتدام الصراع بين الشيعة وأهل السنة.

وفي عهد بني بويه بدأ نظام الإقطاع في الدولة الإسلامية: إذ أخذ معز الدولة بعد أن استولىٰ علىٰ بغداد، يقطع قواده ومواليه القرىٰ كأرزاق عوضًا عن المرتبات النقدية، واستقر هذا النظام بعد ذلك في عصر السلاجقة.

وكان تاريخ بني بويه سلسلة من المنازعات الأسرية التي وصلت في كثير من الأحيان حد الحروب وما يتبعها من سجن أو قتل لبعض أفراد الأسرة علىٰ يد البعض الآخر.

وكان هذا التنافس بين أفراد أسرة بني بويه من أهم عوامل ضعفها خاصة والدولة العباسية عامة. ووجد في عهد بن بويه دولتان إسلاميتان أخريان اتخذتا ألقاب الخلافة ونازعتا الخلافة العباسية الزعامة علىٰ العالم الإسلام وهددتا نفوذهما هما: الدولة الأموية في الأندلس، والدولة الفاطمية في شمال أفريقيا ثم مصر.

وكان الصراع علىٰ أشده بصفة خاصة بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية، إذ بالإضافة إلىٰ القرب المباشر بين العباسيين والفاطميين اتخذ

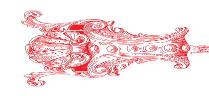
(١) مسكويه: تجارب الأمم ج١ (ص٣٥١-٣٥٢).

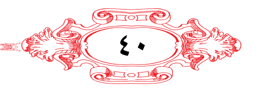
الصراع بينهما مظهرًا عقائديًا بالإضافة إلىٰ الجوانب الحربية والسياسية، واستطاع الخلفاء الفاطميون في هذا العصر أن يستولوا علىٰ مصر حيث أسسوا مدينة القاهرة التي اتخذوها عاصمة لهم، وكانت أحد المراكز المزدهرة للحضارة الإسلامية، كما انتشر دعاة الفاطميين في سائر أنحاء العالم الإسلامية ولا سيما إيران[١].

ولم يكن الخطر الفاطمي هو الوحيد الذي يهدد بني بويه، بل إنهم تعرضوا لمناوأة شديدة في الدولة العباسية نفسها، وذلك من قبل الولاة والأمراء الذين أسسوا أسرًا حاكمة تتمتع باستقلال فعلي عن الخلافة العباسية، وكان من هذه الأسرة أسرة بني كاكويه في كردستان من (٣٩٨-٤٤٣هـ) ومن (١٠٠٧-١٠٥١م) والغزنويين في غزنة (٣٥١-٥٨٢هـ) (٩٦٢-١١٨٦م)، وربما كان من أهم هذه الأسر «السلاجقة» الذين سيطروا علىٰ غرب آسيا، وكان علىٰ يدهم القضاء علىٰ بني بويه، وكان السلاجقة من قبيلة (غزقنق): إحدىٰ القبائل التركية في إقليم القرغيز في آسيا الوسطىٰ، وكانوا سنيين متحمسين للإسلام.

وإزاء ضعف بني بويه وتشيعهم تقدم السلاجقة للاستيلاء علىٰ بغداد، واستطاع أحدهم: «طغرلبك» أن يستولىٰ علىٰ بغداد، وأن يثبت حكم أسرة السلاجقة في الدولة العباسية، ودان كثير من الأقطار لحكم السلاجقة ووصلت فتوحاتهم نهر سيحون، واستولوا علىٰ معظم آسيا الصغرىٰ بعد انتصارهم علىٰ الأرمن والبيزنطيين، كما ضموا إليهم الشام وبلاد العرب بالإضافة إلىٰ فارس والعراق، وفي أول الأمر خضعت الأسرة لسلطان واحد منهم، ثم لخلفائه من بعده وهم السلاجقة العظام، ثم توزع السلاجقة إلىٰ عدد من الأسر الفرعية اقتسمت فيما بينها أقطار الدولة العباسية وما أضافوه

(١) Wustenfeld, Gesehicht der Fatimi den Chalifen.





إليها من فتوحات وأهم هذه الأسر سلاجقة العراق، وسلاجقة كرمان وسلاجقة الشام، وسلاجقة الروم في آسيا الصغرىٰ.

وباستيلاء السلاجقة علىٰ السلطة في الدولة العباسية دخلت الدولة في طور جديد من أطوارها وذلك بفضل الأنظمة الجديدة التي ظهرت علىٰ يدهم والتي صارت أساس كثير من التطورات الاجتماعية في العالم الإسلامي فيما بعد، ولقد قيض الله للدولة السلجوقية في أوائل عهدها شخصية فذة كان لها دور كبير في توجيه سياسة هذه الدولة ووضع أنظمتها والإشراف علىٰ تنفيذها: «هو الوزير نظام الملك».

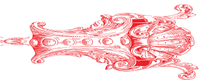
واعتبر السلاجقة أنفسهم أبطال النهضة الفارسية فشجعوا الفرس علىٰ إحياء اللغة الفارسية واستخدامها في الكتابة والتأليف، وخلف السلاجقة في حكم الولايات العباسية أتباع لهم اقتسموها بينهم وكون بعضهم أسرًا عرفت عند المؤرخين باسم الأتابكة نسبة إلىٰ أتابك وكانت مهمة الأتابك الوصاية علىٰ أولاد السلطان وتربيتهم[١].

وكان الأتابك يصحب الأمير حين توليه إحدىٰ الولايات ويشترك معه في حكمها وربما حرص السلطان نفسه علىٰ ذلك ليكون عينًا له علىٰ الأمير ويحول بينه وبين الاستقلال عن السلطان أو الثورة عليه، واتسع نظام الأتابكة في الدولة السلجوقية حتىٰ كاد يصبح وجود الأمير السلجوقي والاتابك معًا علىٰ رأس الولاية من التقاليد الواجبة.

وكان إذا زاد نفوذ أحد الحكام من غير الأسرة السلجوقية حرص علىٰ ضم أحد الأمراء السلاجقة إليه حتىٰ يصير أتابكه.

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جا ص١١٣.



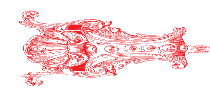
وقد تطور الأمر إلىٰ أن صار علىٰ رأس الولايات السلجوقية ولاة من الأتابكة لا يدينون للسلاطين السلاجقة إلا بطاعة اسمية وفي الوقت نفسه يتحينون الفرصة المناسبة للاستقلال بحكم ولاياتهم بل والاستيلاء علىٰ غيرها والتمكين لأسرهم ومن ثم انقسمت دولة السلاجقة إلىٰ دويلات يحكمها أسر من الأتابكة توارثت السلطة في كثير منها: نذكر منهم بنىٰ بوري في دمشق، وبني زنكي في الموصل والشام وسنجار والجزيرة، وبنىٰ بكتكين في أربل وبنىٰ ايلدكز في أذربيجان وأتباكة يزد وبني سلغر في فارس وبني فضلويه في شوانكاره وبنىٰ هزراستان في لورستان الكبرىٰ وبني خورشيد في لورستان الصغرىٰ.

هذا وقد حمل بعض أسر الأتابكة ومن خلفهم من الأيوبيين ثم المماليك عبء محاربة الصليبيين فكان علىٰ يد عماد الدين زنكي أتابك الموصل طرد الصليبيين من إمارة الرها ثم سار علىٰ نهجه ابنه نور الدين محمود[١] الذي كرس جهوده لحربهم في بلاد الشام، وخلفه أحد قواده صلاح الدين الأيوبي الذي طردهم من القدس ...

وهكذا خضدت شوكتهم ثم طرد آخر فلولهم علىٰ يد خليل بن قلاوون أحد سلاطين المماليك في مصر.

ومن الدول التي خلفت السلاجقة في شرق العالم الإسلامي دولة خوارزمشاه وقد استطاعت في سنة ٥٩٢هـ، أن تنهي حكم السلاجقة في إيران ثم أخذت تمد نفوذها ما بين الضفة اليمنىٰ لنهر سيحون وممرات الجبال الواقعة بين إيران ووادي دجلة وسيطرت علىٰ خوارزم وخراسان وبخارىٰ وسمرقند وأرتار عاصمة الخطا بل اعترف بسيادتها أحيانًا في عمان، وأصبحت خوارزم دولة في الدرجة الأولىٰ من حيث القوة والثراء

(١) أبو شامة: الروضتين جـ١ ص١٠٠.




والمدنية وصارت عاصمتها من أكثر المدن ازدهارًا وصار لها علاقات تجارية مع الشرق والغرب.

ثم حدث تنافس بين خوارزمشاه والخليفة العباسي علىٰ السلطة والاستئثار بالسيادة السياسية في عهد الناصر كان من جرائه أن حاول خوارزمشاه القيام بحملة علىٰ بغداد ولم يثنه عن ذلك إلا ما ابتلىٰ به من غزو المغول.

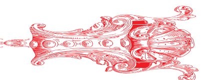
وبعد أن قضىٰ المغول علىٰ دولة خوارزمشاه وجهوا عنايتهم لدخول بغداد والقضاء علىٰ الخلافة العباسية نفسها.

وفي ذلك الوقت كانت الخلافة العباسية قد تدهور مركزها تدهورًا كبيرًا في نظر العالم الإسلامي وذلك لتقاعسها عن محاربة الصليبيين في الغرب وعن صد المغول في الشرق، ومن جهة أخرىٰ كان الخلفاء الأواخر يفتقرون إلىٰ العزيمة والنشاط مما أدىٰ إلىٰ أن انحصر حكمهم في بغداد، كما قامت الفتنة بين أهل السنة والشيعة في بغداد وقلت الأموال واضطرب الأمن..

وهكذا وقعت بغداد فريسة سهلة أمام المغول بقيادة هولاكو في ٦٥٦هـ الذي قضىٰ علىٰ المستعصم آخر خلفاء بني العباس وبذلك قضىٰ علىٰ الخلافة العباسية في بغداد.

وصحب غزو المغول للعالم الإسلامي دمار وتخريب وقتل: يتمثل في حرق المدن، وذبح الناس صغارًا وكبارًا، والتمثيل بالأعداء، والنهب والسلب.

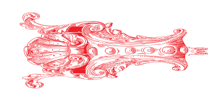
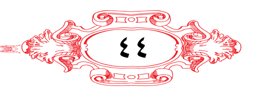
وحاق بالعراق من غزو المغول خسارة فادحة بقيت آثارها ربما إلىٰ وقتنا الحاضر وبقتل المستعصم، انتهت من بغداد الخلافة العباسية التي



كانت تمثل تقليدًا عريقًا يرجع إلىٰ صدر الإسلام، كما فقدت بغداد أهميتها كعاصمة للعالم الإسلامي ... ومن جهة أخرىٰ فإن الوضع الذي آلت إليه بلاد العراق بعد غزو المغول بين دولتين قويتين في إيران ومصر حولها إلىٰ أشبه ما يكون بمناطق حدود بين قوتين متصارعتين مما أدىٰ إلىٰ تعرضها للأعمال الحربية من الجانبين، وكان من جراء ذلك أن أصابها كثير من التخريب والإهمال في الإدارة وأعمال الري والعناية بالأراضي، وإهمال طرق العراق التجارية لحساب طرق التجارة المارة بإيران، وآسيا الصغرىٰ بالشمال، وبمصر والبحر الأحمر في الجنوب وأثر ذلك علىٰ حضارة العراق ومركزه الفكري والثقافي: إذ قل فيه بعد غزو المغول الإنتاج الفكري والفني الأصيل، علىٰ عكس ما كان عليه الحال قبل ذلك حين كان العراق مركز الإشعاع الثقافي في العالم الإسلامي كله بل وفي خارجه أيضًا، وكان في الدرجة الأولىٰ من حيث خصوبة الإنتاج الفكري والفني وقيمته.

وعلىٰ عكس ما أصاب العراق من تدهور وتأخر نعمت مصر بعصر من الازدهار والتقدم: فبعد أن دحرت المغول وطردتهم من الشام، استطاعت أن تحافظ علىٰ تيارها الحضاري مستمرًا دون انقطاع، ونجحت في تصفية الفلول الصليبية المتبقية في الشام، كما عملت علىٰ نقل الخلافة العباسية إلىٰ القاهرة مما زاد في نفوذها الروحي بالإضافة إلىٰ قوتها السياسية والحربية، ومن ثم حظيت مصر في عصر المماليك برخاء مادي وازدهار حضاري وثراء في مجال الفكر والفن أسهم فيه الفنانون والعلماء الذين هاجروا إلىٰ مصر أمام الغزو المغولي.

أما إيران فقد صارت مركز الدولة الإيلخانية المغولية التي استطاعت إيران في ظلها أن تستأنف تقدمها الحضاري، ولم يلبث حكامها من المغول أن اعتنقوا الإسلام في عهد السلطان غازان، وتمتعت إيران بكثير من الاستقرار والرخاء، كان من نتيجته ازدهارها الفني والثقافي، وخلف

الإيلخانيين في إيران التيموريون، ثم تبعهم الصفويون، وكانت إيران في عهد هؤلاء جميعًا مركزًا مزدهرًا من مراكز الحضارة الإسلامية.

هذا وقد امتد حكم المسلمين إلىٰ الهند حيث سيطر عليها المغول المسلمون إلىٰ أن تمكن منهم الاستعمار البريطاني. وكان لقدوم المغول للعالم الإسلامي، وما أعقبه من أحداث تأثير غير مباشر علىٰ وضع الأتراك في آسيا الصغرىٰ ذلك أنه في أثناء الغزو المغولي، هاجر كثير من الترك والمغول إلىٰ آسيا الصغرىٰ وأخذوا يشتركون في الحرب ضد البيزنطيين، ونجحوا في تأسيس إمارات توارثوا الحكم فيها، وخضعت إحدىٰ هذه الإمارات بعد ذلك لقبيلة تركية هي التي صارت تعرف باسم الأتراك العثمانيين الذين قدر لهم أن يقضوا علىٰ الدولة البيزنطية، وأن يحكموا النصف الغربي من العالم الإسلامي، وأن يستولوا علىٰ جزء كبير من شرق أوروبا.

أما في الأندلس فقد أخذ نفوذ المسلمين في التقلص لحساب دويلات النصارىٰ في أسبانيا إلىٰ أن انحصر في (غرناطة) التي قضىٰ عليها وبذلك انتهىٰ سلطان العرب في الأندلس في سنة ٨٩٧هـ، (١٤٩٢م).





الفصل الثاني
نظام الحكم والإدارة والتشريع

وضع الإسلام الأسس العامة للدولة، ولم يتعرض في كثير من الأحوال للتفاصيل وكان من جراء ذلك أن تطورت نظم الحكم والإدارة والتشريع في الدولة الإسلامية حسب الظروف التاريخية ومقتضيات المجتمع وتقاليد الأمم التي دخلها الإسلام ولكن في إطار أحكام الإسلام ومبادئه الأساسية، ومن ثم حظيت الحضارة الإسلامية بنظم ووظائف ومراسيم تطورت إلىٰ درجة رفيعة من الدقة والتنسيق والتفريع، ومن أهم هذه النظم وأكثرها شمولا الخلافة والإمارة والوزارة وإدارة الدواوين والقضاء والجيش.



الخلافة

اختلف في اشتقاق لفظة خليفة: فقيل أنه فعيل بمعنىٰ مفعول كجريح بمعنىٰ مجروح أي أن المعنىٰ «أن يخلفه من بعده» ومن هنا حُملت الآية الكريمة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، علىٰ قول من قال «إن آدم أول من عمر الأرض وخلفه فيها بنوه».

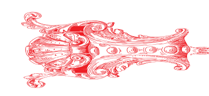
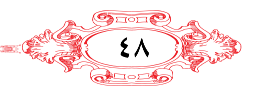
ومن جهة أخرىٰ قيل فعيل بمعنىٰ فاعل، ويكون المعنىٰ «أن يخلف من قبله» وعليه حُملت الآية عند من قال إنه كان قبل آدم في الأرض الجنة وأنه خلفهم فيها، وعليه خوطب أبو بكر الصديق بخليفة رسول الله.

أما الهاء في خليفة فقيل لتأنيث الصيغة وقيل للمبالغة وربما حذفت، وتجمع خليفة علىٰ خلفاء وخلائف(١)، والنسبة الصحيحة منه «خلفي» ولو أن بعض الكتاب يقول «خليفتي».

وأجيز أن يقال «خليفة رسول الله»، واختلف في جواز أن يقال «خليفة الله».

ومع ذلك فقد أطلق لقب «خليفة الله» علىٰ المأمون في سكة من المحمدية بتاريخ سنة ٣٠٣هـ كما أطلق علىٰ بعض الخلفاء العباسيين لقب «خليفة الله علىٰ كافة أهل الإسلام» و«خليفته في أرضه ونائبه في خلقه».

(١) القلقشندي صبح الأعشي جه٥ (ص٤٤٤-٤٤٧)، ضوء الصبح المسفر ص٣٤ عن النحاس في صناعة الكتابة، البغوي والماوردي في الأحكام السلطانية.

ويبدو من هذه الألقاب أن الخليفة العباسي ربما كان يعتبر نفسه مفوضًا من الله لإقرار دينه وحكم الناس. ومن الملاحظ أن هذا التصور كان معروفًا عند الساسانيين ومع ذلك فقد ظهر لقب «خليفة الله» علىٰ فلس ينسبه البعض إلىٰ عبد الملك بن مروان.

وقد اشترط الفقهاء للخلافة أربعة شروط يجب أن تتوفر في الخليفة: هي العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس، واختلفوا في شرط خامس: وهو ضرورة أن يكون من قريش.

وكان يتبع الخليفة مباشرة عدد من الخطوط الدينية والشرعية والوظائف الكبرىٰ: وهي الصلاة والفتيا والقضاء والحسبة، وكانت تجب له طاعة المسلمين وسائر رعيته.

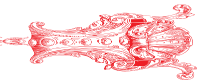
وكان للخلافة علامات ثلاث: هي البردة والخاتم والقضيب.

أما شاراتها فكانت ثلاثًا أيضًا: وهي الخطبة والسكة والطراز[(١)].

ولم تكن الخلافة وراثية إلىٰ أن جاء معاوية فجعلها وراثية في أسرته: وذلك حين حاول في سنة ٥٨ هـ ٦٧٦م أن يحصل علىٰ البيعة لابنه يزيد، وظلت وراثية منذ ذلك الوقت، غير أن الخليفة كان لابد من أن يبايعه المسلمون.

وجرت عادة الخلفاء العباسيين ولا سيما في العصر العباسي الأول أن كان الخليفة يعهد إلىٰ أكثر من واحد: فمثلا قد يعهد إلىٰ أكبر أبنائه ثم إلىٰ ما يليه من أبنائه أو إلىٰ أحد أقاربه، وقد أدىٰ ذلك إلىٰ اضطراب وبلبلة: إذ كان الخليفة الجديد يلغي العهد السابق، ويعهد بدوره إلىٰ أكبر أبنائه:

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ٢١٠ و٢٤٢و ٢٦١.



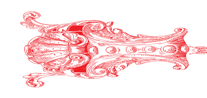
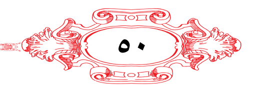
فمثلا نجد أن السفاح عهد إلىٰ أخيه المنصور ثم إلىٰ ابن أخيه عيسىٰ بن موسىٰ، وحين تولىٰ المنصور الخلافة خلع عيسىٰ بن موسىٰ من ولاية العهد وعهد إلي ولديه المهدي والمهتدىٰ، ثم عهد المهدي بدوره إلىٰ ولديه الهادي ثم الرشيد، ثم نجد الرشيد يولي العهد أولاده الثلاثة: الأمين والمأمون والمؤتمن، ويقسم البلاد بينهم: ويحاول الأمين أن يولي عهده ابنه موسىٰ بدلا من أخويه مما أدىٰ إلىٰ نشوب الحرب بين الأمين والمأمون ثم قتل الأمين.

علىٰ أننا نجد أحد الخلفاء العباسيين وهو الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ) يرفض أن يوصي لابنه بولاية العهد ويقول: «لا يراني الله أتقلدها حيًا وميتًا». وقد ولىٰ الخلافة بعده أخوه المتوكل.

ومنذ المتوكل استبد غلمان الأتراك باختيار الخليفة الجديد ولو أنهم كانوا يحرصون علىٰ أن يكون الخليفة من بني العباس.

واستطاع خلفاء العصر العباسي الأول أن يكون لهم الكلمة العليا في الدولة ثم أخذ نفوذهم بعد ذلك في التقلص: إذ مر علىٰ الخلافة فترات ضعف فيها شأنها، واستبد بسلطتها رجال الدولة، واستقلت عنها ولايات انفرد بحكمها أمراؤها ومع ذلك ظل للخليفة مكانته واحترامه وسلطانه الروحي طالما كان في الخلافة، كما ظل محتفظًا بحق التعيين حتىٰ في عصر استبداد البويهيين بالحكم، بل إن كبار الولاة المستقلين كانوا يحرصون دائمًا علىٰ الحصول علىٰ تصديق الخليفة علىٰ ولايتهم، وعلىٰ تفويضه لهم الحكم والجهاد وحق التولية.

ولكن كان من أثر الحروب الصليبية وتقاعس الخلفاء عن دفع الصليبيين، وتصدىٰ غيرهم من الولاة والأمراء للدفاع عن الإسلام والجهاد

في سبيل الله، ودفاعهم عن الأراضي المقدسة أن فقدت الخلافة كثيرًا من قيمتها الروحية بعد أن سلبت سلطانها المادي.

ومع ذلك فقد ظل العالم الإسلامي يشعر بالفراغ بعد قضاء هولاكو علىٰ الخلافة العباسية في بغداد، ومن ثم بعثها بيبرس من جديد في القاهرة حيث صار الخليفة يفوض إلىٰ السلطان الولاية والأمور العامة، وقد ظل ملوك الهند وكثير غيرهم من ملوك الإسلام يطلبون التقليد من الخليفة العباسي في القاهرة، وكانوا يكاتبون في ذلك سلاطين المماليك، وكان هؤلاء يجيبونهم إلىٰ ذلك ويبعثون إليهم بالتقاليد والخلع والألوية بالشعار العباسي حسب العادة القديمة(١).

وحين دخل العثمانيون مصر كانت الخلافة في يد أبي الصبر يعقوب بن عبد العزيز الذي كان قد بويع بالخلافة سنة ٩٠٣هـ، وقد بويع ولده المتوكل علىٰ الله محمد بالقسطنطينية، وكان السلطان سليم قد أخذه معه، فلما توفىٰ سليم عاد المتوكل إلىٰ مصر وظل بها إلىٰ أن توفي في شعبان ٩٥٠هـ في أيام داود باشا، وبموته انتهت الخلافة العباسية من الدنيا، ثم جدت أن اتخذ العثمانيون الخلافة في وقت متأخر(٢).

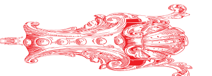
ونظرًا إلىٰ اعتبار الخلفاء من موظفي الدولة الذين يلزمهم التفرغ التام للقيام بمهام وظيفتهم فرضت لهم الرواتب أو المرتبات بالإضافة إلىٰ الغنائم المحددة شرعًا، وإلىٰ ما كانوا يفرضونه لأهلهم وأبنائهم من ضياع وأموال.

وظهر فرض رواتب الخلفاء بصورة محددة واضحة في زمن متأخر نسبيًا، غير أنه من المعروف أن أبا بكر قد فرض له ستة آلاف درهم

---

(١) المقريزي: الدرر المضيئة في تاريخ الإسلام، مخطوطة ص٢٧٤ب.

(٢) ابن إياس: تاريخ مصر جـ٢ ص٣٣٤.



لما يصلحه ويصلح عياله بالمعروف، وكان هذا مرتب أوساط المسلمين في ذلك الوقت.

ولم يرد ذكر لمرتبات الخلفاء بعد ذلك إلىٰ أن جاء ابن رائق أمير الأمراء في أوائل القرن الرابع الهجري وكف يد الخليفة الراضي بالله عن بيت المال وبذلك صار الخلفاء في حاجة إلىٰ الراتب الزهيد الذي فرض لهم، ولما استولىٰ معز الدولة الديلمي علىٰ بغداد سنة ٣٣٤هـ فرض للخليفة المستكفي خمسة آلاف درهم كل يوم لنفقاته غير أنه قلما كان يحصل علىٰ هذا الراتب.

وتكونت الخلافة مع تطور الزمن مراسمها من آداب الدخول علىٰ الخليفة، والاستئذان والمجالسة، والاحتجاب عن الجلساء، وعلامات صرف الجلساء، ومجالس الأدب والشعر، واحترام أهل العلم، وتقديم الشعراء وعطائهم، ومجالس المناظرة والعلم، ومجالس الغناء والأنس، والمواكب والاحتفالات، والخلع علىٰ رجال الدولة واستقبال الوفود وغير ذلك[1].

كما عنىٰ الكتاب بتوضيح مراسيم الكتابة عن الخلفاء وإليهم، كما عنوا بذكر صيغ مبايعتهم وعهودهم وطريقة مخاطبتهم، والتقاليد المرسلة منهم، والولايات الصادرة عنهم.

ومن المراسيم التي اهتم بها الكتاب بصفة عامة ألقاب الخلفاء وأنواعها وترتيبها في الظروف المختلفة، وقد أفردوا لذلك أجزاء كبيرة من البحوث والمؤلفات.

---

(١) جرجي زيدان: التمدن الإسلامي جـ٥ (ص١٣١).

وكان الخليفة يطلق عليه ألقاب عامة، وأول هذه الألقاب ظهورًا هو لقب أمير المؤمنين.

ولم يطلق لقب أمير المؤمنين علىٰ النبي ﷺ غير أن العرب غير المسلمين كانوا يلقبونه بأمير مكة وأمير الحجاز، وبعد وفاة النبي ﷺ خلفه في الولاية العامة أبو بكر فصار يسمىٰ خليفة رسول الله، ولما جاء بعده عمر بن الخطاب صار يسمىٰ خليفة خليفة رسول الله، وكأن المسلمين استثقلوا هذا الاسم فلقبوه بأمير المؤمنين، وربما أطلق الاسم مصادفة فاستحسنه الناس.

ومنذ عهد عمر صار «أمير المؤمنين» هو اللقب الرسمي لمن شغل الولاية العامة علىٰ المسلمين، واتخذه الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وبني العباس، والفاطميون، وبنو أمية في الأندلس منذ سنة ٣١٦هـ، والموحدون منذ عهد عبد المؤمن بن علي وبنو حفص والزيدية في اليمن.

ومن الملاحظ أن لقب «أمير المؤمنين» ورد في اللغة اليونانية بصيغ قريبة من النطق العربي[(١)]، كما وردت له ترجمة حرفية في بعض أوراق البردي اليونانية، كما وردت في بعض الوثائق الصينية التي ترجع إلىٰ القرن الثاني الهجري (٨م) نتيجة للعلاقات التىٰ وجدت بين الدولة الإسلامية في العصر العباسي والصين في عهد أسرة تانج، وقد ظهر بصيغة قريبة من الصيغة العربية هي: هامي - مز - مو - ني. وفي هذه الوثائق ورد اسم الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور بصيغة آ - بو - لو - با - واسم هارون الرشيد: آ - لون.

---

(١) د. حسن الباشا: الألقاب الإسلامية ص ١٩٥. انظر أيضًا:

CPR III, 1-2, p. xx,

هذا وقد تألف من لقب «أمير المؤمنين» ألقاب أخرىٰ أطلقت علىٰ باقي رجال الدولة: مثل «مولىٰ أمير المؤمنين» و«حسام أمير المؤمنين»، وتوضح هذه الألقاب مدىٰ الصلة بين الخليفة والملقب، وإن دراسة تطور هذه الألقاب علىٰ مدىٰ الزمن تبين كيف أن سلطة الخلفاء أخذت تضمحل إزاء سلطة الأمراء: فبعد أن كان الوالي يلقب في أول الأمر «بمولىٰ أمير المؤمنين» صار في عصر بني بويه يلقب «بقسيم أمير المؤمنين».

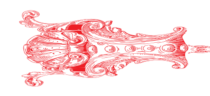
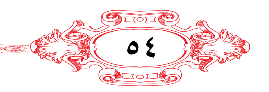
ومن الألقاب العامة التي اتخذها خلفاء بني العباس أيضًا لقب إمام، واللفظة مشتقة من «أم»، أي تقدم وأصبح قدوة، وجاء بهذا المعنىٰ في القرآن الكريم في آيات كثيرة.

ومن أبرز استعمالاته في الإسلام إطلاقه علىٰ ولىٰ الأمر أي الوالي أو الحاكم - وجاء بمعنىٰ ولي الأمر والوالي والحاكم في أحاديث نبوية شريفة مثل: «أبغض الناس إلىٰ يوم القيامة وأبعدهم منه مجلسًا إمام جائر».

ولكن لم يثبت من الوثائق التاريخية أن أحدًا من خلفاء صدر الإسلام وبني أمية أطلق عليه هذا اللقب في حياته علىٰ سبيل التكريم ولو أن العرف جرىٰ علىٰ إطلاقه علىٰ علي بن أبي طالب.

وذكر القلقشندي أن أول من تلقب «بالإمام» هو إبراهيم بن محمد من بني العباس ويفهم من نص القلقشندي في كتابه: «ضوء الصبح المسفر» أن لقب «الإمام» لم يكن في هذه الحالة لقبًا عامًا بل كان نعتًا خاصًا إذ يقول «ولقب إبراهيم بن محمد العباسي بالإمام ولقب أول الخلفاء العباسيين «بالسفاح» ثم لقب أخوه أبو جعفر بالمنصور ثم توالت ألقاب خلفائهم بعد ذلك «إلىٰ الآن».

ويغلب علىٰ الظن أن أول من أطلق عليه «الإمام» كلقب فخري عام هو المهدي حين كان وليًا للعهد إذ ورد ضمن ألقابه علىٰ سكة بتاريخ سنة

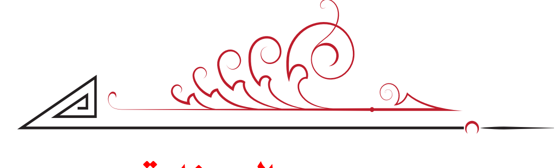
١٥١هـ من بخارىٰ[١]، ومن ذلك الوقت صار هذا اللقب عاما علىٰ خلفاء بني العباس وغيرهم، وتجدر الإشارة إلىٰ الصلة بين تلقب المهدي «بالإمام» ونعته «المهدي» إذ أن في ذلك إشارة إلىٰ أن مهمة الإمام هي الهداية وقد جاء ذلك في الآية الكريمة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وجرت العادة منذ العصر العباسي أن يتخذ الخلفاء نعوتًا خاصة بهم كالرشيد والمعتصم، وكان من عادة الخلفاء العباسيين ألا يتلقب خليفة بلقب خليفة قبله إلىٰ أن انتقلت الخلافة العباسية إلىٰ القاهرة فأخذ الخلفاء ألقاب الخلفاء قبلهم.

وكانت سلسلة ألقاب الخليفة تفتتح في المكاتبات بعبد الله ووليه وكان يتسمىٰ بكنيته كما كان يلقب بكثير من ألقاب الكناية مثل الحضرة والديوان العزيز.

كما اهتم الكتاب بالإشارة إلىٰ أدعية الخلفاء مثل «الطلبقة» أو دعاء «أطال الله بقاءه» الذي كان مخصوصًا بهم.

(١) Katalog der Orientalischen Munzen, Konigliche Museen zu Berlin. Berlin 1898.



الــوزارة

الوزير كلمة عربية اختلف في اشتقاقها: فقيل إنها مشتقة من الوَزَرْ بفتح الواو والزاي وهو الملجأ، سمي الوزير بذلك لأن الرعية يلجأون إليه في حوائجهم، وقيل مشتقة من الأوزار بمعن الأمتعة، لأنه متقلد بخزائن الملك وأمتعته، وقيل من الوِزْر بكسر الواو وسكون الزاي وهو الثقل لأنه يتحمل أثقال الملك، وقيل من الأزر وهو الظهر سمي بذلك لأنه يقوي الحاكم الأعلىٰ كما يقوي الظهر البدن[1].

وعرفت وظيفة الوزير بصفة غير رسمية عند العرب قبل الإسلام وفي صدر الإسلام، إذ كان العرب الذين خالطوا الروم، والفرس قبل الإسلام يسمون أبا بكر وزير النبي ﷺ، وكذلك كان شأن عمر مع أبي بكر وشأن علي وعثمان مع عمر.

وذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب بعث إلىٰ الكوفة بعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وقال لأهل الكوفة: إني بعثت بعمار بن ياسر أميرًا وعبد الله بن مسعود معلمًا ووزيرًا[2].

وفي عصر بني أمية تلقب بالوزير زياد بن أبيه في عصر معاوية بن أبي سفيان، وروح بن زنباع الجذامي في عهد عبد الملك، وربما كانت

(١) القلقشندي: صبح الأعشىٰ جـ٥ ص٤٨٨.

(٢) دكتور حسن إبراهيم حسن: نظم ط٣ ص١١٣.

تسمية الوزير في صدر الإسلام والعصر الأموي مستمدة من الآيات الكريمة: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: ٢٩-٣٢].

غير أن وظيفة الوزير بدأت تتحدد معالمها في العصر العباسي: إذ صار الخليفة العباسي يستعين في إدارة شئون الدولة وتصريف أمورها والإشراف علىٰ دواوينها وإعداد مكاتباتها وتنظيم أموالها بموظف أطلق عليه لقب وزير، ويبدو أن منصب الوزير في العصر العباسي تطور عن منصب الكاتب في العصر الأموي، وربما وجد أكثر من وزير كان يرأسهم أحدهم(١).

وكان أبو سلمة الخلال أول وزراء بني العباس وكان يلقب «بوزير آل محمد» وصار الوزير في العصر العباسي الأول يتقاضىٰ مرتبًا ضخما بالإضافة إلىٰ الإقطاع.

ويتميز العصر العباسي الأول بالصراع بين سلطة الخليفة وسلطة الوزير: ذلك الصراع الذي كان يؤدي عادة إلىٰ القضاء علىٰ الوزير، غير أن الصراع بين السلطتين لم يكن ينتهي بالقضاء علىٰ أحد الوزراء: إذ كان من يحل محله لا يلبث أن يحاول إقرار سلطة الوزارة وتقوية نفوذها، ومما تجدر الإشارة إليه أنه في كثير من الأحيان كان يشغل الوزارة في العصر العباسي رجال من أصل فارسي وكانوا يعملون علىٰ إقرار أسرهم في هذا المنصب، وربما فعلوا ذلك تأثرًا بالتقاليد الساسانية أو محاولة منهم لإرجاع السلطة إلىٰ الفرس، ومن الأسر الفارسية التي نجحت في الوصول إلىٰ هذا المنصب فترة من الزمن ثم قضىٰ عليها أسرة البرامكة في عهد الرشيد(٢).

(١) جاء في الإمامة والسياسة جـ٢ ص٢٣١ أن أبا العباس السفاح استشار وزراءه في بعض الأمور.

(٢) ديمو مبين: نظم ص. ١٥٠

ولم يتعرض الوزراء في العصر العباسي للضغط من قبل الخلافة فقط بل إنهم تعرضوا لضغط آخر من قبل الطامعين في الاستئثار بالنفوذ والسلطان من العسكريين من غلمان الخلفاء ولا سيما من الأتراك.

وكاد هذا الضغط في وقت من الأوقات أن يؤدي إلىٰ زوال هذا المنصب: إذ حدث بعد مقتل المتوكل في سنة ٢٤٧هـ أن توقفت الوزارة مدة تسع سنوات، ولم ترجع إلا بخلافة المعتمد في سنة ٢٥٦هـ.

وبالرغم من المنافسة الشديدة التي تعرض لها الوزراء من قبل الخلفاء من جهة ومن قبل القواد الأتراك من جهة أخرىٰ، فقد نجح بعضهم في إثبات أسمائهم علىٰ السكة وعلىٰ طراز المنسوجات[١]، وفي بداية القرن الرابع الهجري (١٠م) شغل منصب الوزارة أبو الحسن علي بن عيسىٰ الذي ساعدته كفاءته وخبرته وأخلاقه علىٰ أن يستفيد من كفاح سلفه من الوزراء في إقرار منصب الوزير وسلطته وفي ضبط أمور الدولة وحسن تدبيرها.

ولكن لم تلبث أن تدهورت سلطة الوزارة منذ خلافة الراضي (٣٢٢-٣٢٨هـ) بسبب ظهور منصب أمير الأمراء، ثم انحط مركزها في عهد بني بويه إذ صار الوزير سواء أكان وزيرًا للخليفة أو لأمير الأمراء أشبه بالكاتب، وفي هذا العهد أطلق علىٰ الوزراء لقب «الصاحب».

وفي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (١١م) ظهر وزراء أقوياء في الأسر التي استقلت عن الخلافة العباسية واستطاع بعضها أن يسيطر عليها مثل بعض وزراء السلاجقة، ومن أشهر هؤلاء الوزراء نظام الملك الذي وزر للسلطان ألب أرسلان وللسلطان ملكشاه، وكان قوي النفوذ عظيم السلطان.

---

(١) د. حسن الباشا: الفنون الإسلامية جـ٣ ص١٢٣٥.

وانتقل منصب الوزارة من الدولة السلجوقية إلىٰ دول الأتابكة وغيرها من الدول التي تفرعت منها ثم انتقل من الدول الأتابكية وبخاصة الدولة النورية إلىٰ مصر في عهد الأيوبيين ثم في عصر المماليك، علىٰ أن مصر كانت قد عرفت منصب الوزارة قبل ذلك إذ يرجع إلىٰ ما قبل العصر الفاطمي.

وكما ورث الأيوبيون والمماليك في مصر منصب الوزارة عن العباسيين والسلاجقة ورثه أيضًا المغول في إيران والعراق وكذلك الدويلات المعاصرة، كما عرف أيضًا في غرب العالم الإسلامي: في بلاد الأندلس والمغرب.

ونظرًا إلىٰ أهمية منصب الوزارة وانتشاره في الدول الإسلامية المختلفة أفردت عن الوزارة والوزراء كثير من المؤلفات مثل كتاب «أدب الوزير» للماوردي، وكتاب «الوزراء» لابن عبدوس الجهشياري، و«الإشارة إلىٰ من نار الوزارة» لابن الصيرفي، كما عنيت به كثير من كتب النظم والمصطلح وغيرها من المؤلفات.

وتتحدث بعض كتب النظم عن نوعين من الوزارة هما: وزارة التفويض، ووزارة التنفيذ ويختلف النوعان من حيث السلطات والشروط.

فمن حيث السلطات يجوز لوزير التفويض دون وزير التنفيذ مباشرة الحكم والنظر في المظالم وحق تفويض الولاة، والانفراد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب والتصرف في أموال بيت المال بقبض ما يستحق له ودفع ما يجب فيه.

*** ومن حيث الشروط يشترط في وزير التفويض دون وزير التنفيذ:**

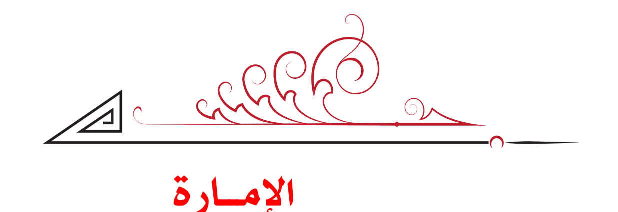
(١) الحرية.

(٢) الإسلام.

(٣) العلم بالأحكام الشرعية.

(٤) المعرفة بأمري الحرب والخراج.

أما فيما عدا ذلك فيستوي النوعان في باقي الحقوق والشروط ومع ذلك فليس لدينا أدلة تاريخية عن تطبيق عملي لمثل هذا التقسيم المحدد.



الإمــارة

الأمير هو ذو الأمر أو المتسلط، وتستخدم هذه اللفظة كاسم وظيفة أو للدلالة علىٰ طبقة أو رتبة أو كلقب فخري.

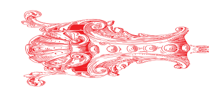
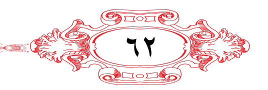
ومن حيث استخدام اللفظة كاسم وظيفة بمعنىٰ الوالي فقد عرفت عند العرب قبل الإسلام واستخدمت أيضًا في صدر الإسلام.

وكان نظام الحكم الإسلام يقتضي أن يلي أمور المسلمين والٍ أعلىٰ هو الخليفة له حق الطاعة علىٰ الأمة كلها، وكانت البلاد الإسلامية تنقسم إلىٰ أقطار أو ولايات يولي عليها ولاة يستمدون سلطانهم من الخليفة ويتبعونه، وقد ظل هذا النظام سائدًا في الدولة العباسية التي كانت تنقسم إلىٰ عدة ولايات كان يولي علىٰ كل منها وال.

وكانت ولايات الدولة العباسية في عهد السفاح مثلا كما يلي:

(١) الكوفة والسواد (ما بين الفرات ودجلة) (٢) البصرة وإقليم دجلة والبحرين وعمان (٣) الحجاز واليمامة (٤) اليمن (٥) الأهواز ويشمل خوزستان وسستان (٦) فارس (٧) خراسان (٨) الموصل (٩) الجزيرة (١٠) سوريا (١١) مصر وأفريقية (١٢) السند.

وقد كان يجمع بين بعض هذه الولايات في بعض الأحيان أو تقسم الواحدة منها إلىٰ ولايتين أو أكثر، وقد فصل السفاح مثلا فلسطين عن الشام

كما فصل أرمينية وأذربيجان عن الجزيرة وجعل منها ولايتين، وكانت صقلية تتبع لولاية أفريقية، واستمرت أفريقية تتبع والي مصر إلىٰ أن استقل بأفريقية إبراهيم بن الأغلب في عهد هارون الرشيد استقلالا داخليًا.

وكان الاسم الرسمي لكل من يلي هذه الولايات هو أمير، وقد استخدم لقب «الأمير» للولاة في جميع الأقطار الإسلامية سواء أكانوا خاضعين للخلافة خضوعًا فعليًا أو إسميًا أو كانوا مستقلين عنها وكذلك أطلق علىٰ الوالي الذي كان يستولي علىٰ ولايته عنوة، (وفي العصور المتأخرة أطلق علىٰ الوالي اسم الملك أو السلطان وأسماء أخرىٰ).

وآفاض الكتاب[1] في الكلام عن الأمير وواجباته وشروطه ومهماته أحيانًا من الناحية النظرية أو الفقهية وأحيانًا أخرىٰ وصفًا لما هو كائن فعلا فقسموا الإمارة إلىٰ نوعين إمارة خاصة وإمارة عامة، وأما الإمارة الخاصة فهي أن يقتصر فيها إشراف الأمير علىٰ تدبير الجيش وسياسة الشعب وحماية الولاية في حدود معينة فقد لا يكون له حق الإشراف علىٰ القضاء أو المال أو إمامة الصلاة إذ قد يعين لها الخليفة مشرفين مستقلين عن الأمير، وكانت الإمارات الخاصة قليلة في إبان الخلافة العباسية.

وأما الإمارة العامة فقسموها إلىٰ نوعين: أولهما إمارة استكفاء وهي التي تنعقد عن اختيار الخليفة وبتفويض منه، وثانيهما إمارة استيلاء وهي تنعقد عن اضطرار بأن يستولي الوالي علىٰ الولاية بالقوة بحيث يضطر الخليفة إلىٰ الاعتراف به[2].

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٢٨، القلقشندي: صبح الأعشي ج٩ (ص٣٩٩-٤٠٣).

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٣٨.

ومهمة الأمير في كلتا الحالتين هي النظر في أمور الدين في ولايته ولا سيما الصلاة وإمامتها، والإدارة والسياسة والحكم، والدفاع وإعداد الجيش وقيادته، والحكم والقضاء، وتدبير الأمور، وينيب الأمير بطبيعة الحال من يقوم عنه بأداء هذه الأعمال، وفي حالة تبعية الأمير للخلافة تبعية حقيقية قد ينفرد بالإدارة المالية موظف مستقل عنه يكون مسئولا مسئولية مباشرة أمام الخليفة يسمىٰ العامل أو صاحب الخراج.

وجرت العادة أن يقيم الأمير في قصر بجوار المسجد يسمىٰ دار الإمارة.

وكان الأمراء يسكون أسماءهم علىٰ العملة بالإضافة إلىٰ اسم الخليفة وكذلك علىٰ الطراز.

وظل لقب الأمير يطلق علىٰ ولاة الأسر التي استقلت بولاياتها مثل الطولونيين والإخشيديين في مصر وبني حمدان وبني مرداس في حلب (القرن الخامس هـ) وبني مروان في ميافارقين وآمد (ق٤هـ) وبني عقيل في العراق وبين النهرين، والطاهريين والسامانيين وغيرهم.

كما أطلق أيضًا علىٰ الولاة من بني بويه الذين أنشئت بظهورهم إمارة ثانية في قلب الخلافة العباسية نفسها إذ تحكموا في بغداد وصار الخليفة بالنسبة لهم في المرتبة الثانية من حيث الإدارة والسياسة فصار لهم الوزراء وللخلفاء الكتاب.

وكان أبناء الخلفاء وولاة عهدهم إذا ولوا ولايات أطلق عليهم لقب الأمير، وقد أطلق علىٰ الأمين محمد بن أمير المؤمنين علىٰ سكة بتاريخ سنة ١٨٣هـ، وكذلك علىٰ المأمون حينما ولي حاكمًا فخريًا علىٰ نيسابور فيما

بين سنتي ١٨٧هـ و١٩١، وعلىٰ سكة بتاريخ سنة ١٨٧هـ من بلخ باسم «الأمير المأمون عبد الله بن أمير المؤمنين ولي عهد المسلمين» كما أطلق أيضا علىٰ الأمير الرضا ولي عهد المسلمين علي بن موسىٰ علىٰ سكة بتاريخ سنة ٢٠٢ هـ من مدينة سمرقند، ومن المعروف أنه ولي هو الآخر حاكمًا فخريا من قبل العباسيين(١).

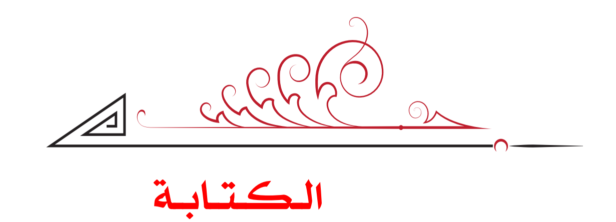
وعرف «الأمير» أيضًا كاسم لوظيفة الوالي في غرب العالم الإسلامي أي في بلاد الأندلس وشمال أفريقية.

ومن المعروف أن والي الأندلس الذي كان يتبع الوالي العام للمغرب صار يسمىٰ بعد فتح إسبانيا بالأمير، وصار بنو أمية يتلقبون بالإمارة منذ أن استقر عبد الرحمن بن معاوية بالأندلس عام ١٣٨هـ حتىٰ تولىٰ الأمير عبد الرحمن بن محمد إمارة قرطبة فأمر في ٢٨ ذي القعدة سنة ٣١٦هـ أن يخطب له بأمير المؤمنين.

وفي شمال أفريقية عرف الولاة باسم الأمراء بل إن أولي الأمر من المرابطين تلقبوا بالإمارة في أول الأمر، وظل لقب الأمير ينقش علىٰ السكة إلىٰ أن آل الأمر إلىٰ يوسف بن تاشفين فاتخذ لقب أمير المسلمين بعد فترة من حكمه.

---

(١) د. حسن الباشا: الفنون الإسلامية جـ١ ص١٢٩.



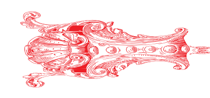
الـكـتـابـة

اسم فاعل من كتب ومعناها جمع يقال «تكتب القوم» إذا تجمعوا ومنه قيل لجماعة الخيل كتيبة، ومن ثم سمي الخط كتابة لجمع الحروف وضم بعضها إلىٰ بعض.

ويطلق لفظ كاتب علىٰ كل من يقوم بالكتابة وبالتحرير.

ومهمة الكاتب الكتابة بأشكالها المختلفة من إنشائية وحسابية ومالية وغير ذلك وجرت العادة أن يتخذ أولياء الأمور كتابًا يستعينون بهم في إنشاء المكاتبات الخاصة بهم وفي عمل الحسبانات اللازمة وغير ذلك من الأعمال الكتابية وقد وصلنا توقيع أحد هؤلاء الكتاب ضمن نقش أثري عربي يرجع إلىٰ ما قبل الإسلام: إذ عثر في أم الجمال علىٰ كتابة أثرية ترجع إلىٰ القرن السادس الميلادي علىٰ لوح من الحجر اصطلح علىٰ تسميتها بكتابة أم الجمال الثانية وهي تتضمن دعاء لأحد الكتاب نصه: «الله غفرا لأليه بن عبيده كاتب الخليد أعلىٰ بني عمري . . .» ويتضح من هذه الكتابة أن أليه بن عبيدة كان كاتبًا للخليد.

وبعد ظهور الإسلام اتخذ النبي ﷺ كتابًا يكتبون له القرآن والوثائق المختلفة كالمكاتبات التي كان يرسلها إلىٰ الملوك يدعوهم فيها إلىٰ الإسلام والعهود والمعاهدات وممن كتب للنبي ﷺ علي وعثمان وزيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم وسعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة.




ومنذ ذلك الوقت صار للخلفاء كتاب من ذوي العلم والمعرفة الملمين بالكتابة: فاتخذ أبو بكر عثمان بن عفان، واتخذ عمر زيد بن ثابت وعبد الله ابن الأرقم، واتخذ عثمان مروان، واخذ علي عبد الله بن أبي رافع.

وفي عهد عمر عين لكل ولاية إسلامية كاتب، كما عين محمد بن شاهين الزهري كاتبًا للجيش.

وكانت مهمة الكاتب في أول الأمر هي تحرير الرسائل والأوامر ولما دونت الدواوين اتسعت أعماله فشملت بالإضافة إلىٰ ذلك ضبط حساب الديوان وأسماء الجند وأعطياتهم[١].

أما بخصوص كتابة الخراج والجباية في الولايات فكان يقوم بها كتاب من أهلها إلىٰ أن عرب عبد الملك بن مروان الدواوين.

ونستطيع أن نقول أنه وجد في عصر الخلفاء الراشدين وصدر بني أمية ثلاثة أنواع من الكتبة: كتبة الرسائل، وكتبة ديوان الجيش، وكتبة المال والجبايات.

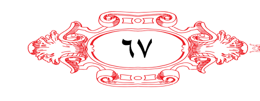
وبعد تعريب عبد الملك بن مروان للدواوين بدأت تظهر طبقة الكتاب التي صارت تمثل صفوة المثقفين، كما زاد أنواع الكتاب إلىٰ خمسة ظلت موجودة إلىٰ العصر العباسي: وهم كاتب الرسائل، وكاتب الخراج، وكاتب الجند، وكاتب الشرطة، وكاتب القاضي، وكان أعلاهم كاتب الرسائل[٢].

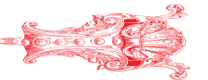
وأشار عبد الحميد كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في رسالة له إلىٰ كتاب الرسائل إلىٰ خطورة منصبهم، وإلىٰ ضرورة إلمامهم التام بصناعة الكتابة وإلىٰ الأخلاق والصفات الحميدة التي يجب أن يتحلوا بها.

---

(١) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب (ص١٢-١٤).

(٢) القلقشندي: صبح الأعشىٰ جـ١ ص.١٤٣





ووجه عبد الحميد هذه الرسالة إلىٰ «معشر الطلبة والكتبة» مما يستشف منه أن الكاتب كان يمر بمرحلة تدريبية هي مرحلة الطالب وذلك قبل أن يتولىٰ وظيفة الكتابة[(١)].

واحتل الكاتب في أواخر عصر بني أمية مكانة رفيعة تصورها مكانة عبد الحميد الكاتب عند مروان بن محمد حتىٰ أن الكاتب كان يسمىٰ أيضًا باسم مشير[(٢)].

ومهدت هذه المكانة لأن يصبح الكاتب في عصر العباسيين بمثابة وزير بل صار يطلق عليه أيضًا لقب وزير: إذ لقب السفاح كاتبه أبا سلمة الخلال بلقب وزير، ولم يتخذ المنصور في أول الأمر وزيرا واكتفىٰ بكاتبه عبد الملك بن حميد وقلده كتابة دواوينه ثم اتخذ أبا أيوب المورياني لينوب عنه في مرضه ثم جعله آخر الأمر وزيرًا له: واستقر من ذلك الوقت لقب الوزارة في الدولة العباسية، وصار الكاتب مجرد موظف في الدواوين العباسية المختلفة ولو أن كتاب الرسائل حظوا بمركز رفيع نظرًا لصلتهم الوثيقة بأولي الأمر من خلفاء وسلاطين ووزراء وأمراء حتىٰ أن بعضهم كانوا يستشارون في أمر تولية الخلافة.

وطرأ علىٰ منصب الكاتب تغيير مهم في عهد ابن رائق حين شغل سلطة الخليفة الراضي في ٦ ذي الحجة سنة ٣٢٤هـ/ ٩ نوفمبر ٩٣٦م وقيد سلطة الوزير وأبطل الدواوين وصار هو وكاتبه ينظران في الأمور جميعها، وظلت الحال كذلك بالنسبة لمن ولي الأمارة بعد ابن رائق: إذ اتسعت سلطات كاتب أمير الأمراء في عهد بني بويه وصار له الإشراف علىٰ سائر الموظفين والكتاب.

(١) ابن خلدون: المقدمة (ص٢٧٥-٢٧٩).

(٢) الفخري: (ص١٣٦-١٣٧).

واحتفظ الغرنويون بالنسبة للكتاب بالنظام الذي كان سائدًا في الدولة العباسية في ذلك الوقت: فكان كاتب السلطان قوي النفوذ يستشيره السلطان في شئون الدولة من تعيين الولاة إلىٰ تسيير الجيوش.

وظلت الحال علىٰ ذلك في دولة السلاجقة حيث اشتهر إلىٰ جانب كاتب الرسائل كاتب الخراج وكاتب الجند[1]. وفي عهد نظام الملك نشأت طبقة الكتاب الجياد الذين فرعوا المناصب وولوا المراتب.

ومع ذلك فقد كان يتولىٰ وظائف الكتاب في ذلك العصر بعض الأحيان أفراد غير ملمين بصناعة الكتابة الإلمام الكافي حتىٰ أنهم تعرضوا لسخرية بعض الشعراء:

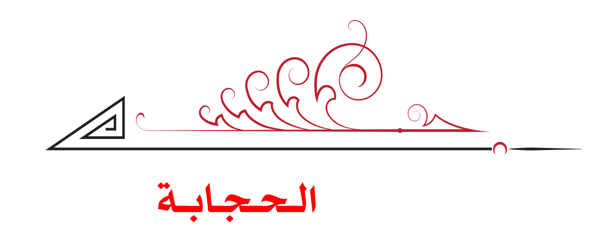
تعس الزمان لقد أتىٰ بعجاب ... ومحا صنوف العلم والآداب
وأتىٰ بكتاب لو انطلقت يدي يدي ... فيهم رددتهم إلىٰ الكتاب

وكان الكتاب أحيانًا موضع تهكم الشعراء إذ كانوا يتهمونهم بالرشوة والتوسط للبعض ظلمًا وبمشاركة العمال فيما يأتيهم من الهدايا.

وكان الكتاب في الولايات التابعة للخلافة الإسلامية يسيرون علىٰ نهج كتاب الخلافة وحسب أنظمتهم وكان الكتاب في مصر مثلا ينقسمون إلىٰ قسمين أساسيين هما كتاب الخراج أو المال ويتولون كتابة حساب الأموال، وكتاب الرسائل ويتولون تحرير رسائل الوالي واستمرت الحال علىٰ ذلك في العصر الطولوني وعصر الإخشيديين.

---

(١) دكتور عبد النعيم محمد حسنين: سلاجقة إيران والعراق ص١٦٧.



الحجابة

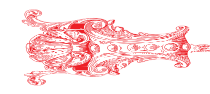
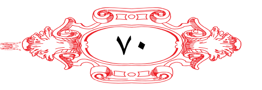
عرفت الحجابة في مكة قبل الإسلام وكانت تعني حراسة الكعبة وحفظ مفتاحها[١].

وعرفت الحجابة في الإسلام بدلالة جديدة إذ أصبح «الحاجب» يطلق علىٰ من يقوم بين الوالي وبين الناس ويطلب لهم الإذن لمقابلته وينظم الاتصال له، ولذلك كان من الطبيعي أن يكون علىٰ صلة وثيقة به.

وصارت وظيفة الحجابة ذات أهمية رسمية بعد محاولة الخوارج اغتيال معاوية بن أبي سفيان.

واستمرت وظيفة الحجابة في الدولة العباسية وزادت أهميتها وسلطتها تدريجيا، وبدأ الخلفاء العباسيون باتخاذ حجاب اقتصر سلطانهم في أول الأمر علىٰ حفظ باب الخليفة والاستئذان للداخلين عليه: ثم قوي سلطان الحاجب فصار يمنع الناس عن مقابلة الخليفة إلا في الأمور الهامة: إذ صار بين الناس والخليفة داران: دار الخاصة ودار العامة يقابل كل فئة في مكان حسب ما يراه الحجاب (وهذا ما يسمىٰ بالحجابة الثانية)، ثم تطور الأمر فصار الحجاب يحجرون علىٰ الخليفة نفسه، ويمنعون البطانة وسائر الأولياء من مقابلته بحجة المبالغة في الاحترام.

(١) دكتور جمال سرور: قيام الدولة العربية (ص٣٩-٤٢).

وكان للحجابة في العصر العباسي قوانين ورسوم أوضحها هلال الصابئ في كتابه رسوم دار الخلافة[(١)].

وصار يشغل هذه الوظيفة أفراد من العسكريين ذوي القدر الرفيع والرتبة العالية.

وأتاحت هذه الوظيفة لمن يشغلها فرصة للتحكم فيمن يحجبه من جهة وفي المحكومين من جهة أخرىٰ، كما تهيأت الظروف لبعض الحجاب في أن يغتصبوا السلطة ويؤسسوا دولا وأسرًا حاكمة: فكان سبكتكين مؤسس الدولة الغزنوية حاجبًا لنوح الثالث ثم لإبنيه منصور وعبد الملك رؤوس الدولة السامانية، وظل سبكتكين يلقب بالحاجب حتىٰ بعد توليه الملك.

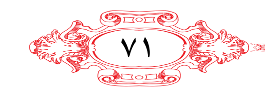
واستمرت وظيفة الحاجب في عصر السلاجقة من الوظائف الرئيسية كما كان الحاجب يعد من أهم رجال البلاط، كما صار واسطة بين السلطان والوزير: إذ صار هو الذي يتلقىٰ الأوامر شخصيًا من السلطان ويبلغها إلىٰ وزير وأعيان المملكة، كما كان هو الذي يبلغ مطالبهم إلىٰ السلطان، وكان الحاجب الأعظم (حاجب بزرك) يشرف علىٰ أمور البلاط، كما كان كثيرًا ما يتدخل في شئون الدولة ويستبد بها دون الوزير، كما كان أصحاب الدواوين أي رؤساء الدواوين يرجعون إليه في المسائل المتعلقة بدواوينهم.

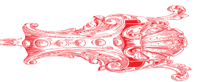
هذا وأطلق لقب حاجب الحجاب علىٰ حاجب الخليفة القائم في سنة ٤٥٣هـ. كما كان للحاجب في عصر السلاجقة نائب، ويبدو أنه منذ القرن السادس الهجري (١٢م) صار كبير الحجاب يسمىٰ بأمير حاجب مما يدل علىٰ قوة شوكته[(٢)].

---

(١) ص٧١.

(٢) انظر مثلا الراوندي: راحة الصدور (ص١٦٠و ٣٩٤).





وفي عصر السلاجقة أسس أيضًا بعض الحجاب أسرًا حاكمة، وأوضح مثال لذلك قسيم الدولة آق سنقر الحاجب أبو عماد الدين زنكي رأس الأسرة الزنكية التي حكمت الموصل وغيرها.

وحقق كثير من الحجاب في عصر السلاجقة والأتابكة درجة كبيرة من الثراء بالإضافة إلىٰ السلطة والنفوذ بحيث استطاعوا أن يشيدوا عمائر فخمة وضعوا عليها أسمائهم كما كان بعض الحجاب يسند إليهم الإشراف علىٰ تشييد بعض العمائر[(١)].

هذا وقد انتقلت وظيفة الحاجب إلىٰ الدولة الأيوبية في مصر وسوريا ثم المملوكية عن طريق دولة الأتابكة والدولة النورية إذ أن لقب الحجابة لم يعرف في الدولة الفاطمية حيث كان من يقوم بهذه الوظيفة يسمىٰ صاحب الباب، واتسعت سلطة الحاجب في مصر في عصر المماليك اتساعًا كبيرًا حتىٰ وصلت حد التدخل في الأحكام الشرعية ومزاحمة قضاة الشرع فيها كما زاد عددهم زيادة كبيرة، وصاروا ينقسمون إلىٰ درجات متفاوتة.

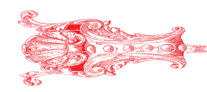
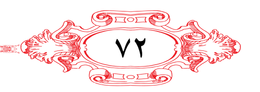
وعرف الحاجب في غرب العالم الإسلامي حيث تطور مدلوله واختصاصاته ففي أول الأمر كان الحاجب في الدولة الأموية بالأندلس يقوم بالوساطة بين الخليفة ووزرائه[(٢)]. وأخذت سلطة الحاجب في الاتساع حتىٰ أصبح أرفع الوزراء شأنًا وصار يسمىٰ بذي الوزارتين وصار يشرف علىٰ الشئون المدنية والعسكرية، ثم زاد نفوذه حتىٰ استبد بالأمر وسيطر علىٰ الخليفة، وبذلك صارت إليه أمور الدولة في أواخر الخلافة الأموية بالأندلس[(٣)].

---

(١) انظر مثلًا: Herzfeld, Khorasan, Islam, XI, P.167

(٢) Hitti, History of the Arabs, P. 527.

(٣) دكتور السيد عبد العزيز سالم: النظم السياسية بالأندلس ص٢٢٥.

ولما ولي الحجابة المنصور محمد بن أبي عامر في سنة ٣٩٢هـ حجر علىٰ الخليفة الطفل المؤيد هشام الثاني (٣٦٦-٣٩٩هـ/ ٩٧٦-١٠٠٩م) واتخذ الزاهرة عاصمة جديدة بناها بدلا من الزهراء.

ومن الغريب أن المنصور ظل محتفظًا بلقب الحاجب رغم استبداده بالسلطة، كما خلفه أبناؤه الذين احتفظوا بلقب الحاجب إلىٰ أن سقطت الدولة العامرية في سنة ١٠٠٨م.

واحتفظ ملوك الطوائف بالأندلس بلقب الحاجب رغم تلقبهم بألقاب الخلافة، وصار لقب الحاجب في عصرهم يعني الحاكم الشرعي والملك والخليفة أي صاحب السلطان الأول في الدولة.



الدواويـن

كانت الإدارة الحكومية في الدولة الإسلامية موزعة علىٰ عدد من الدواوين سواء في عاصمة الخلافة أو في الولايات حيث وجدت دواوين إقليمية.

ويثير الأصل اللغوي لكلمة الديوان بعض الخلاف؛ إذ يميل سيبويه إلىٰ أن اللفظة عربية إذ يقال دوَّنه بمعنىٰ أثبته[1] في حين يرىٰ ابن قتيبة[2] أن الديوان فارسي: إذ كان يقال للكتاب والحساب في الفارسية ديوان أي شياطين لحذقهم بالأمور وسمي موضعهم باسمهم، ويقال في ذلك أن كسرىٰ اطلع ذات يوم علىٰ كتاب ديوانه فرآهم يحسبون علىٰ أنفسهم فقال «ديوانه» أي مجانين، فسمي موضعهم بهذا الاسم، ثم حذفت الهاء عند كثرة الاستعمال تخفيفًا للاسم فقيل ديوان.

ويبدو أن الديوان عرف في الدولة الإسلامية أولًا بمعنىٰ السجل وذلك حين وضع عمر الديوان أي سجل إيرادات الدولة ومصروفاتها وأسماء المسلمين وأعطياتهم.

وظلت اللغة المكتوب بها في ديوان كل ولاية هي اللغة السائدة فيها إلىٰ أن أمر عبد الملك بتعريب الدواوين وكان لهذا أثره في نشر اللغة العربية وفي تقوية القومية العربية.

(١) الصولي: أدب الكتاب ص١٨٨.

(٢) عيون الأخبار جـ١ ص٦٩.

وصارت لفظة الديوان تنسحب علىٰ المكان الذي كان يعمل في الكتاب ومن ثم صار يطلق علىٰ الإدارة الحكومية لا سيما ما يتصل عملها بجباية الخراج أو الضرائب أو المكوس.

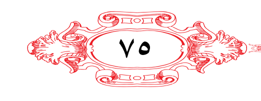
وجرت العادة أن يكون مكان الديوان بالمسجد الجامع في العاصمة ثم نقلت الدواوين من الجامع إلىٰ دار الإمارة أو دار الوزير أو القصر أو إلىٰ دار كانت تسمىٰ بدار الملك في العصر الفاطمي: (الأفضل). وفي عهد المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ) كانت الدواوين تغلق في دار الخلافة يومي الجمعة والثلاثاء.

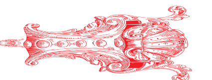
ويلاحظ أنه كان هنا تمييز واضح بين الديوان وبين السلطات المالية، وأيًا ما كان الحال فإنه لم يصلنا معلومات وافية عن الدوواين العباسية ومن ثم كان علىٰ الباحثين أن يجمعوا معلوماتهم من أخبار متفرقة وأن يحاولوا التوفيق بينها.

هذا وقد أنشأ المهدي ديوان الأزمة أو الزمام وكانت مهمته القيام بجمع ضرائب بلاد العراق، وتقديم حساب عن الضرائب في الأقاليم الأخرىٰ، كما كان من اختصاصه أيضًا جمع الضرائب العينية المسماة بالمعاون.

ووصلنا ثبتٌ بدواوين معينة في عهد المتوكل لكل منها اختصاصاته المتميزة فنجد مثلا ديوان الموالي والغلمان وكانت تسجل فيه أسماء موالي الخليفة وعبيده، وديوان النفقات وديوان الرسائل، وديوان النظر في المظالم ويتضح من وظيفته أنه كان لكل مواطن الحق في التظلم للخليفة نفسه.

وفي عهد المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ/ ٨٩٢-٩٠٢) ضمت دواوين الدولة في ديوان واحد أطلق عليه اسم «ديوان الدار» أو «ديوان الدار الكبير» وقسم





هذا الديوان إلىٰ ثلاثة أقسام: هي ديوان المشرق وديوان المغرب وديوان السواد العراق.

وكانت الدواوين بدورها تنقسم إلىٰ أصول وأزمة وكانت مهمة الأصل فرض الضرائب وحملها إلىٰ بيت المال.

وفي سنة ٣٠٠هـ/ ٩١١م في عهد المقتدر عين لكل من الأصل والزمام رئيس مستقل.

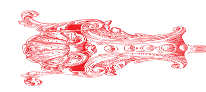
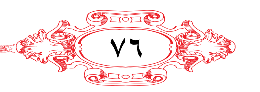
وفي عهده أيضًا ظهرت دواوين جديدة إذ نتيجة لازدياد المشاكل المالية أنشئ ديوان المصادرات أو المصادرين وكذلك ديوان الجهبذة أي المحاسبة أو الصيرفة كما أنشئ أيضًا ديوان التوقيع وديوان الفض وديوان الخاتم وديوان الأوقاف وديوان البر والصدقات.

هذا وقد وجدت دواوين أخرىٰ في عصور مختلفة مثل ديوان الحوائج وديوان الأحشام وديوان المنح أو المقاضاة وديوان الأكره للإشراف علىٰ التزع والجسور وشئون الري.

وأحيانًا نجد الإشارة إلىٰ مجموعة من الدواوين يجمعها ديوان النظر أو المكاتبات والمراجعات ويقسم أربعة أقسام: ديوان الجيش وفيه الإثبات والعطاء، وديوان الأعمال ويتولىٰ الرسوم والحقوق، وديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل، وديوان بيت المال وينظر في الدخل والخرج.

وكانت هناك إدارة خاصة تنظر في مصالح غير المسلمين يدعىٰ رئيسها الجهباز.

هذا وقد كثرت الدواوين كثرة كبيرة في الدولة الإسلامية وتنوعت وذلك نظرًا لما وصلت إليه أنظمة الدولة من تنميق وتفريع وتخصص؛ ومن

الملاحظ أنه ربما أبطل بعضها في وقت من الأوقات وربما استمر بعضها الآخر، وكان لكل من هذه الدواوين مهماته الخاصة وتقاليده وأنظمته[(١)].

ومن الدواوين التي أنشئت في الدولة الإسلامية مرتبة حسب الحروف الهجائية:

(١) ديوان الأحباس (أي الأوقاف). (٢) ديوان الأحداث والشرطة.

(٣) الأحشام. (٤) الأزمة.

(٥) الاستدارية. (٦) الاستيفاء.

(٧) استيفاء الخاص. (٨) الأسطول.

(٩) أسفل الأرض. (١٠) الأشراف.

(١١) الأعمال والجبايات. (١٢) الإقطاع.

(١٣) ديوان الأموال. (١٤) ديوان الإنشاء.

(١٥) الأهراء. (١٦) البر والصدقات.

(١٧) البريد. (١٨) البيمارستان.

(١٩) التحقيق. (٢٠) الترسل.

(٢١) التوقيع. (٢٢) الثغور.

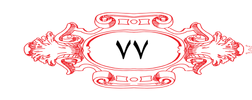
(٢٣) الجند. (٢٤) الجند والشاكرية.

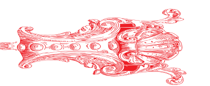
(٢٥) الجوالي والمواريث الحشرية. (٢٦) الجهبذة.

(٢٧) الجيش أو ديوان الجيوش. (٢٨) حاكم بغداد.

---

(١) دكتور عبد العزيز الدوري: نظم ص١٩٩.





(٢٩) الحجوبية الكبرىٰ. (٣٠) الحشر.

(٣١) الخاتم. (٣٢) الحكم.

(٣٣) الخاص. (٣٤) الخاصة.

(٣٥) الخراج. (٣٦) الخراجي.

(٣٧) الخرائط. (٣٨) الخزانة.

(٣٩) خزانة السلاح. (٤٠) خزائن الكسوة.

(٤١) الخلافة. (٤٢) الخمس.

(٤٣) الخواص. (٤٤) الدار.

(٤٥) الدية. (٤٦) الرسائل.

(٤٧) الزكاة. (٤٨) الرواتب.

(٤٩) الزمام. (٥٠) زمام الأزمة.

(٥١) زمام النفقات. (٥٢) السر.

(٥٣) السلطان. (٥٤) السواد.

(٥٥) الشد. (٥٦) الشرطة.

(٥٧) الصحبة. (٥٨) الديوان الشريف.

(٥٩) ديوان الصعيد. (٦٠) ديوان الصدقات.

(٦١) صندوق المستخرج. (٦٢) الصناعة.

(٦٣) الضياع. (٦٤) الصوافي.

(٦٥) الطغرا. (٦٦) الطراز.

(٦٧) العرض.
(٦٨) العطاء.
(٦٩) العساكر.
(٧٠) الديوان العزيز.
(٧١) الغلمان.
(٧٢) ديوان العمائر.
(٧٣) قاضي القضاة.
(٧٤) الغض.
(٧٥) الديوان الكبير.
(٧٦) الكراع.
(٧٧) ديوان الكشف.
(٧٨) القضاء.
(٧٩) المجلس.
(٨٠) المال.
(٨١) المرتجع.
(٨٢) المراسلات.
(٨٣) المشرق.
(٨٤) المستغلات.
(٨٥) المظالم.
(٨٦) المصادرة.
(٨٧) المفرد.
(٨٨) المغرب.
(٨٩) المقاضاة.
(٩٠) المقابلة.
(٩١) المنح.
(٩٢) المكاتبات.
(٩٣) المواقف الشريفة.
(٩٤) المواريث الحشرية.
(٩٥) الديوان النبوي.
(٩٦) الموالي.
(٩٧) ديوان النظر.
(٩٨) النظر في المظالم.
(٩٩) النفقات.
(١٠٠) النيابة.
(١٠١) الوزارة.
(١٠٢) الهلالي.

وكان لهذه الدواوين رؤساء يسمون أصحاب الدواوين، وكانت تختلف درجاتهم ومرتباتهم بحسب أهمية دواوينهم وأحيانًا بحسب نفوذهم.

وكان بكل ديوان كتاب وخزان وبوابون وأعوان، وكان يمد بالصحف والقراطيس، وكانت الأرزاق تطلق في الأسبوع الأول من كل شهر، وكانت وظائف الدواوين وفقًا علىٰ الأحرار.

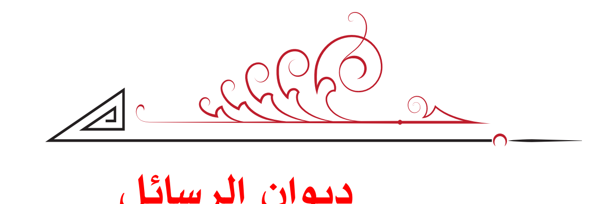
وكان المشتغل بإدارة الدواوين يمثل الثقافة الأدبية ولا يعالج العلوم الدينية إلا بمقدار ما يتطلبه عمله وثقافته، وكان يلبس في العادة دراعة في حين كان العالم يلبس الطيلسان.

كما كان عمال الدواوين كثيرًا ما يتعرضون للمصادرة، وطور كتاب الدواوين نظمًا خاصة بمراسيم الكتابة من حيث تزويد المكاتبات بالأدعية والألقاب، وبدأ ذلك منذ القرن ٣هـ علىٰ نطاق ضيق ثم أخذ يزداد الإكثار من التكلف ويوضع له القواعد، وصارت الألقاب مما يتهافت عليه كبار رجال الدولة وكان ذلك من سلطة الخليفة وكأن الخلفاء وجدوا في ذلك تعويضًا لهم من سلطتهم المفقودة.

*** ويقول أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي في ذلك (٣٨٣هـ/ ٩٩٣م):**

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا ... من الكنىٰ ومن الألقاب أبوابا
ولقبوا رجلا لو عاش أولهم ... ما كان يرضىٰ به للعيش بوابا
قل الدراهم في كفي خليفتنا ... هذا فأنفق في الأقوام ألقابا

وقد صار وضع هذه القواعد والمراسيم واختيار الألقاب من اختصاص ديوان الرسائل.



ديوان الرسائل

لعب ديوان الرسائل دورًا مهمًا في إدارة الدولة الإسلامية، ويرجع أصل هذا الديوان إلىٰ وظيفة الكاتب الذي كان يقوم بكتابة الرسائل للولاة.

وفي العصر العباسي زادت المكاتبات الإدارية زيادة دعت إلىٰ تنظيمها وإسناد مهمتها إلىٰ ديوان خاص سمي ديوان الرسائل أخذت اختصاصاته تتحدد علىٰ مر الزمن، كانت مهمته الأساسية إنشاء صيغ المكاتبات الرسمية المختلفة وتحريرها في شكلها الرسمي سواء في ذلك المراسلات أو المراسيم أو التعينات أو الوصايا أو الأوامر الإدارية وكذلك تحرير المكاتبات الرسمية بين الدول الأجنبية، وفي أول الأمر كان الإشراف عليه إلىٰ الوزير مباشرة إلا أنه نظرًا إلىٰ تضخم أعمال الديوان من جهة، وزيادة أعباء الوزير من جهة أخرىٰ كان الديوان ينفصل عن إشراف الوزير المباشر أحيانًا لينفرد به رئيس خاص[١]؛ وقد ذكر ابن عبدوس الجهشياري في كتاب الوزراء والكتاب أنه حدث أن فصل أحد الوزراء فاقتصر به علىٰ ديوان الرسائل[٢] ثم انتهىٰ الأمر أن أصبح من القواعد المقررة أن يستقل بالإشراف علىٰ هذا الديوان رئيس خاص يتبع الوزير وكان عالي الرتبة عليما بالكتابة وفنون الإنشاء.

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار جـ٢ ص ٢٢٦.

(٢) Bjorkmann (W), Beitrage zur Gescgichet den Staatskanzelei im islamicshen Agypten, p. 6.

وفي أوائل العصر العباسي كان الديوان يعرف باسم ديوان الرسائل أو ديوان المكاتبات وربما قبل له أيضًا الديوان العزيز ومن ثم كان رئيسه يسمىٰ صاحب أو متولي ديوان الرسائل أو المكاتبات، ثم أطلق علىٰ هذا الديوان بعد ذلك اسم ديوان الإنشاء وكان رئيسه يلقب بصاحب أو رئيس ديوان الإنشاء، أما في الدولة السامانية فكان هذا الديوان يعرف أحيانا باسم «عميد الملك» وكان رئيسه يسمىٰ لذلك «خواجيء عميد»[(١)].

وفي العصر السلجوقي عرف الديوان باسم ديوان الطغرا وبالتالي أطلق علىٰ رئيسه اسم «طغرائي» كما عرف أيضا باسم ديوان الإنشاء وفضلًا عن ذلك فكان رئيس ديوان الإنشاء يلقب أحيانًا في العصر العباسي بكاتب السر، أما في العصر الفاطمي فعرف بكاتب السر وكاتم السر وكاتب أو صاحب الدست الشريف بالإضافة إلىٰ صاحب ديوان الإنشاء، وفي المغرب عرف بلقب صاحب القلم الأعلىٰ، وفي عصر المماليك عرف بصاحب دواوين الإنشاء في المماليك الإسلامية.

وعلىٰ نمط ديوان الرسائل أو الإنشاء في عاصمة الخلافة الإسلامية قامت في الولايات المختلفة دواوين مماثلة تنظم المكاتبات الإدارية بين الولاية وغيرها من الولايات الأخرىٰ والبلاد الأجنبية.

فمثلا في مصر كان الولاة يقتصرون في أول الأمر علىٰ اتخاذ كتاب يتولون إنشاء الكتب عنهم إلىٰ الخلافة حتىٰ جاء أحمد بن طولون فكان أول من أنشأ ديوان المكاتبات في مصر وذلك علىٰ مثال ديوان المكاتبات بعاصمة الخلافة جريًا علىٰ سياسته العامة في تنظيم دولته بمصر علىٰ منوال الإدارة في بغداد أو سامرا[(٢)].

---

(١) Barthold (W), Turkesten down to the Mongol lnvasion, P,230.

(٢) Dr. Zaki M. Hassan, Les Tulunides, P. 279.

وكذلك كان للأمراء الإخشيديين في مصر ديوان يشرف علىٰ مكاتباتهم وفي أواخر الدولة الإخشيدية نظم كافور ديوانًا فرعيًا بسوريا ربما كان الأول من نوعه وأسند رئاسته إلىٰ يعقوب بن كلس.

وكان من أبرز مظاهر ديوان الإنشاء إقبال كثير من موظفيه علىٰ تأليف كتب تنظم نواحي نشاطه المختلفة، وكانت هذه الكتب بمثابة دساتير تقرر المصطلح السائد في ديوان الإنشاء، وترشد موظفيه إلىٰ أقوم السبل التي يجب أن يسيروا عليها حتىٰ يقوموا بأداء مهمتهم علىٰ خير وجه.

ولم تكن هذه الدساتير مقتصرة علىٰ ناحية واحدة من نواحي نشاط الديوان بل كانت في معظم الأحيان شاملة لمختلف أوجه نشاطه من كتابة وإنشاء وإدارة ومراسيم ومصطلح، وكان بعضها يذهب إلىٰ أقصىٰ حد في التفصيل حتىٰ أنه يتناول الكلام عن الورق وأنواعه والقلم وأصنافه والخطوط المختلفة والحروف وطريقة كتابتها والشكل والنقط إلىٰ غير ذلك من الدقائق والجزئيات.

ونستطيع أن نتعرف علىٰ أوجه نشاط الديوان من مراجعة أبواب أحد هذه الكتب وليكن كتاب صبح الأعشي في صناعة الإنشا للقلقشندي: فنجد أنه يبدؤه بمقدمة عامة في الكتابة والكتاب وديوان الإنشاء وقوانينه ثم يقسم كتابه إلىٰ عشر مقالات يخصص المقالة الأولىٰ فيما يجب أن يتزود به الكاتب من خبر علمية وعملية، والمقالة الثانية في المسالك والممالك، والثالثة فيما تتفاوت به مراتب المكاتبات المختلفة بأنواعها بما فيها الألقاب، والرابعة في المكاتبات، والخامسة في الولايات وطبقاتها وما يراعىٰ في كتابتها وما يتسع به التفاوت في رتبها، والسادسة في الوصايا الدينية، والسابعة في الإقطاعات والمقاطعات، والثامنة في الأيمان،

والتاسعة في عقد الصلح والفسوخ، والعاشرة فنون الكتابة التي لا تتصل بكتابة الدواوين السلطانية كالمقامات.

أما الخاتمة فهي في ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة كالبريد (وكان من اختصاص ديوان الإنشاء في عصر المماليك) ومطارات حمام الرسائل، ومواكب الثلج ومجنه والمناور والمحرقات.

ولم تكن هذه الدساتير بدعة خاصة بعصر دون عصر، بل كانت حلقات في سلسلة متصلة يمتد أصولها إلىٰ القرون الأولىٰ من العصر العباسي فنجد مثلا أدب الكاتب لابن قتيبة (٢٧٠هـ).

وكتاب الكتاب لابن درستويه (٣٤٦هـ).

وكتاب الصناعتين: الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري (٣٩٥هـ).

والأحكام السلطانية للماوردي (٤٥٠هـ).

وقانون ديوان الرسائل لابن الصيرفي (٥٥٠هـ).

وقوانين الدواوين لابن مماتي (٦٠٦هـ).

ومعالم الكتابة ومغانم الإصابة لابن شيث (٦٢٥هـ).

والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير (٦٣٧هـ).

وحسن التوصل إلىٰ صناعة الترسل لابن فهد الحلبي (٧٢٥هـ).

والتعريف بالمصطلح الشريف للعمري (٧٤٩هـ).

وصبحي الأعشي في صناعة الإنشا للقلقشندي (٨٢١هـ).

والمقصد الرفيع المنشا الهادي إلىٰ صناعة الإنشا.



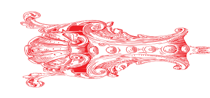
ديوان البريد

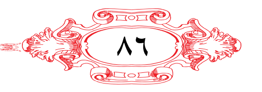
البريد جمع برد وهي لفظة تطلق علىٰ الرسول وهي أيضًا مسافة قدرها ١٢ ميلا، وغلب استعمال البريد للدلالة علىٰ عملية نقل الأخبار.

واختلف في أصلها اللغوي فقيل عربي مشتق من بردت الحديد أي أرسلت ما يخرج منه ومن أبردته أي أرسلته، أو من برد إذا ثبت لأنه يأتي مما تستقر عليه الأخبار، وقيل فارسي معرب، وأصله بالفارسية «بريده دم» أي «مقصوص الذنب»، وسمي بذلك لأن بغل البريد عند الفرس كان يقص ذنبه علامة علىٰ أنه من بغال البريد.

ومهمة البريد هي نقل الأخبار إلىٰ الوالي وإخطاره بما يجد في دولته لا سيما في أطرافها البعيدة، وكان بعض الولاة يستخدمونه في نقل المواد: فيقال إن الوليد بن عبد الملك كان يحمل عليه الفسيفساء من القسطنطينية إلىٰ مكة والمدينة وغيرهما كما كان ينقل عليه أيضًا الأشخاص علىٰ سبيل السرعة.

وكان من عمل البريد في بعض الأحيان التجسس لحساب الولاة ونقل ما يدور بين الناس، وكان البريد في العصر العباسي يلجأ إلىٰ استخدام الأخبار السرية وإلىٰ التنكر إذا لزم الأمر، وقد حرص بعض الأمراء الذين استبدوا بالخلفاء أو بالسلطة المركزية أن يقطعوا البريد كما فعل بنو بويه





ليخفوا عن الخلافة أخبارهم ولا سيما تحركهم نحو بغداد حتىٰ يأخذوها علىٰ غرة[(١)].

وكان يسمىٰ القائم بنقل الأخبار بريدي، ويقال للمشرف علىٰ البريد صاحب البريد ووالي البريد وصاحب الأخبار وصاحب الخبر وصاحب الخبر والبريد.

وكان من عمال البريد الساعي والشعوذي والكوهباني والبدال.

وارتبطت أعمال البريد ببعض المراسم في عصر المماليك ومن أبرز هذه المراسم جمل اللوح والشرابة (من حرير أصفر).

وأشار السبكي في كتابه «معيد النعم» إلىٰ البريدية في عصره فعاب استخدامهم للأغراض الدنيوية من شراء المماليك وجلب الجواري والأمتعة أو استدعاء مغنٍ حسن الصوت أو نقل الأكاذيب كما نصحهم بكتمان الأسرار وستر العورات، ونبههم إلىٰ عدم إجهاد خيلهم، وإلىٰ أن يسوقوها بقدر طاقتها، ثم ذكرهم بحمل رسائل الإخوان لما في ذلك من أجر عظيم.

وكان يرأس البريد في عصر المماليك رئيس يقال له مقدم البريدية وأورد القلقشندي توقيعًا بتقدمة البريدية بحلب.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشي جـ٦ ص١٨٣-١٨٤و ١٩٧- ١٩٩، جـ١٤ ص٣٦٨ وما بعدها، تاريخ البيهقي ص٢٥٠، ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة مخطوطة ١٥٨ وجه.



القضاء

اعتبر القضاء في الدولة الإسلامية من الوظائف الدينية المتصلة مباشرة برأس الدولة، وربما كان الاسم الرسمي للقاضي هو «الحاكم».

ويثير الاشتقاق اللغوي للفظة بعض الاختلاف بين العلماء فأبو عبيدة يقول إن القضاء هو إحكام الشيء والفراغ منه ويستدل علىٰ ذلك بما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: ٤]، أي أخبرناهم بذلك وفرغنا لهم منه[١].

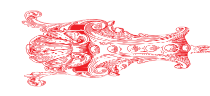
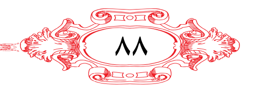
أما أبو جعفر النحاس فيقرر أن القاضي سمي قاضيًا لأنه يقال قضىٰ بين الخصمين إذا فصل بينهما وفرغ.

ومن العلماء أيضًا من يقول إن القضاء معناه القطع يقال قضىٰ الشيء إذا قطعه ومنه قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ﴾ [طه: ٧٢]، وسمي القاضي بذلك لأنه يقطع الخصومة بين الخصمين بالحكم[٢].

وكانت مهمة القاضي هي الفصل بين المتنازعين حسب الشريعة الإسلامية وكان يقوم بها في أول الإسلام النبي ﷺ، ولما زاد عدد

(١) جـ١٢ ص٤٣٣.

(٢) القلقشندي: المرجع السابق جـ٥ ص٤٥١؛ ضوء الصبح ص٣٤٦.

المسلمين ودخل الإسلام أقاليم كثيرة في الجزيرة العربية أسندت هذه الوظيفة أيضًا إلىٰ عدد من الصحابة، وسار الخليفة الأول أبو بكر الصديق علىٰ هذا المنوال إذ ولىٰ القضاء عمر بن الخطاب[(١)].

وفي خلافة عمر بن الخطاب وضع للقضاء نظام محكم فعين القضاة للمدن المختلفة في الدولة الإسلامية، وسُنت لهم النظم والقواعد التي كان من الواجب عليهم اتباعها والعمل في ضوئها، ووضعت التقاليد، وحددت لهم المرتبات، ووصلنا عهد الخليفة عمر بن الخطاب إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري حين ولاه القضاء[(٢)].

وكان الخلفاء الراشدين يختارون القضاة من العلماء الملمين بأحكام الشريعة الإسلامية والمعروفين بتقوىٰ الله وتحري العدل وغير ذلك من الصفات التي يجب توافرها فيمن يتصدر للحكم في الدماء والأموال، وفيما بعد وضع الفقهاء شروطًا يجب توافرها فيمن يختار لهذا المنصب: وهي أن يكون مسلمًا ذكرًا بالغًا عاقلًا حرًا قويم الخلق صحيح البصر والسمع ضليعًا في علوم الفقه وملمًا بها.

وظل القضاء محتفظًا بخطورته في عصر الأمويين، جاء في كتاب كتبه عبد الحميد الكاتب عن الخليفة مروان بن محمد لبعض من ولاه: «واعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الأحكام ولا بمثل محله أحد من الولاة لما يجري علىٰ يديه من مغاليظ الأحكام ومجاري الحدود».

وفي هذا العصر كان الخليفة يعين قاضيًا لكل ولاية، ولكن نظرًا لازدياد أعباء القاضي كان يختار خلفاء ونوابًا له، ومهما يكن من أمر فقد

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين مخطوطة ١٥ وجه.

(٢) صبح الأعشي: جـ١٠ ص١٩٣.

كان القضاء إحدىٰ الوظائف الأساسية في الولايات الإسلامية وهي الصلاة والشرطة والقضاء والمال والولاية[١].

ومنذ البداية لم تقف سلطة القاضي عند حد النظر في الأحكام والفصل في الخصومات ولكنها امتدت أيضًا إلىٰ النظر علىٰ الأوقاف والوصاية علىٰ الأيتام.

وفي العصر العباسي لم يقتصر عمل القاضي علىٰ المهام السابقة بل زادت له اختصاصات أخرىٰ: فأضيف إليه أحيانًا الشرطة والمظالم والحسبة ودار الضرب والعيار وبيت المال والنظر في أموال المحجور عليهم وفي وصايا المسلمين وتزويج الأيامىٰ عند فقد الأولياء بالإضافة إلىٰ الإفتاء والولاية علىٰ المساجد والخطابة والإمامة والتدريس، بل إن يحيىٰ بن أكثم القاضي تولىٰ في عهد المأمون قيادة الجنود الصائفة، وكذلك أحمد بن داود قاضي القضاة في عهد الواثق.

وفي الدولة الغزنوية كان القاضي يشرف علىٰ جباية الأموال وكان يطالب أحيانًا بأن تكون له السالارية والجند، وكان يتبعه صاحب البريد والمشرف ويقوم بإرسال الأخبار إلىٰ السلطان.

وكان القضاة في العصر العباسي يسند إليهم أحيانًا الإشراف علىٰ تشييد مؤسسات الدولة كما يتضح من الكتابات الأثرية التي وصلتنا.

وصارت وظيفة القضاء في عصر السلاجقة وخلفائهم الأتابكة إقطاعًا يطمع فيه الطامعون كما كان القضاة يمنحون الإقطاعات في مقابل قيامهم بأعمالهم فمثلًا حينما عين زنكي بهاء الدين الشهرزوري قاضي القضاة زاد من تفويضاته وأملاكه الخاصة.

---

(١) Wiet, CIA, egypte, II, P. 54.

وقد وجد من حيث مناطق النفوذ أنواع من القضاة: منهم قضاة بمراكز الخلافة مثل دمشق ثم بغداد وسامرا، وقضاة بعواصم الولايات كانوا يولون إما من قبل الخليفة أو من قبل الوالي نفسه وبخاصة في حالة استقلاله السياسي، وقضاة بالأقاليم الفرعية والمدن.

وكان كل من هؤلاء ينسب إلىٰ البلدة التي يتولىٰ قضاءها: فكان يقال القاضي بقيسارية مثلًا، وحين ظهرت المذاهب الأربعة وجد قضاة يمثلون المذاهب الأربعة وذلك للفصل في منازعات أهل مذاهبهم، وقد وجد أيضًا قضاة أربعة في كل من الولايات.

وقد عرف القضاة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي بألقاب وظيفية اختلفت بحسب رتبهم ومدىٰ اختصاصاتهم والدول والأقاليم التي وجدوا فيها: فعرف مثلا قاضي الجماعة في شمال إفريقيا والأندلس(١)، وقاضي الحضرة في العصر العباسي وعصر المرابطين، وقاضي الركب وهو القاضي الملحق بركب الحجيج في عصر الفاطميين والمماليك، وقاضي العسكر وهو القاضي الذي يفصل بين الجند أثناء تنقلاتهم، وقاضي المظالم وهو الذي يتولىٰ النظر في المظالم.

وظهرت في العصر العباسي أيضًا وظيفة قاضي القضاة وأول من أطلق عليه لقب قاضي القضاة هو أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم تلميذ أبي حنيفة وصاحب كتاب الخراج وأحد أقطاب المذهب الحنفي وتولىٰ القضاء في عهد المهدي وولديه الهادي والرشيد وأطلق عليه اللقب في عهد الرشيد.

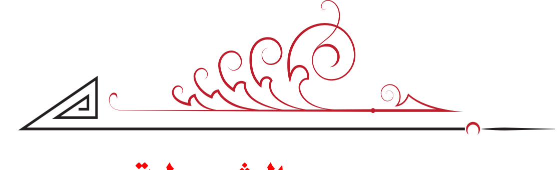
ومنذ ذلك الوقت صار لقب قاضي القضاة يطلق علىٰ كبير القضاة وكان مقره عاصمة الخلافة العباسية وصار منذ القرن الرابع الهجري يقوم بتعيين القضاة في سائر الولايات وله حق الإشراف عليهم ومراقبتهم.

---

(١) Levi-Provencal, Inscr dEspagne. No. 138 and pl. XXIX.

وكان عهد تولية هذه الوظيفة في العصر العباسي ينص علىٰ تولي شاغلها القضاء ببغداد أو بمدينة السلام وسائر الأمصار والآفاق والأقطار شرقًا وغربًا وبعدًا وقربًا ويخول له النظر في أمور اليتامىٰ وأملاكهم وأموالهم والوقوف الجارية والاستخلاف فيما نأىٰ عنه من البلاد وتسلم ديوان القضاء ومراعاة أمر الحسبة وعيار المكاييل والموازين واتخاذ كاتب وحاجب.

وكان يشرف أيضًا علىٰ إقامة وتشييد المؤسسات العامة ويؤخذ إذنه في حالة الرغبة في إجراء تعمير أو بناء.



الشرطة

من الوظائف الرئيسية في الدولة الإسلامية وقد أشار القلقشندي إلىٰ قولين في اشتقاقها: أحدهما أن شرطة مشتق من الشرط بفتح الشين والراء بمعنىٰ العلامة لأن الشرطة كانوا يتخذون علامات يتميزون بها، والثاني أنها مشتقة من الشرط بفتح الشين وسكون الراء بمعنىٰ الدون اللئيم السافل لأن الشرطة يحتكون بأراذل الناس وسفلتهم من اللصوص ونحوهم[١]. ويطلق علىٰ واحد الشرطة شرطي، وعلىٰ جماعة الشرطة شرط وشرطية.

وكان رئيس الشرطة يسمىٰ صاحب الشرطة وربما سمي أيضًا عامل الشرطة ومتولي الشرطة وولي الشرطة.

والشرطة هم الجنود المكلفون بالمحافظة علىٰ الأمن الداخلي، بمنع وقوع الجرائم والقبض علىٰ الجناة، وعمل التحريات اللازمة، وتنفيذ العقوبة التي يحكم بها القضاة، وإقامة الحدود.

وظهرت وظيفة صاحب الشرطة في عهد علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين الذين نظمت الشرطة في عهده، وكان صاحب الشرطة يختار من بين علية القوم وذوي العصبية.

ووضحت مهمة الشرطة في العصر الأموي وزاد تنظيمها وتنسيقها في العصر العباسي إذ صار لكل مدينة شرطة خاصة تخضع لرئيس هو صاحب

(١) ديمومبين: نظم ص ٢٠٩-٢١٠.

شرطة هذه المدينة، وكان صاحب الشرطة يتخذ له نائبًا ومساعدين يسمون الأعوان، وكان الشرطة يتخذون أعلامًا خاصة ويلبسون زيًا خاصًا ويحملون مطارد وترسة تحمل كتابات باسم صاحب الشرطة ويحملون في الليل الفوانيس ويصطحبون كلاب الحراسة.

وكان صاحب الشرطة يجمع بين الشرطة والأحداث، وقد أدخل نظام الأحداث في عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥هـ-١٢٥هـ) وكان صاحبه يقوم بالأعمال العسكرية التي تعتبر وسطًا بين أعمال صاحب الشرطة وقائد الجيش، ويبدو أن الإدارتين ضمتا معًا في العصر العباسي إذ صار لهما ديوان يعرف ديوان الأحداث والشرطة.

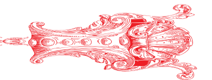
وتتضح مهمة صاحب الشرطة في العصر العباسي من عهد كتبه الصابي عن الخليفة الطائع إلىٰ فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه في جمادىٰ الأولىٰ سنة ٣٦٦هـ أمره فيه بأن ينظر في الشرطة والأحداث نظر عدل وإنصاف ويختار لها من الولاة «خيرًا عليه ألا يحابي، وأن يردع الأشرار والدعار، وأن يضرب علىٰ أيديهم، وأن يعاقبهم في الكبائر والصغائر، وأن يقيم الحدود عليهم»[(١)].

ويظهر من هذا العهد أن تعيين صاحب الشرطة كان من اختصاص الوالي أو الأمير، ومن ثم كان عزل الوالي يتبعه في معظم الأحيان عزل صاحب الشرطة، وكان الوالي يختار هذه الوظيفة من بين أبنائه أو أقاربه، وكان صاحب الشرطة يخلف الوالي في السلطة إذا غاب في حج أو حرب أو غير ذلك، كما كان ينيبه عنه كثيرًا في إمامة الصلاة.

وكان صاحب الشرطة يولىٰ أحيانًا الإمارة، كما كان الأمير يولىٰ الشرطة في بعض الأحيان بعد عزله من الإمارة.

---

(١) أحمد ممدوح حمدي: الشرطة ص ٨٥-٨٧.

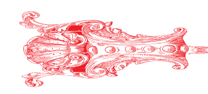


وعرفت وظيفة صاحب الشرطة في الدول الإسلامية المختلفة التي تفرعت من الخلافة العباسية فعرفت مثلا في الدولة الغزنوية وعرفت في دول السلاجقة حيث كان يوكل حكم المدن الرئيسية إلىٰ صاحب الشرطة الذي كانت وظيفته من الوظائف الإدارية الهامة في الدولة وكان يتقاضىٰ راتبًا كبيرًا وكان ولي الأمر يتخذه أداة في بعض الأحيان لإيذاء منافسيه أو أعدائه أو مصادرة أموالهم.

ومنذ عصر الولاة في مصر كانت وظيفة صاحب الشرطة من أكبر الوظائف وأهمها، وكان صاحب الشرطة في عصر الولاة الأمويين والعباسيين يسهم مع الوالي وعامل الخراج في ضمان تحصيل الجزية والخراج علىٰ وزن بيت المال الذي كانت تقرره صنع السكة الزجاجية، وكان صاحب الشرطة يتولىٰ نيابة عن ديوان الخراج «إصدار دنانير حسب الصنج الزجاجية أما عددًا أو وزنًا، وظهرت أسماء أصحاب الشرطة علىٰ صنج السكة الزجاجية المصرية بالإضافة إلىٰ أسماء الولاة وعمال الخراج، وكان اسم صاحب الشرطة يرد علىٰ الصنج عادة مسبوقًا بعبارة «علىٰ يدي» وتعني أن صناعة الصنجة تمت تحت إشراف صاحب الشرطة.

وكان صاحب الشرطة في مصر يقوم أيضا بالإشراف علىٰ الأحباس، وتنظيم مرتبات الجند، وأدت أعماله في بعض الأحيان إلىٰ إثارة قلاقل بين الجند ربما ذهب ضحيتها في بعض الأحيان.

وكان صاحب الشرطة يسهم في عصر الولاة في أعمال الحسبة التي كانت موزعة في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين وأوائل العباسيين بين القاضي وصاحب الخراج وصاحب الشرطة، وظلت كذلك إلىٰ أن اجتمعت أعمال الحسبة كلها لموظف واحد هو المحتسب في عهد المهدي.




وكانت وظيفة صاحب الشرطة في عصر الولاة في مصر تسمىٰ بخلافة الفسطاط: وذلك لأن صاحب الشرطة كان ينوب عن الوالي، غير أن هذا اللقب اختفىٰ منذ عصر الطولونيين ومن المعتقد أن وظيفة صاحب الشرطة كان يشغلها في عصر الطولونيين بعض الأتراك.

وفي عصر الولاة كان صاحب الشرطة يقيم في الفسطاط مع الوالي، وعندما أسست العسكر وجدت شرطتان هي شرطة الفسطاط وكانت تسمىٰ الشرطة السفلىٰ، وشرطة العسكر وكانت تسمىٰ الشرطة العليا، وكانت الشرطة العليا تقيم في دار تقع تقريبًا في موضع جامع ابن طولون الحالي، وكانت دار الشرطة تعرف في مصر باسم الشرطة، وكانت تعرف في بغداد وسامرا ودمشق حتىٰ نهاية القرن ٤ هـ باسم مجلس الشرطة أو مجلس صاحب الشرطة[١].

وظل نظام الشرطتين العليا والسفلىٰ معروفًا في عهد الفاطميين غير أن صاحب الشرطة العليا كان يقيم بالقاهرة، وكان صاحب الشرطة يسمىٰ أيضًا في عصر الفاطميين باسم حاكم القاهرة.

أما في عصر المماليك فقد انتفت وظيفة صاحب الشرطة وأسندت مهامها إلىٰ موظف سمي باسم الوالي أو والي القاهرة أو والي المدينة أو صاحب العسس، غير أن بعض المؤلفين أطلق عليه اسم والي الشرطة أو والي الحرب.

وعظم أمر صاحب الشرطة في دولة بني أمية بالأندلس وانقسمت الشرطة إلىٰ شرطتين: شرطة كبرىٰ وشرطة صغرىٰ.

(١) Wiet, CIA, egypte. II, p. 51, n. 3.

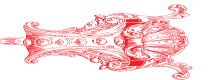
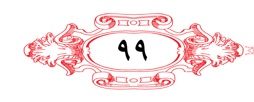
وكانت مهمة الشرطة الكبرىٰ هي النظر في أمر الخاصة أقارب السلطان وكان من يليها يرشح للوزارة وللحجابة، وربما سمي صاحب الشرطة الكبرىٰ باسم صاحب الشرطة العليا.

أما صاحب الشرطة الصغرىٰ فكان مخصصًا للنظر في أمر العامة.

وصار صاحب الشرطة يسمىٰ في الأندلس في أواخر العهد الإسلامي بصاحب المدينة كما عرف عند العامة بصاحب الليل، وعرف في العصر نفسه تقريبًا في أفريقيا باسم الحاكم.

وربما جمع بين وظيفة الشرطة ووظيفة القاضي لرجل واحد في الأندلس[١].

(١) انظر مثلا: Girault de Praugey, Essai, pl, V.

الحسبة

من الوظائف المتصل عملها بعمل القضاء والشرطة ولو أنها كانت مستقلة عنهما، ويقال لصاحبها المحتسب وصاحب الحسبة ومتولي الحسبة وناظر الحسبة ووالي الحسبة.

وأثيرت بعض الخلافات بصدد الاشتقاق اللغوي للفظة المحتسب... فقال الماوردي إنه مشتق من قولهم «حسبك» بمعنىٰ أكفف، لأن وظيفة المحتسب الكف عن الظلم.

وقال النحاس إنه مشتق من قولهم أحسبه إذا كفاه لأنه يكفي الناس مئونة من يبخسهم حقوقهم وأضاف أن حقيقته في اللغة المجتهد في كفاية المسلمين، إذ أن حقيقة «افتعل» عند الخليل وسيبويه بمعنىٰ اجتهد، وجاء في القاموس إنه مشتق من قولهم احتسب عليه بمعنىٰ أنكر.

ومن المعتقد أن وظيفة المحتسب نشأت تحقيقها لقوله تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وبالرغم من أن مصطلح الحسبة لم يعرف إلا في العصر العباسي فإن عمر ابن الخطاب يعتبر أول من وضع نظام الحسبة وكان يستخدم الدرة أو السوط في معاقبة المخالفين.

وقد نشأت وظيفة الحسبة في عهد المهدي كنتيجة لاهتمام العباسيين بجعل الشريعة الإسلامية أساسًا لحكمهم(١). ومن المرجح أن هذه الوظيفة لم تتحدد معالمها إلا في نهاية القرن الثاني الهجري: وذلك بعد ظهور المذاهب الفقهية، وازدهار التجارة، وتقدم الصناعة، وظهور الحاجة إلىٰ مراقبة التجار والصناع ومختلف المتعاملين في الأسواق وغير ذلك.

وصارت وظيفة المحتسب في القرن الرابع الهجري من الوظائف الثابتة، الوطيدة الأركان في جميع الدول الإسلامية.

وكان المحتسب يختار من بين رجال الدين والقلم الملمين بأحكام الشريعة والأشداء في الحق وذوي الثقة والأمانة وربما كان من القضاة أو أعيان المعدلين، وربما أضيفت أعمال الحسبة إلىٰ القاضي أو إلىٰ الوالي أو صاحب الشرطة وقد يجمع المحتسب بين نظر الحسبة ونظر الوقف.

وكان المحتسب يولي عنه نوابًا في سائر المدن والأقاليم التابعة له.

وكانت اختصاصات المحتسب تشتمل علىٰ نواح عدة: منها ما كان يتعلق بمراعاة تأدية العبادات مثل الأمر بتأدية صلاة الجمعة والمحافظة علىٰ الصلاة الجماعة وأداة الزكاة وردع أهل البدع.

ومنها ما يتعلق بمراعاة آداب السلوك والتمسك بأهداب الفضيلة والمحافظة علىٰ الأخلاق العامة: فكان يحرص علىٰ أن يراعي العرف بين الرجال والنساء، ويعمل علىٰ منع المقامرة والعلاقات الجنسية المنافية للأدب، وعلىٰ مراعاة ارتداء الزي المناسب، وعلىٰ إلزام ذوي الهيئات بالصيانة التي تناسب مناصبهم ومراتبهم، ومنع التسول، ومنع المسلمين من

---

(١) دكتور الباز العرين: الحسبة والمحتسب مجلة الجمعية التاريخية م٣ عدد ٢، سنة ١٩٥٠ ص ١٥٩ و١٦٠.

المغالاة في ضرب التلاميذ، ومنع معلمي السباحة من التغرير بالصغار، وأمر السقائين بلبس السراويلات القصيرة الساترة لعوراتهم، ومنع المضايقات في الطرقات، ومراعاة المحافظة علىٰ الآداب في الحمامات والمحافظة علىٰ حقوق العبيد، ومنع التعدي علىٰ أهل الذمة، والحث علىٰ الرفق بالحيوان وكفالة الصغار، ورد الحقوق لأربابها، واستيفاء الديون.

وبالإضافة إلىٰ ذلك كان من عمل المحتسب أن يعمل علىٰ المحافظة علىٰ صحة المواطنين وسلامتهم، ومنع ما يعكر الأمن: فكان عليه أن يعمل علىٰ منع أحمال الحطب والتبن وكل ذي رائحة كريهة من الدخول إلىٰ الأسواق حتىٰ لا يضر بصحة الناس وثيابهم، ومنع الحمالين وأصحاب السفن من الإكثار في الحمل حرصًا علىٰ سلامتهم، وتكليف أصحاب المباني الآيلة للسقوط بهدمها، وإزالة ما يتوقع من ضررها، وإزالة بروز مصاطب الحوانيت في الأسواق وإماطة الأذىٰ عن الطريق، والاحتراز في سقاية المياه «وأمر السقائين بتغطية الروايا والقرب، والإيعاز بتنظيف الجوامع والمساجد وإنارتها ومراعاة نظافة الحمامات، وملاحظة المباني العامة والحث علىٰ تعميرها، وتأديب المفترين ومروجي الإشاعات المغرضة الكاذبة، ومنع القصاصين من تعمد الكذب في قصصهم.

ومن جهة أخرىٰ كان علىٰ المحتسب أن يشرف علىٰ أن يقوم التجار والصناع بأداء الواجب عليهم، وأن ينال كل أجره دون مماطلة أو تأخير وأن يمنع الجبال من مزاولة صناعة لا يجيدونها وأن يمنع متعاطي الطب عن مزاولته إلا عن علم، وأن يباشر محال الجزارة والمطاعم، ويفتش قدور الأطعمة وختم اللحوم، وأن يراعي تنفيذ الشروط الصحية المفروضة علىٰ أصحاب المصانع والصناعات المقلقة أو الضارة بالصحة: مثل المدابغ وسبائك الزجاج والحديد ومعامل الصابون وأماين الجير والآجر.

وكان المحتسب أيضًا يشرف علىٰ تثمير أموال الأحباس وإمضاء مصارفها علىٰ شروط واقفيها.

وإلىٰ جانب ذلك كله كان من عمل المحتسب النظر في الأسواق، والإشراف علىٰ الموازين والمكاييل، ومراعاة عيار الماء، ومراقبة الأسعار ومنع الاحتكار، والإشراف علىٰ دور الضرب والعيار، ومراعاة إثبات اسم الخليفة علىٰ العملة الذهب والفضة والثياب والفرش والأعلام.

والإشراف علىٰ سوق الرقيق، ومراقبة نوعية مواد الطعام والبضائع المصنوعة، ومراقبة الصاغة حتىٰ لا يبيعوا الأشياء بجنسها ليحل فيها التفاضل وحتىٰ لا يبيعوا الحلي المغشوشة إلا بعلم المشتري، ولا يسرقوا من الحلي أثناء سبكها أو لحامها وحتىٰ يلاحظ ضرب العيار.

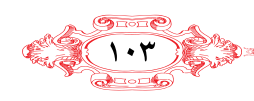
وكان علىٰ المحتسب أن يراقب طوائف أصحاب الحرف علىٰ اختلافهم ونظرًا إلىٰ أنه كان من رجال الدين وليس لديه إلمام بأسرار الصناعات والحرف المختلفة كان يختار لكل صنعة عريفًا من بين أفرادها يشرف علىٰ أحوال طائفته، ويطلعه علىٰ أخبارهم وحيلهم وطرق غشهم حتىٰ يتسنىٰ له مراقبتهم.

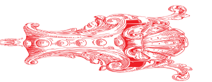
هذا وقد اشتملت كتب الحسبة[١]: علىٰ إرشادات للمحتسب حتىٰ يكتشف الوسائل المختلفة التي يعمد إليها الصناع للغش والتدليس.

وكان عليه أن يعمل لديه معدلا لكل عمل، وعيارًا يقيس عليه الأعمال والمعايير ليعرف الصحيح منها والمغلوط.

---

(١) الشيرزي: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، السقطي: آداب الحسبة، محمد ابن أحمد بن بسام: نهاية الرغبة في طلب الحسبة، ابن الأخوة: معالم القربة في أعلام الحسبة، ابن تيمية: الحسبة في الإسلام.





النظام الحربي

كان جميع المسلمين القادرين في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين أفرادًا في الجيش فكان إذا دعىٰ للجهاد خرج كل قادر علىٰ حمل السلاح وربما أصر بعض الصبيان علىٰ الخروج من باب الحمية والحرب في الجهاد في سبيل الله، وقد يصحب الجيش بعض المتحمسات من النساء المؤمنات لخدمة الجند أو تمريضهم وربما لحمل السلاح إذا لزم الأمر وكان النبي ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده يولون لكل حملة أميرًا وربما جعل للأمير نائب يحل محله عند الضرورة.

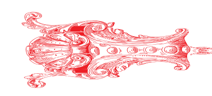
ومن هنا كان يفرض لجميع المسلمين عطاءات، وقد قدر عمر بن الخطاب عطاءات المسلمين علىٰ أساس القرابة من النبي صلىٰ اله عليه وسلم ثم الفضائل الذاتية[١].

وكان عمر أول من سجل أسماء الجند وحدد أعطياتهم أو مرتباتهم في ديوان خاص بهم، وأطلق علىٰ هذا الديوان فيما بعد اسم ديوان الجند، ثم سمىٰ ديوان الجند والشاكرية ليشمل الأتباع من الأتراك في العصر العباسي.

وظل العنصر الغالب في الجند في عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي من العرب.

---

(١) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ص١٢-١٤.




وبدأ في العصر الأموي يتكون جيش أشبه بالجيش النظامي كانت نواته حرس الخليفة، وكان الجيش المقيم في دمشق يتألف من أهل الشام من العرب الذين استقروا في الشام، ومن المعتقد أن الأمويين كانوا يعتمدون في إمداد جيشهم بالعناصر علىٰ بدو صحراء الشام، وربما كان من أهم الأهداف لبناء قصور لهم في صحراء الشام وإقامتهم فيها فترة من الوقت كل عام هو تجنيد عناصر جديدة من البدو[١]، وكانت البصرة والكوفة مركزين للتجنيد في جيش الولايات الشرقية.

واستمر الجند يحصلون علىٰ أعطيات في العصر الأموي، ومما يذكر أن يزيد الثالث (١٢٦هـ/ ٧٤٤م) أنقص الأعطيات فسمىٰ يزيد الناقص.

وكان الجند في العصر العباسي يأخذون أجورهم علىٰ هيئة مرتبات، وكان راتب الجندي من المشاة في عهد السفاح نحو ٩٦٠ درهمًا في السنة علاوة علىٰ الطعام والمخصصات وللفارس ضعف ذلك، وفي زمن المأمون كان راتب الجندي من المشاة ٢٤٠ درهما والفارس ضعف ذلك.

وظل الجند يأخذون أجورهم علىٰ هيئة مرتبات من خزينة الدولة، وفي عهد المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ) وزع الأمصار بين العمال والقواد علىٰ أن يدفعوا أرزاق الجيش من موارد بيوت المال المحلية.

وفي العهد البويهي (٣٣٣-٤٤٠هـ) صارت الأرض تعطىٰ أرزاقًا للجنود بدلًا من المال النقدي، وكان ذلك تمهيدًا لنظام الإقطاع الذي استقر في عصر السلاجقة: إذ فوض نظام الملك (ت٤٨٥هـ) في الدولة السلجوقية للجند الإقطاعات: فصار الجند يقطعون الأراضي ويأخذون مغلها كأجر علىٰ أن يؤدوا جزءًا من الإيراد إلىٰ الدولة، ويزعم البعض أن هذا النظام

(١) Hassan El Basha, The Umayyad Desert Palaces, The Islamic Review, England, Vol, XXXIX, No. 7.

كان عاملًا مهمًا في عمارة الأرض نظرًا لاعتناء مقتطعيها بأمرها، وقد زاد نور الدين مسعود علىٰ ذلك بأن صار يورث الإقطاع مما أدىٰ إلىٰ زيادة حماس الجند في الحرب.

وكانت وحدة الجيش الأموي تتكون تكوينًا تقليديًا من خمسة أجزاء هي القلب والميمنة والميسرة والطليعة والساقة، وكان الجيش يحارب علىٰ هيئة صفوف متراصة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

واستحدث مروان بن محمد تنظيما جديدًا هو الكردوس وهو عبارة عن تقسيم الجيش إلىٰ وحدات أو كتل صغيرة متراصة من الجند.

وكان الجند ينقسمون إلىٰ مشاة وفرسان وأباله أي المحاربين علىٰ ظهور الإبل، وكانت الإبل تستخدم أيضًا في حمل الأدوات الحربية المختلفة.

وكان للأمويين أسطول بحري قوي ألقىٰ الرعب في قلوب أعدائهم من البيزنطيين(١).

وفي العصر العباسي بدأ الجيش علىٰ أساس الجنود التي جندها أبو مسلم الخراساني وقام بها للقضاء علىٰ الأمويين وكانت من الخراسانية ومن العرب المؤيدين لبني هاشم، وكانوا في أول الأمر عبارة عن جماعات لها زعماؤها مقسمة حسب القبائل والمقاطعات، ثم أخذ الجيش يتحدد فانقسم إلىٰ قسمين هما المرتزقة والمتطوعة، والمرتزقة هم أصحاب الأعطيات الدائمة أو المرتبات الثابتة أما المتطوعة فكانت أجورهم تمنح

---

(١) دكتور فهمي شتا: ظهور القوة البحرية الإسلامية، الدارة - العدد الأول ص ١٠٢- ١١٥.

حسب خدماتهم العسكرية فقط، وذلك بالإضافة إلىٰ حرس الخليفة وكانوا كثيرا تمييزًا من سواهم من حيث المرتب والمظهر والسلاح.

وكان الجيش العباسي يتألف في أول الأمر بصفة أساسية من الخراسانية، وكان منهم حرس الخليفة، ومن العرب ومن يلتحق بهم من مواليهم، وكان العرب من المضرية وهم عرب الشمال ومن اليمنية وهم عرب الجنوب، ولم يلبث أن أخذ نفوذ العرب في الاضمحلال ثم دخل الأتراك الجيش في عهد المعتصم وصارت لهم السيطرة والغلبة بعد ذلك.

ومنذ بدء تنظيم الجيش الإسلامي تنظيما محددًا قسم الجنود إلىٰ عشرات ومئات وألوف عشرات الألوف، وأطلق علىٰ رؤساء الوحدات المختلفة ألقاب خاصة: فكان قائد العشرة يسمىٰ عريفًا، وقائد الخمسين يسمىٰ خليفة أو نقيبًا، ورئيس المائة يسمىٰ قائدًا.

أما رئيس الجيش أو قائدة فكان يسمىٰ أميرًا، وقد عرف لقب «أمير» بهذه الدلالة عند العرب قبل الإسلام، وظل بهذا المعنىٰ في الإسلام منذ عهد النبي ﷺ فكان إذا جهز جيشًا جعل له أميرًا أي قائدًا ورئيسًا، وكذلك كان شأن الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وغيرهم[(١)].

وعرفت ألقاب أخرىٰ كثيرة في الجيش العباسي في العصور المختلفة.

ومن هذه الألقاب «قائد الثغر» الذي عرف منذ إنشاء الثغور، ولقب «المقدم» الذي ظهر بمعنىٰ القائد في الدولة الغزنوية وفي الدولة السلجوقية وما خلفها من دول الأتابكة، كما عرف أيضا لقب «الاسفهسلار» وهو لفظ مكون من «اسفه» الفارسية ومعناها المقدم أو الرائد، و«سلار» التركية

(١) Hitti, History of the Arabs, p. 328.

ومعناها الجيش فيكون معناه قائد الجيش، وقد نقل اللقب عن الفرس وشاع استعماله في عصر السلاجقة والأتابكة[١].

ومن المرجح أنه في العصر السلجوقي صار يسمىٰ أفراد الجيش العام باسم العسكر في حين كان يسمىٰ أفراد الجيش المحلي باسم الجند، ويقال إن كلمة عسكر مأخوذة من كلمة «لشكر» الفارسية ومعناها جيش، وربما كانت تحريفًا عربيًا للكلمة اللاتينية ومعناها جيش.



(١) دكتور محمد موسىٰ هنداوي: المعجم في اللغة الفارسية، البنداري: زبدة ص ٥٣ وما بعدها؛ الراوندي: راحة الصدور ص ٢٢٤.



البَابُ الثَّانِي

العلم والفكر

عني الإسلام بالعلم ودعا إليه، وحث المسلمين علىٰ طلبه ولو بالصين، ونزلت أولىٰ القرآن الكريم علىٰ النبيه متضمنة للعلم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، ووضح هذا المعنىٰ في كثير من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة.

* وجعل الله سبحانه العلم سببًا لخلافة آدم في الأرض:

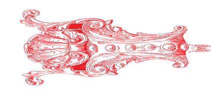
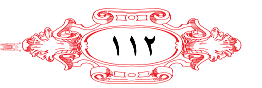
وعنىٰ النبي ﷺ بالعلم حتىٰ أنه جعل ثمن عتق الأسير أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة.

ودعا القرآن الكريم إلىٰ تدبر مظاهر الكون وأسراره، كما حث علىٰ الارتحال والسفر لطلب العلم ثم تعليمه: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢].

واتبع المسلمون هدي القرآن وسنة النبي ﷺ فأقبلوا علىٰ العلم يغترفون من مناهله وينشرونه بين الناس، وبدأت عنايتهم في أول الأمر بالقرآن الكريم فجمعوه في عهد أبي بكر، ثم نقلوا منه نسخًا وزعوها في الأمصار في عهد عثمان بن عفان.

ولم يكن لبني أمية دور كبير في العناية بالثقافة والعلوم ولو أنه ظهرت علامات أو مقدمات تنبئ بنهضة ثقافية قادمة، وقد حدث الازدهار الثقافي فعلًا في العصر العباسي.

وبرزت العناية في هذا العصر باللغة العربية وفروعها المختلفة إذ جمع تراثها الثمين من شعر ونثر وخطب وأمثال وحكم وغير ذلك، ومن فروع اللغة العربية التي نالت عناية خاصة الشعر فوضع الخليل بن أحمد في أواخر

القرن الثاني الهجري (٨م) علم العروض، وظهر فحول الشعراء أمثال بشار بن برد وأبي نواس والبحتري وابن الرومي والمتنبي وأبي العلاء[١].

وامتدت العناية إلىٰ النثر فظهرت كتب ابن المقفع وابن عبد ربه ومقامات الهمذاني والحريري[٢].

وازدهرت دراسة النحو وقننت قواعده وظهرت منها مدرستان ذواتا اتجاهات مختلفة: هما مدرسة الكوفة ومدرسة البصرة كما وضعت القواميس اللغوية وألفت الكتب عن الكتابة والإنشاء وفنونها: والحق أن مظاهر العناية باللغة في العصر العباسي تفوق الحصر.

واتجهت العناية بصفة خاصة إلىٰ السنة النبوية الشريفة فبذل العلماء الجهد الكبير في تدوينها ودراستها وبدأ الاهتمام بالحديث في المدينة المنورة بصفة خاصة حيث وضع مالك بن أنس «الموطأ»، وبرز في علوم الحديث رجال أفذاذ مثل البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه[٣]، وكتب ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل كما ظهر أصحاب كتب الطبقات.

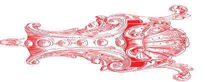
وعلىٰ أساس القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وضعوا أسس الفقه وأحكام الدين، وفي العصر العباسي ظهر أصحاب المذاهب الأربعة: أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل، وظهر في ختامه المجد ابن تيمية ومن كتب الفقه جاءت الشريعة والقانون، ومن كتب الطبقات التي ألفت عن رواة الحديث تطور علم التاريخ.

---

(١) انظر هذه المواد في دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) انظر هذه المواد في المرجع نفسه.

(٣) يسمون الستة في علم الحديث.



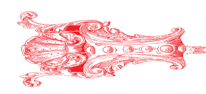
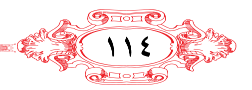
وحظيت السيرة النبوية الشريفة بعناية المؤرخين المسلمين، وربما بهذه السيرة بدأ التاريخ الإسلامي، وليس من شك في أن المجتمع الإسلامي كان يتمتع بعقلية تاريخية متفوقة، وبدأ التاريخ عند المسلمين بتسجيل الأحداث تسجيلًا زمنيًا، واشتهر في مجال التاريخ كثير من المسلمين مثل محمد بن إسحاق وابن هشام وابن سعد والطبري وابن قتيبة وابن النديم وابن الأثير وابن خلدون.

ولم تقف عناية المسلمين في الدول المختلفة عند حد العلوم الدينية واللغوية بل امتدت إلىٰ سائر أفرع العلم من فلك وطب وهندسة ورياضيات وعلوم طبيعية وغير ذلك.

وكان أول أشكال التأليف في الإسلام يتم بطريقة شفهية، أي بطريقة الإملاء: إذ كان المدرس يملي علمه أثناه الدرس وبذلك يؤلف الكتاب عن طريق الإملاء الشفهي فإذا كتب طالب ما يمليه عليه مدرسه صار لديه أصول الكتاب مدونة ثم صار المدرس يملي من كتابه عن طريق القراءة.

ويزعم بعض المستشرين أنه من المحتمل أن فكرة الكتاب عرفها المسلمون من إيران، غير أن الحقيقة أن فكرة الكتاب نبعت عند المسلمين من تراثهم هم أنفسهم وكان أول مظهر للكتاب عند المسلمين هو جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر ثم نسخه في عهد عثمان بن عفان، وقد ورد ذكر الكتاب في القرآن الكريم في عدة آيات كريمة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢].

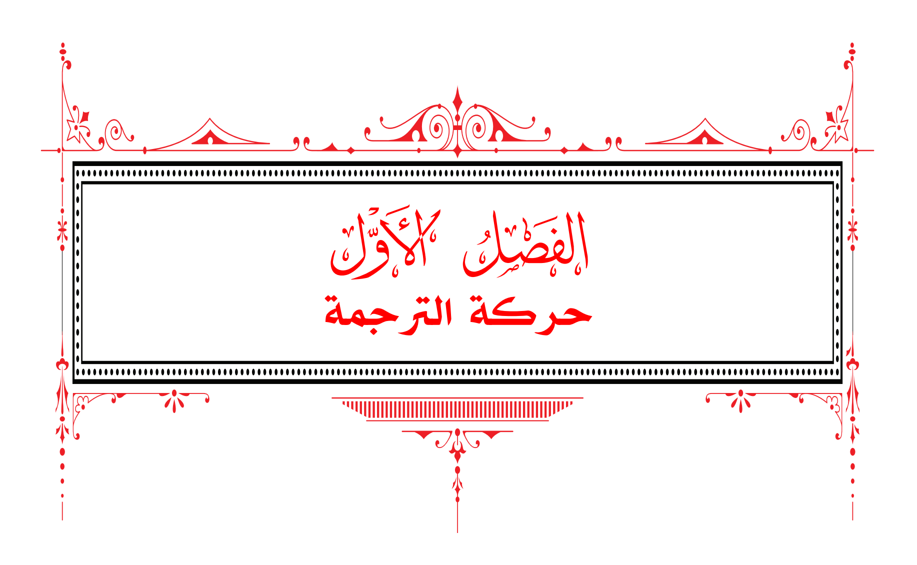
وكان للأجناس المختلفة في الدولة الإسلامية دورها في الحركة الثقافية وقد ظهر فضل العرب بشكل واضح في الشعر وظلت الثقافة في العالم الإسلامي ذات طابع عربي وذات صلة وثيقة بالحياة والتقاليد العربية.

وكان الفرس من العناصر البارزة في الحركة الثقافية، وقد ساعدتهم ظروف تأسيس الدولة العباسية وتنظيمها واختيار موقع العاصمة علىٰ أن يلعبوا دورًا كبيرًا في هذا المجال كما كانت التقاليد والحضارة الفارسية لا تزال غضة لم يعف عليها الزمن.

وكان لأهل الذمة من النصارىٰ واليهود والصابئة دورهم ولا سيما في حركة الترجمة التي كان لها أثرها في تطوير الثقافة الإسلامية[١].

(١) Hitti, History of the Arabs.



الفَصْلُ الأَوَّلُ
حركة الترجمة

لم يقف جهد المسلمين عند حد النظر والاجتهاد الشخصي بل عمدوا إلىٰ التعرف علىٰ ما أحرزته البشرية من تقدم في مجالات الثقافة المختلفة وذلك ليلموا بما عرفه من كان قبلهم من الشعوب الأخرىٰ حتىٰ يتسنىٰ لهم أن يضيفوا الجديد إلىٰ ما سبق التوصل إليه: وبذلك تزداد المعرفة الإنسانية وتتطور.

وكان من أهم وسائلهم إلىٰ ذلك ترجمة الكتب التي تركها من سبقهم من الشعوب إلىٰ اللغة العربية، والحق أن الترجمة إلىٰ العربية بدأت في حياة النبي ﷺ: «إذا كان يكلف بعض صحابته بتعلم اللغات الأخرىٰ حتىٰ يترجموا الكتب التي ترد من أقطار غير عربية».

واستمرت حركة الترجمة في العصر الأموي ولكن دون عناية كبيرة أو خطة منظمة.

أما في العصر العباسي فقد ازدهرت ازدهارًا كبيرًا ولا سيما في عهد المأمون واستمرت في تقدم واضطراد حتىٰ أواسط القرن الثالث الهجري (٩م)[١]

---

(١) ابن النديم: الفهرست ص ٣٣٩-٣٤٠.

وكان من مظاهر العناية بالترجمة تشجيع المترجمين وإجزال العطاء لهم، والبحث عن المخطوطات القديمة وبذل الكثير من المال في سبيل الحصول عليها، وإرسال الوفود والسفارات لجلبها من البلاد التي يعتقد وجودها فيها مثل بيزنطة بل كان أحيانًا ما يشترط بعض الولاة في معاهداتهم مع بلاد أجنبية أن يقدموا لهم كتبًا معينة من المخطوطات المحفوظة لديهم.

وهكذا أخذ العالم الإسلامي يترجم إلىٰ العربية كتبًا فارسية وسريانية وعبرية ويونانية، وكانت السيادة للثقافة اليونانية في مجال الترجمة في الفلسفة والطب والرياضيات في حين كان للثقافة الفارسية والشرقية بعامة دور واضح في مجال الآداب.

وكان لأهل الذمة من النصارىٰ واليهود والصابئة دور كبير في حركة الترجمة كما سبق أن قدمنا.

ومن أوائل المترجمين أبو يحيىٰ بن البطريق (ت ح ١٨٤هـ/ ٨٠٠م) وكان يترجم عن اليونانية، ويقال إنه يترجم للمنصور بعض كتب جالينوس وأبقراط التي ترجع إلىٰ حوالي سنة ٤٣٦ ق. م.

ومنهم أيضًا يوحنا بن ماسويه وهو سورياني واشتغل بالترجمة في عهد هارون الرشيد وقد أسند إليه الخليفة حفظ الكتب القديمة التي عثر عليها بأنقره وعمورية وكان أكثرها في الطب، وعاش ابن ماسوية حتىٰ عهد المتوكل وكان معلما لحنين بن إسحاق.

أما حنين بن إسحاق[١]، فكان بحق شيخ المترجمين (١٩٣- ٢٦٠ هـ/ ٨٠٩-٨٧٣م) وهو من نساطرة العرب، ويقال أنه كان أعلم أهل عصره في الطب.

(١) انظر Encyclopaedia of Isiam.

واهتم بدراسة اللغة اليونانية وعمل مع جبريل بن بختيشوع طبيب المأمون، ثم عهد إليه ببيت الحكمة وأمره المأمون أن يترجم كل ما يمكنه من الكتب اليونانية، وكان يعمل معه أبنه إسحاق وابن أخته حبيش بن الحسن ومن الترجمات التي تنسب إليهم شرح أرسطو (هرمنوتكا) وكتب لجالينوس وأبقراط وديسقوريدس ومجموعها حوالي خمسين كتابا، وكتاب السياسة لأفلاطون والمقولات والخلقيات والطبيعيات لأرسطو.

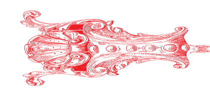
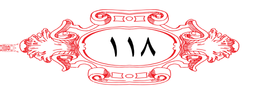
ويقال إن المأمون كان يعطي ابن إسحاق زنة ما يترجمه من الكتب ذهبًا، وأن بني شاكر وكانوا من المهتمين بالترجمة كانوا يدفعون له ولزملائه نحو خمسمائة دينار في الشهر ثمن ما يقومون بترجمته.

وكان من أوائل المترجمين في مجال الرياضيات والفلك الحجاج بن يوسف بن مطر وكان من مدرسة حران وذاع صيته فيما بين سنتي ١٧٠ و٢١٨هـ (٧٨٦-٨٣٣م) وتنسب إليه الترجمة الأولىٰ لأصول الهندسة لإقليدس وإحدىٰ الترجمات الأولىٰ لكتاب المجسطي لبطليموس.

وممن اضطلع بالترجمة في هذا المجال أيضًا ثابت بن قرة وأبناؤه ولقوا رعاية خاصة من الخليفة المعتضد، وكان ثابت من صابئة حران ومن ثم عنىٰ هو وأبناؤه بالعلوم الرياضية والفلكية، وإليهم ينسب نقل كثير من كتب اليونان في الرياضيات والفلك مثل مؤلفات أرشميدس (ت سنة ٢١٢ ق.م) وابلونيوس (ولد حوالي سنة ٢٦٢ ق.م) وتنقيح ترجمة إقليدس.

وبعد ثابت بن قرة برز في علم الفلك أبو عبد الله محمد بن جابر ابن سنان البتاني (ت٣١٧هـ-٩٢٩م).

وهكذا صار العالم الإسلامي علىٰ معرفة بآراء أفلاطون وأرسطو وعلم جالينوس وأبقراط وديسقوريدس وبطليموس وأرشميدس وأبلونيوس بالإضافة إلىٰ حكمة الهنود وآداب الفرس.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كثيرًا من مؤلفات هؤلاء العلماء فقدت فيما بعد ولم تحفظ إلا بفضل ترجماتها العربية: كما هي الحال بسبعة من كتب جالينوس في علم التشريح وكتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه عبد الله بن المقفع عن اللغة البهلوية وكان أصلا منقولا عن اللغة السنسكريتية.

وبفضل حركة الترجمة دخل في اللغة العربية كثير من الكلمات المعربة يتضح من بعضها تناول العرب علوم جديدة ومنها: جغرافيا وفلسفة وأسطرلاب وأثير وإكسير وإبريز ومغناطيس وأرغن.

ثم جاء بعد عصر الترجمة والاقتباس عصر ابتكار: إذ أخذ علماء العرب يمحصون آراء الأقدمين ويشرحونها ويصححونها ويضيفون إليها وساعدت اللغة العربية بما تمتاز به من قوة ودقة بناء وسهولة تناول علىٰ التعبير عن الفكر العلمي.

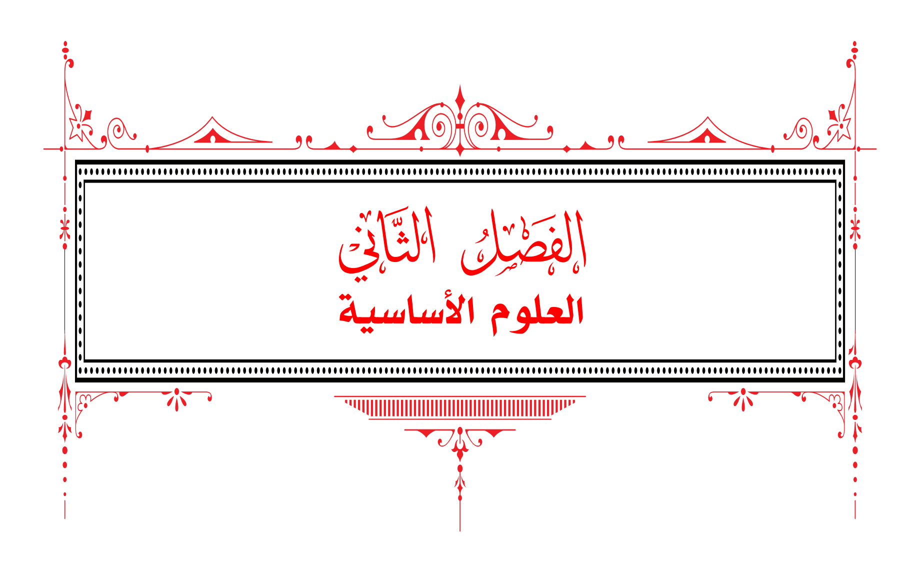
وهكذا لم تقتصر بجهود العرب علىٰ مجرد الترجمة أو النقل بل إنهم ابتكروا أيضًا الكثير وتفردوا بمذاهب في البحث والإنتاج الخصب في ميادين الشريعة وعلوم الدين وفقه اللغة، وظهرت مآثرهم الضخمة في الطب والكيمياء والفلك والرياضيات والجغرافيا والتاريخ.

وفي الوقت الذي أحرزت فيه الدولة العباسية هذا التقدم العلمي الرائع كانت أوروبا تتخبط في ظلام الجهل، وكان أقصىٰ ما يطمح إليه رجال الدولة فيها أن يتعلموا مجرد كتابة أسمائهم كما كانت الحال في عهد شارلمان الذي يعتبر عهده من أزهىٰ العصور في أوربا في العصور الوسطىٰ[(١)].

(١) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطىٰ الجزء الأول ص ١٧٦ وما بعدها.

وحين تعرف الأوربيون علىٰ هذا الإنتاج العلمي العربي أقبلوا علىٰ اقتباسه وكان له الفضل الأول فيما بعد في أنارة الطريق أمامهم وانتشالهم من وهدة الجهل.

ولقد حدث في أوروبا في عصور لاحقه ولا سيما في القرن السادس الهجري (١٢م) حركة الترجمة من العربية إلىٰ اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية نقلت بفضلها المؤلفات العربية في شتىٰ فروع الفلسفة والعلم والأدب إلىٰ الأوربيين، وكان لهذه الحركة أكبر الأثر في بعث روح النهضة في أوربا.



نبغ في العالم الإسلامي كثير من العلماء الذين أثروا المعرفة البشرية في شتىٰ المجالات ويكفينا أن نذكر فيما يلي بعض نماذج من هؤلاء العلماء الذين ذاع صيتهم وانتشر علمهم إلىٰ خارج العالم الإسلامي وبخاصة أوروبا.

* الطب:

أولًا: من أعظم أطباء العرب أبو بكر محمد بن زكريا الرازي[١] (٢٥١هـ - ٣١٠هـ (٨٦٥-٩٢٥م) وينسب إلىٰ الري مسقط رأسه.

(١) ومن أهم كتبه في الكيمياء كتاب الأسرار، وقد نقل إلىٰ اللاتينية وصار مصدرًا رئيسيًا في الكيمياء إلىٰ أن ظهرت مؤلفات جابر بن حيان في القرن الثامن الهجري (١٤م).

(١) Encyclopaedia of Islam.

(٢) الكتاب المنصوري من عشرة أجزاء، نقل إلىٰ اللاتينية وعرف باسم (Liber Almonsoris) ونشر لأول مرة في ميلان ما بين سنة ١٤٨٠ و١٤٨٩م، ونقل منه حديثًا فصول إلىٰ الفرنسية والألمانية.

(٣) رسالة الجدري والحصبة: وتعد أول ما كتب في هذا المجال، وقد نقلت أولا إلىٰ اللاتينية في البندقية ثم نقلت إلىٰ لغات أخرىٰ.

(٤) كتاب الحاوي وهو أهم مؤلفاته وهو موسوعة طبية ونقل إلىٰ اللاتينية في سنة ١٢٧٩م في صقلية، وطبعت ترجمته مرارًا بين سنتي ١٤٨٦ و١٥٤٣م تحت اسم (Continens) وصدرت الطبعة الخامسة منه في البندقية وكان له أثر كبير علىٰ الغرب اللاتيني.

ثانيًا: علي بن العباس (ت ٣٨٤هـ-٩٩٤م) ومن أهم تآليفه الكتاب الملكي الذي وضعه لعضد الدولة (حكم من ٣٦٧ - ٣٧٢هـ) وسمي أيضًا كامل الصناعة الطبية وعمت دراسته إلىٰ أن حل محله كتاب القانون لابن سينا.

ثالثًا: ابن سينا[١] (٣٧٠-٤٣٠/ ٩٨٠-١٠٣٧م) أبو علي الحسين بن عبد الله: ولد في بخارىٰ وكان أشهر اسم بعد الرازي في تاريخ الطب العربي، وكان يلقب

(١) Hrtti, op, cit.

بالشيخ الرئيس، وجمع بين الطب والفلسفة والفقه والشعر ومن شعره قصيدة في النفس وهبوطها في الجسد جاء فيها:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تحجب وتمنع

* ومن أشهر كتبه التي نقلت إلىٰ اللغات الأوربية:

(١) القانون في الطب نقل إلىٰ اللاتينية في القرن السادس الهجري (١٢م).

وصار الكتاب المدرسي لتعليم الطب في أوروبا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وظهر منه ١٥ طبعة لاتينية وواحدة عبرية، ونقل بعضه حديثًا إلىٰ الإنجليزية؛ ويشتمل القسم الخاص بالأدوية به علىٰ حوالي ٦٧٠ دواء، وقد ظل هذا الكتاب المرجع الأساسي في الطب مدة أطول من أي كتاب آخر.

رابعًا: علي بن عيسىٰ: ولد في القرن الخامس الهجري (١١م) وهو أشهر أطباء العيون العرب وله ٣٢ كتابًا في علم الرمد أفضلها تذكرة الكحالين وقد وصف فيها ١٣٠ مرضًا من أمراض العيون، ونقلت إلىٰ العبرية مرة وإلىٰ اللاتينية مرتين.

خامسًا: ابن جزلة (ت٤٩٣هـ/ ١١٠٠م) وقد صنف موجزًا طبيًا عنوانه «تقويم الأبدان في تدبير الإنسان» ورتب فيه الأمراض علىٰ غرار ترتيب النجوم الفلكية ونقل إلىٰ اللاتينية في ستراسبورغ سنة ١٥٣٢م.

*** الفلسفة:**

صار العرب يطلقون كلمة فلاسفة أو حكماء علىٰ المفكرين الذين لا تتقيد آراؤهم بقيود الدين، كما كانت لفظة متكلمين أو أهل الكلام تطلق علىٰ أولئك الذين أخضعوا طرقهم الفكرية لنظم الدين المنزل، ثم صار «الكلام» يعني علم الإلهيات، وأصبح المتكلم هو العالم بالإلهيات، فالغزالي بهذا المعنىٰ متكلم وظهر في العالم الإسلامي عدد من الفلاسفة نقلت كتبهم إلىٰ اللغات الأوربية أهمهم(١):

أولًا: الكندي (أبو يوسف يعقوب ابن إسحاق الكندي):

ولد في الكوفة في حوالي منتصف القرن الثالث الهجري (٩م) واشتهر في بغداد ويسمىٰ فيلسوف العرب نظرًا لنسبه العربي الصريح، وجمع بين الفلسفة والعلم بالتنجيم والكيمياء والبصريات وأصوات الموسيقىٰ، نسب إليه نحو ١٦٥ كتابا أكثرها مفقود ومنها:

(١) **كتاب في علم البصريات:** ظلت له مكانته إلىٰ أن ظهر كتاب لابن الهيثم وتأثر روجر بيكن بترجمة لاتينيه لكتاب الكندي عنوانها: (De aspectibus).

وذكر الكندي في إحدىٰ رسائله عن الموسيقىٰ الإيقاع كعنصر من عناصر الموسيقىٰ العربية مما يدل علىٰ أن العرب عرفوا الغناء الموزون قبل أوربا بقرون.

---

(١) G. Quadri, La Philosophie arabe dans lEurope Medievale, pp. 58-70.

ومن الغريب أن أكثر المحفوظ من مؤلفات الكندي موجود في الترجمات اللاتينية مثل ترجمات جرارد القرموني وليس في أصله العربي.

ثانيًا: الفارابي[١] (محمد بن محمد بن طرخان أبو النصر الفارابي): عمل في بلاط سيف الدولة الحمداني حيث عرف بالتصوف وتوفي بدمشق سنة٣٤٠هـ (٩٥٠م) عن حوالي ٨٠ سنة وكان يلقب بالمعلم الثاني وذلك باعتبار أرسطو المعلم الأول، وكتب في علم النفس والسياسة وما وراء الطبيعة بالإضافة إلىٰ شروح أرسطو وغيره، ومن كتبه رسالة نصوص الحكم ورسالة في آراء أهل المدينة الفاضلة وكتاب الموسيقىٰ الكبير.

* الفلك[٢]:

عنىٰ العرب بالفلك فألفوا فيه الكتب وبنوا المراصد وجهزوها بأدوات مختلفة منها مقياس الارتفاع والاسطرلاب والمزولة (ساعة شمية) وعدد من الكرات، كما عملوا التقاويم وكان التقويم يعرف في اللغة العربية باسم الزيج ومن علماء الفلك العرب:

أولًا: إبراهيم الفزاري (ت٧٧٧م) وهو أول مسلم صنع اسطرلابًا.

ثانيًا: علي بن عيسىٰ الاسطرلابي: اشتهر في بغداد ودمشق قبل سنة ٢١٥هـ (٨٣٠م) وقد وضع رسالة تعتبر من أقدام الرسائل في الاسطرلاب.

---

(١) G. Quadri, op. cit: pp. 71-94.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ص٥٤٣.

ثالثًا: أبناء موسىٰ بن شاكر: وقد أسهموا في قياس الدرجة الأرضية لتحديد حجم الأرض ومحيطها علىٰ أساس أنها مدورة، وكانت حساباتهم دقيقة نسبيًا.

رابعًا: الخوارزمي: وضع زيجا نقحه بعد قرنين العالم الفلكي الأندلسي مسلمة المجريطي (ت حوالي ٣٦٧هـ-١٠٠٧م) ونقل إلىٰ اللاتينية في سنة ١١٢٦م هذا وقد أصبحت التقاويم العربية أساسا لغيرها من التقاويم والتصانيف الرياضية التي صدرت بعد ذلك في المشرق والمغرب، من المعروف أن هذه التقاويم شاعت فأخذ بها الناس حتىٰ في الصين.

خامسًا: أبو العباس أحمد الفرغاني، أمره المتوكل سنة (٢٤٦هـ-٨٦١م) بعمل مقياس للنيل عند الفسطاط بمصر، ومن أهم كتبه «المدخل إلىٰ علم هيئة الأفلاك» وقد ترجم إلىٰ اللاتينية سنة ١١٣٥م ونقل أيضا إلىٰ العبرية.

سادسًا: عبد الرحمن الصوفي (٣٥٧هـ - ٩٦٨م) وهو صاحب كتاب الكواكب الثابتة وهو رسالة رائع في الرصد الفلكي.

سابعًا: أبو عبد الله محمد بن جابر البتاني اشتهر فيما بين سنتي (٢٦٣-٣٠٥هـ/ ٨٧٧-٩١٨م) ويعتبر من أعظم الفلكيين العرب.

ثامنًا: البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (٣٦٢-٤٣٩هـ/ ٩٧٣- ١٠٤٨م) وله كتب في الفلك

منها «القانون المسعودي في الهيئة والنجوم» و«التفهيم لأوائل صناعة التنجيم».

* التنجيم[١]:

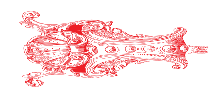
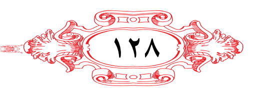
وكان أبرز رجاله أبو معشر (ت ٣٧٢هـ/ ١٠٨٦م) ولد في بلخ وأقام في بغداد واعتبرته المراجع الأوربية في العصور الوسطىٰ حجة، وصور كقديس أو نبي ونقل أربعة من كتبه إلىٰ اللاتينية في القرن ١٢م وقد اكتشف حقائق علمية تتعلق بنظم المد والجزر وعلاقتهما بطلوع القمر وغيابه.

* الرياضيات:

أولًا: أبرز شخصية عربية في تاريخ الرياضيات محمد بن موسىٰ الخوارزمي[٢] (١٦٣-٢٣٥هـ/ ٧٨٠-٥٨٠م) وقد استخدم الخوارزمي في مؤلفاته الأرقام الهندية - العربية وبفضل هذه المؤلفات أخذ الأوربيون نظام الأرقام التي يستعملونها الآن حيث سميت باسمه في أول الأمر (algorisms)، وكان الأوربيون يستعملون قبل ذلك الأرقام اللاتينية التي لا تساعد علىٰ إجراء العمليات الحسابية المعقدة، ومن ثم لم يتح لهم التقدم في الرياضيات إلا بعد استخدامهم للأرقام العربية التي يسميها العرب بالأرقام الهندية اعتقادًا بأنهم نقلوها عن الهنود.

(١) انظر وصية منجم في التعريف لابن فضل الله العمري ص١٤١.

(٢) Encyclopaedia of Islam.

ومهما يكن من شيء فإن العمليات الحسابية لم تتطور تطورًا كبيرًا إلا بعد استخدام العرب لهذه الأرقام ومن المعروف أن لفظة زيرو (zero) في اللغة الإنجليزية ولفظة (cipher) التي عرفت عند الإنجليز قبلها بمائتي عام هما تحريف للفظة «صفر» العربية، وكان استخدام الصفر في الأرقام العربية مساعدًا علىٰ التقدم في علوم الحساب والرياضيات.

*** ومن أشهر أعمال الخوارزمي:**

(١) الزيج المشهور الذي سبقت الإشارة إليه.

(٢) كتاب في الحساب: ويعتبر أقدم كتاب في علم الحساب ولم يصلنا إلا في نسخة مترجمة.

(٣) حساب الجبر والمقابلة: وهو أقدم كتاب في الجبر ولا يزال الأصل العربي مفقودًا.

وقد نقل إلىٰ اللاتينية في القرن السادس الهجري (١٢م) وظل الكتاب المعتمد في الجامعات الأوروبية حتىٰ القرن السادس عشر الميلادي وبواسطته عرفت أوربا علم الجبر وكذلك اللفظة نفسها.

ثانيًا: عمر الخيام: وهو ممن تأثروا بالخوارزمي في علوم الرياضيات وله كتاب في الجبر.

* الكيمياء:

أدخل العرب في دراسة الكيمياء فكرة التجربة العلمية وهي أرقىٰ من غير شك من نظريات الإغريق الغامضة، ومن أشهر العلماء العرب في الكيمياء: جابر بن حيان[١]: وقد بدأت شهرته في الكوفة حوالي سنة ١٢٨هـ

(١) المرجع نفسه.

(٧٧٦م) ويعتبر أبا الكيمياء العربية ويعد بعد الرازي أعظم الكيميائيين في العصور الوسطىٰ، وهو أول من أدرك أهمية الاختبار العلمي، ويقال إنه عثر في الكوفة بعد وفاته علىٰ معمله وبه هاون وقطعة كبيرة من الذهب، وينسب إليه مائة كتاب بالعربية واللاتينية وتعتبر كتبه بعد القرن الرابع عشر الميلادي أشهر كتب الكيمياء أثرًا في أوربا وآسيا.

هذا وقد تفوق المسلمون أيضًا في علوم أخرىٰ ولا سيما الجغرافيا والتاريخ.



كان من مظاهر النهضة الثقافية والعلمية في العالم الإسلامي والعناية بوسائلها الحرص علىٰ تأسيس المدارس والمكتبات.

ولقد بدأ التدريس في أول الأمر في المساجد والجوامع، كما كان يجري أحيانًا في بيوت المدرسين الخاصة، ثم صار يعد له دور علم خاصة يؤسسها الخلفاء والولاة كان يطلق عليها اسم بيوت الحكمة وخزائن الحكمة[1]، وصواوين الحكمة، وكانت هذه أساسًا دور كتب وربما وجد فيها أيضًا مدرسون وعلماء بالإضافة إلىٰ التراجمة والنساخين والمجلدين.

وربما كان أول بيت حكمة عرفه المسلمون هو بيت الحكمة الذي أسسه العباسيون في بغداد وربما أنشئ أول الأمر في عهد المنصور (١٣٥-١٥٨هـ/ ٧٥٢-٧٧٤م)، وازدهر بصفة خاصة في عهد المأمون الذي جعله أيضًا بمثابة مدرسة للتعليم.

أما خزائن الحكمة فمن أشهرها خزانة الحكمة التي أنشأها الفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٦-٨٦١م)، وقد أسس

(١) المسعودي: مروج الذهب جـ٢ ص٢٨٣.

الخليفة المعتضد أيضًا دورًا ومساكن ومقاصير للتعليم، ومن بيوت الحكمة المشهورة بيت الحكمة بالقيروان، ويقال إن أول من أسسه هو زيادة الله الثالث الأغلبي (٢٩٠-٢٩٦هـ) وكان به مكتبة ودار للترجمة والتأليف ومعهد لتدريس الطب والصيدلة والرياضيات والفلك والهندسة والنبات والموسيقىٰ وغيرها.

وكانت دور الكتب سواء العامة أو الخاصة عامرة بالكتب في جميع فروع العلم والمعرفة، وبلغ عدد الكتب في بعضها أكثر من مليون كتاب.

وإلىٰ جانب دور الكتب انتشرت محال الوراقة كمراكز للعلم والثقافة: إذ كانت تعمل في نسخ الكتب وتجويد الخط بالإضافة إلىٰ أهميتها كمراكز أدبية، وقد أحصىٰ اليعقوبي في بغداد سنة ٢٧٨هـ (٨٩١م) أكثر من مائة من محال للوراقة.

وفي القرن الخامس الهجري (١١م) بدأ يظهر نوع من المؤسسات العلمية والتعليمية عرف باسم المدارس، ويبدو أن ظهور هذه المدارس كان كرد فعل لنشاط دور العلم الشيعية إذ كانت الوظيفة الأساسية للمدارس هي نشر المذاهب السنية ومحاربة المذاهب الشيعية عن طريق العلم والتدريس.

وقد أنشئت المدارس في أول الأمر علىٰ نفقة المدرسين أنفسهم: ففي نيسابور أسس ابن فورك مدرسة علىٰ نفقته، وفي مرو شيد أبو حاتم السبتي مدرسة تشتمل علىٰ مكتبة وغرف لإيواء الطلبة الغرباء[(١)].

وفي عهد السلطان محمود الغزنوي ظهرت أربع مدارس في نيسابور: هي المدرسة البيهقية التي أسسها البيهقي، ومدرسة شيدها أبو سعد إسماعيل بن علي ابن المثني الاستراباذي الصوفي الواعظ، ومدرسة ثالثة

(١) د. حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف جـ٣ ص١٠٤٨.

بنيت للأستاذ أبي إسحاق الاسترايني، وأخيرًا المدرسة السعيدية التي أسسها نصر ابن سبكتكين أخو السلطان محمود الغزنوي أمير نيسابور، والتي تعتبر من أوائل المدارس التي أنشئت علىٰ يد الدولة(١).

والحق أنه منذ منتصف القرن الخامس الهجري (١١م) بدأت الدول تتسهم بطريقة فعالة في حركة تأسيس المدارس بحيث صارت مؤسسات رسمية أو شبه رسمية ذات معالم واضحة محددة، ويزاول فيها المدرسون مهامهم التعليمية.

ولقد ازدهرت هذه الحركة في عصر السلاجقة وبخاصة علىٰ يد الوزير نظام الملك، وبدأت في خراسان وأخذت تمتد غربًا حتىٰ وصلت مصر وبلاد المغرب.

ومن الأسباب الرئيسية التي دفعت السلاجقة إلىٰ تأسيس المدارس ونشرها رغبتهم في نشر المذهب السني الذي كانوا يدينون به، ومحاربة المذهب الشيعي باعتباره الدعامة الفكرية والعقائدية التي تستند عليها الخلافة الفاطمية، ومن الملاحظ أن المذهب السني كان هو مذهب الخلافة العباسية التي اعتمد عليها السلاجقة لدعم نفوذهم والتي كانت في الوقت نفسه قد فقدت قوتها السياسية بحيث أمن السلاجقة تهديدها لنفوذهم وسلطانهم.

ولقد اعتمد السلاجقة في تعليم المذهب السني علىٰ مدرسين من الفقهاء السنيين ولا سيما من الشافعية الذين صاروا بحق من أشد فقهاء السنة تعصبًا ضد الشيعة علىٰ اختلاف نحلهم وألوانهم السياسية.

وهكذا صار للمدرسين دور سياسي إلىٰ جانب وظيفتهم التعليمية: فلم يقتصر المدرسون علىٰ أن يكونوا مجرد معلمين أو مجرد مجهزين لموظفين

---

(١) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي جـ٣ ص ٢٠٠-٢٠١.

فحسب بل صارت لهم أهميتهم في مجال السياسة الداخلية والخارجية، كما كان يختار منهم في كثير من الأحيان رجال الدولة والإدارة كالولاة وأصحاب الشرطة والوزراء والسفراء وغيرهم كما كانوا بمثابة مستشارين للولاة والأمراء.

وازداد نفوذ المدرسين بفضل سلطانهم الأدبي والروحي فعظمت منزلتهم بين الناس في حياتهم أو بعد موتهم، ومن ثم استطاعوا أن يوجهوا الرأي العام.

وقد استغل الولاة هذه المنزلة فعنوا بتأسيس المدارس وتقريب المدرسين حتىٰ يضمنوا كسب الرأي العام واستقرار الأمور، وانتصار المذهب السني وبالتالي سلطانهم السياسي.

وكان الوزير السلجوقي نظام الملك من أوائل من فطن إلىٰ أهمية المدارس والمدرسين فأسس مدارس في كثير من أنحاء الدولة السلجوقية، وعين فيها مدرسين من أشهر العلماء المعاصرين له.

وفي حوالي منتصف القرن الخامس الهجري (١١م) أسس نظام الملك في نيسابور مدرسة نصب للتدريس فيها إمام الحرمين الجويني وقد وصلنا مرسوم بتعيين مدرس في هذه المدرسة يعتبر من أقدم مراسيم تولية المدرسين ونعني بذلك التوقيع الذي أصدره السلطان سنجر السلجوقي بتعيين محمد بن يحيىٰ مدرسًا في المدرسة النظامية بنيسابور فيما بين سنتي ٥١١هـ و٥٢٢[(١)].

وبالإضافة إلىٰ مدرسة نيسابور أسس نظام الملك مدارس في بغداد والبصرة وأصفهان وبلخ وهراة والموصل[(٢)] وغيرها وكانت هذه المدارس تسمىٰ بالنظامية نسبة إليه.

---

(١) ناجي معروف: التوقيعات التدريسية ص٢٦٧.

(٢) دكتور عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ص٨١.

وأشهر هذه المدارس المدرسة النظامية في بغداد، وقد تولىٰ بناءها أبو سعيد الصوفي سنة ٤٥٧هـ علىٰ شاطئ دجلة بأمر نظام الملك، وبني حولها أسواقًا أوقفت عليها، كما ابتاع ضياعًا وخانات وحمامات وقفها عليها، فبلغت النفقة ما يقارب ستين ألف دينار، وكان أول مدرسيها الشيخ أبو السعود الشيرازي وكان في قمة شهرته، كما درس فيها مشاهير علماء المسلمين ومنهم الإمام أبو نصر الصباغ وأبو القاسم الدبوسي وأبو حامد الغزالي والشاشي والكيا الهراسي والسهروردي وكمال الدين الأنباري وبهاء الدين كاتب تاريخ حياة صلاح الدين.

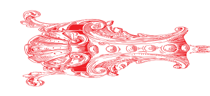
ووصلنا نسخة توقيع بتدريس كتب به عن الإمام الناصر لدين الله للقاضي محيي الدين محمد بن فضلان بتدريس المدرسة النظامية ببغداد في سنة ٦١٤ هـ يتضح منه أن كان من مهمة المدرس -إلىٰ جانب التدريس- نظر وقوف المدرسة وعمارتها، والعمل علىٰ استمنائها، والتوفر علىٰ كل ما يعود بتزايدها وزكائها[(١)].

وحضر الرحالة ابن جبير في النصف الثاني من القرن السادس الهجري (١٢م) أحد الدروس بالنظامية بعد صلاة العصر فذكر أن المدرس كان يقف علىٰ منصة، وأن التلاميذ كانوا يجلسون علىٰ مقاعد، وأن التلاميذ أخذوا يسألون المدرس حتىٰ صلاة المغرب، ويبدو أن المدرسة كان بها مدرس واحد ومعه معيدان[(٢)].

ومن المدارس التي أسست في بغداد في حوالي منتصف القرن الخامس الهجري (١١م) مدرسة أبي حنيفة التي بناها شرف الملك أبو سعد

(١) القلقشندي: صبح الأعشي جـ ١٠ ص٢٩٢-٢٩٣.

(٢) Hitti, Hstory of the Arabs, pp. 410-411.




محمد ابن منصور العميد الخوارزمي للسلطان ألب أرسلان السلجوقي، وافتتحها سنة ٤٥٩هـ، وكان أول مدرس فيها هو أبو طاهر إلياس بن نصر.

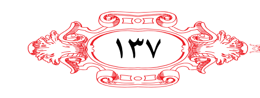
وقد أورد ابن الساعي توقيعًا صادرًا من المخزن المعمور في خلافة الناصر لدين الله في ٢١ ذي القعدة سنة ٦٠٤هـ يقضي بتعيين ضياء الدين أحمد بن مسعود التركستاني الحنفي مدرسا بمشهد أبي حنيفة ومدرسته وناظرًا في وقوفهما علىٰ أن يكون له الإشراف علىٰ قوام المشهد والمدرسة وعلىٰ خازن الكتب وأن يأخذ كل شهر علىٰ ذلك ثلاثين قفيزًا من الحنطة وعشرة دنانير.

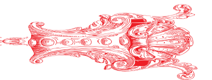
ومنذ منتصف القرن الخامس الهجري (١١م) أخذت المدارس تنتشر في الدولة السلجوقية: فأنشئت مدارس في خراسان والعراق وسوريا وآسيا الصغرىٰ علىٰ نمط المدرسة النظامية، وكانت المدرسة تقام فيها الصلوات وتشتمل علىٰ مساكن للطلبة، وكان تأسيس المدارس يعتبر في الإسلام من أعظم القربات إلىٰ الله، ومن ثم أقبل المسلمون علىٰ إنشاء المدارس والوقوف عليها تقربًا إلىٰ الله بنشر العلم والمذاهب السنية.

وربما كانت أقدم الكتابات الأثرية التي وصلتنا مشتملة علىٰ لفظة مدرس كتابة أثرية جنائزية من منبج مؤرخة بشهر ربيع الأول سنة ٥١٠هـ/ ١٢ أغسطس ١١١٦م باسم «الشيخ أمين ابن الشيخ أحمد المدرس المفتي».

ومن أقدم المدارس التي أنشئت في ذلك العصر وبقيت لنا منها آثار المدرسة المجاورة لجامع أورفا في تركيا، ويرجع تاريخها حسب ما جاء في بعض الكتابات الأثرية إلىٰ سنة ٥٢٧هـ/ ١١١٣م.

وقد وصلنا كتابة أثرية من عصر سلاجقة الروم من مدرسة المظفر بروجردي (البروجية أو حاجي مسعود) بسيواس بآسيا الصغري تتضمن وقفية شرط فيها الواقف «مدرسًا واحدًا وثلاثة من المعيدين وثلثين من الفقهاء





وأربعة من الحفاظ وإمامًا واحدًا ومؤذنًا وخازنًا واحدًا لخزانة الكتب من جملة ما وقف الواقف رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ هذه المدرسة المباركة من قرية أسكي من ناحية ايليكلو»[١].

ويتضح من هذه الكتابة الأثرية أن المدرسة كان بها مدرس واحد كان يعتبر بمثابة مديرها، وكان يساعده في التدريس ثلاثة من المعيدين.

وورث الأتابكة عن السلاجقة العناية بتأسيس المدارس: فامتدت المدارس في عهدهم إلىٰ الغرب فأنشئت مدارس في الموصل وأربل وسنجار ونصيبين وغيرها، كما أنشئت في سوريا حيث دخلت في صراع عقائدي مع المذهب الفاطمي والكنيسة الصليبية، وبانتصارها عليها تأكد نظام المدارس السنية[٢]، ومن المدارس السورية المشهورة المدرسة الأمينية بدمشق التي شيدت في سنة ٥١٤هـ وكانت تسمىٰ حق الذهب، وقد وصلنا تقليد بتعيين ابن خلكان مدرسًا بها في سنة ٦٧٩هـ، ووصلنا تقليد آخر بإعادة ابن خلكان نفسه للتدريس بها في سنة ٦٨١هـ.

وتولىٰ نور الدين محمود بن زنكي حركة تشييد المدارس سائرًا علىٰ نهج السلاجقة وفي عهده انتشرت المدارس في الشام والجزيرة، وأنشئت مدارس في دمشق وحلب وحماة وبعلبك وحمص والرقة والبصرة ومنبج وكان يفد إليها العلماء من نيسابور وبغداد وقرطبة وغرناطة ومراكش.

وأسس نور الدين في دمشق المدرسة النورية، وقد وصلنا كتابة أثرية منها بتاريخ شهر شعبان سنة ٥٦٧هـ/ أبريل سنة ١١٧٢م تتضمن إنشاء المدرسة بأمر هذا السلطان الذي «أوقف عليها وعلىٰ التربة التي بناها لنفسه

(١) CIA, Siwas, no. 20, pl. XLII.

(٢) Van Berchem, CIA, egypte, I, p. 263.

وعلىٰ المجاورين من الفقهاء والمدرسين والمتفقهين علىٰ مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه جميع البستان المعروف ببستان الجوزة في أرزة . . .».

ويتضح من هذه الكتابة أن نور الدين قد بني لنفسه ضريحًا بالمدرسة.

وبإنشاء نور الدين لنفسه ضريحًا بالمدرسة بدأ في سوريا فكرة الجمع بين الضريح والمدرسة، ولقد استقر هذا النظام في سوريا منذ ذلك الوقت، كما صار من التقاليد المتبعة في عصر المماليك الذي يعتبر من الناحية الفنية استمرارًا للعصر الأيوبي، وبمقتضاه صار مؤسس المدرسة يدفن تحت قبة بها.

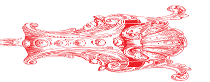
ويشتهر عهد نور الدين في مجال الدراسات الأثرية والفنية بظاهرة مهمة: ونعني بها الكتابات الأثرية التي تركها علىٰ مدارس في المدن السورية ذلك أنها تعتبر أقدم الكتابات الأثرية التذكارية التي حل فيها الخط النسخ محل الكوفي(١).

وورث صلاح الدين عن نور الدين نظام تأسيس المدارس، التي عمل هو وأسرته علىٰ نشرها في مصر وسوريا والجزيرة رغبة في نشر المذهب السني ومحاربة المذهب الفاطمي.

غير أن مصر كانت قد عرفت تأسيس المدارس قبل صلاح الدين ربما من باب التأثر بالمدارس السلجوقية ومن المعروف أنه قد أنشئ بالإسكندرية في عهد الفاطميين مدرستان: إحداهما أنشأها رضوان بن ولخشي وزير الخليفة الحافظ في سنة (٥٣٢هـ/ ١١٣٧م)، والثانية أنشأها العادل أبو الحسن علىٰ بن السلار وزير الخليفة الظافر في سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م، وقد قام علىٰ التدريس بها الحافظ السلفي، وكان من أعظم علماء الفقه

(١) Hitti, op. cit, p. 659-660.





والحديث، وقد أدركه صلاح الدين، وكان يحرص علىٰ سماع دروسه بالإسكندرية مع أولاده وأهله.

وأورد القلقشندي نسخة سجل بتدريس بالمدرسة الحافظية بالإسكندرية كتب به لأبي الظاهر أشير فيه إلىٰ إنشاء المدرسة الحافظية بأمر الخليفة الفاطمي، وإلىٰ موافقته علىٰ أن يكون ما يصرف عليها من عين وغلة مطلقًا من ديوان أمير الجيوش، كما أوصىٰ فيه الأمير والقاضي وكافة الحماة والمتصرفين والعمال المستخدمين بالإسكندرية برعاية المدرسة وطلبتها، كما أمر بأن يتلىٰ هذا المنشور بالمسجد الجامع، وأن يخلد بالمدرسة حجة بما تضمنه.

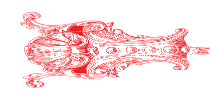
وفي عصر الفاطميين أيضًا أسس صلاح الدين المدرسة الناصرية والمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو بن العاص بمصر في سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، وكان لا يزال وزيرًا للعاضد الفاطمي، وخصص الأولىٰ للشافعية والثانية للمالكية[١].

وكان أول من ولي التدريس بالمدرسة الناصرية هو ابن زين التجار فعرفت به، ثم صارت تعرف بالمدرسة الشريفية نسبة إلىٰ الشريف القاضي شمس الدين الأرمودي قاضي العسكر، وكان قد درس بها أيضًا، وقد اشتهرت بهذا الاسم حتىٰ عصر المماليك.

وبانقراض الدولة الفاطمية توسع صلاح الدين في إنشاء المدارس بحيث صار بحق من أعظم بناة المدارس في الإسلام.

وفي سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٧م أمر بإنشاء المدرسة الصلاحية بجوار ضريح الإمام الشافعي، ومدرسة ثانية بجوار المشهد الحسيني، والمدرسة السيوفية

(١) حسن عبد الوهاب: نشأة المساجد ورسالتها ص٥.




للفقهاء الحنفية بالقاهرة أيضًا، وكانت أول مدرسة أوقفت عليهم كما أنشأ بالإسكندرية في سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م مدرسة وبيمارستان ودارًا للمغاربة.

وفي عهد صلاح الدين أسست في مصر مدارس أخرىٰ مثل المدرسة القطبية التي أسسها الأمير قطب الدين خسرو في سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م، والمدرسة الأرسوفية التي أسسها عفيف الدين عبد الله محمد الأرسوفي[(١)].

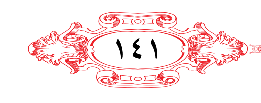
وفي عهد صلاح الدين أيضًا أصبحت دمشق بحق مدينة المدارس، ولقد أشار ابن جبير إلىٰ هذه الحقيقة حينما زارها في سنة ١١٨٤م إذ ذكر أنه عدد بها عشرين مدرسة.

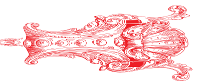
وما أن فتح صلاح الدين بيت المقدس حتىٰ حول كنيسة سانت آن إلىٰ مدرسة لتعليم الشريعة الإسلامية حسب المذهب السني، وقد كانت من قبل دار علم في عهد الفاطميين، وهكذا حدد صلاح الدين هدفه التعليمي وهو يتلخص في محاربة الصليبيين والشيعة.

واقتدىٰ بصلاح الدين من خلفه من أهله بمصر وسورية فتسابقوا إلىٰ إنشاء المدارس حتىٰ بلغ عددها في مصر في نهاية العصر الأيوبي خمسًا وعشرين مدرسة[(٢)]، كما أسست بسوريا مدارس كثيرة نذكر منها بدمشق المدرسة العادلية التي أنشئت في سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م في عهد سيف الدين أبي بكر، وبحلب المدرسة الظاهرية التي أنشئت في سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م والمدرسة السلطانية التي أسست في عهد الملك العزيز في سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م، ومدرسة الفردوس في عهد الملك الظاهر غازي في سنة ٦٣٣هـ، والمدرسة الشرفية في سنة ٦٤٠-٦٥٠هـ والمدرسة الكاملية وغيرها.

(١) حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ص٢٦٦.

(٢) حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ص٢٦٦.





وقد أورد القلقشندي نسخة توقيع أيوبي بتدريس مدرسة بحلب والنظر عليها والإشراف علىٰ أوقافها وسائر تعلقاتها[(١)].

وقد وصلنا كتابة أثرية بالنسخ الأيوبي بتاريخ سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م حول حنية باب المدرسة السلطانية بحلب وتعرف بالظاهرية تتضمن نص تعمير وإنشاء في أيام السلطان الملك الناصر محمد بن الملك الغازي بن السلطان الملك صلاح الدين باسم أتابكه وولي أمره وكافل دولته شهاب الدين أبي سعيد طغريل بن عبد الله الملكي الظاهري الذي أنشأها تكية وتربة وجعلها مدرسة للحنفية والشافعية ومقرًا للطلاب من الطائفتين «الذين يعينهم المدرس بها من الفريقين مشتملة علىٰ مسجد ومدفن السلطان الملك الظاهر ... وشرط فيها ... أن يكون المدرس شافعي المذهب» والإمام للصلاة في مسجدها شافعي المذهب وكذا المؤذن[(٢)].

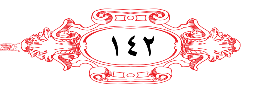
كما أشير إلىٰ سكنىٰ المدرس في كتابة أثرية أخرىٰ من هذا العصر بتاريخ سنة ٦٢٠هـ بالمدرسة الأتابكية (جامع الكلتاوية) بحلب تتضمن نص إنشاء ووقفية باسم أبي سعيد طغريل بن عبد الله الملكي الظاهري أشير فيها إلىٰ «مشهد لله تعالىٰ تقام فيه الصلوات الخمس، ويسكنه المدرس والفقهاء الحنفية علىٰ ما شرطه في كتاب الوقف ...».

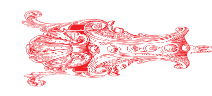
وفي عهد صلاح الدين الأيوبي أدخلت المدرسة لأول مرة بالحجاز، كما كان يعين مدرسون أيضًا بالحرم الشريف، وقد وصلنا كتابة أثرية جنائزية علىٰ شاهد بزلت من مكة بتاريخ ٤ ربيع الآخر سنة ٦١٤هـ/ ١١ يوليه ١٢١٧م باسم «الفقيه القاضي الإمام العالم الزاهد المدرس بالحرم

---

(١) صبح الأعشي جا١١ ص٣٤-٣٧.

(٢) محمد أسعد طلس: الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب ص٧٥ حاشية عن الطباخ ٤/ ٣٧٤.





الشريف محيىٰ الدين ناصر الشرع شرف القضاة قاضي الحرم الشريف والمفتي بها أبي جعفر أحمد بن الشيخ الصالح السعيد أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبري».

وفي العصر الأيوبي برز أحد الولاة المحليين كراع عظيم للمدارس ونعني به الملك مظفر الدين صاحب أربل المتوفي سنة ٦٣٠ هـ: إذ بنىٰ كثيرًا من المدارس بالإضافة إلىٰ دور الأيتام واللقطاء والأرامل وغيرها.

علىٰ أن حركة بناء المدارس قد استمرت حتىٰ أواخر الخلافة العباسية، وربما كانت أشهر المدارس التي أنشئت في أواخر العصر العباسي هي المدرسة المستنصرية التي أنشأها الخليفة المستنصر بالله العباسي في بغداد في سنة ٦٣١هـ/ ١٣٣٤م، وخصصها لتدريس المذاهب الأربعة، وهي المذهب الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي، وقد عين لكل مذهب مدرسًا من أشهر علماء العصر، وحدد لكل مدرس خمسة وسبعين طالبًا ومعلما للقرآن وآخر للحديث، وألحق بالمدرسة جامعة وخزانة كتب وميضأة وحمامات ومطابخ وبيمارستان، كما زودها بسعة عند المدخل، وخصص لكل مذهب إيوانا وكان المدرس يجلس علىٰ كرسي من الخشب عليه البسط تحت قبة صغيرة من الخشب، ويجلس علىٰ يمينه وشماله المعيدون ليعيدوا دروسه علىٰ الطلاب[١].

وتعتبر المدرسة المستنصرية أول مدرسة جمعت فيها المذاهب الأربعة، وكانت مدرسة الفقه تتوسط أقسام المدرسة، وكان بها الجامع.

ولم يقتصر التدريس في المستنصرية علىٰ الفقه بل شمل علوما أخرىٰ مثل النحو واللغة والحساب والمساحات ومنافع الحيوان وحفظ قوام الصحة وتصحيح الأبدان، وكان يتولىٰ تدريس كل منها مدرسون مشهورون، وقد

(١) ناجي معروف: علماء المستنصرية، المدرسة المستنصرية.

وصلنا اسم قمر الدين الحساب الذي رتب عند افتتاح المدرسة مدرسًا للحساب والفرائض بها.

وكان علم الطب من العلوم التي كانت تدرس بالمدرسة، وقد خصص له مبنىٰ خاص مواجه للمدرسة عبارة عن صفة تحت إيوان تم بناؤها في سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م، وكان أيضا بمثابة مستشفىٰ لعلاج مرضىٰ المدرسة، وقد وصلنا أسماء بعض مدرسي الطب بالمستنصرية.

وكان بالمستنصرية ساعاتيون يقومون بالإشراف علىٰ ساعات المدرسة، ومن أشهر هؤلاء نور الدين الساعاتي (٦٠١- ٦٨٣هـ) وكان مشتهرا بعلم الهيئة والنجوم وعمل الساعات.

هذا وقد نجت المستنصرية مثلها مثل النظامية من تخريب هولاكو وتيمورلنك ثم اندمجتا معًا في سنة ١٣٩٥م أي بعد غزو تيموولنك لبغداد بسنتين.

علىٰ أن حركة تأسيس المدارس قد ازدهرت ازدهارًا كبيرًا في دولة المماليك الذين نهجوا في ذلك نهج الأيوبيين، وقد تنافس سلاطين المماليك في إنشاء المدارس واقتدىٰ بهم أثرياء دولتهم حتىٰ بلغ مجموع ما أنشيء من مدارس بمصر وحدها حتىٰ منتصف القرن التاسع الهجري (١٥م) خمسًا وأربعين مدرسة بالإضافة إلىٰ المدارس الأيوبية وعددها خمس وعشرون.

وكانت المدارس في عصر المماليك طريقًا موصلة إلىٰ الوظائف الرفيعة في الدولة.

وكان تعيين المدرس يتم بمجرد الانتهاء من بناء المدرسة، وقد احتفظ المدرسون في هذا العصر بالمكانة الأدبية والسياسية التي وصلوا إليها من

قبل، وقد عنىٰ كتاب المصطلح المملوكي بوظائف التدريس، وحددوا الأوصاف والألقاب التي يجب أن يخاطب بها المدرس في مخاطباته، والوصايا والنصائح التي توجه إليه[١].

وكانت وظيفة المدرس في هذا العصر من الوظائف الدينية التي يشغلها علماء مدنيون، ولم يكن للمدرس مجلس يحضره السلطان، وكانت ولايات أكابر المدرسين في مصر تصدر عن السلطان: فكان السلطان هو الذي يعين المدرسين بالزاوية الخشابية أو الصلاحية بالجامع العتيق وبالمدرسة الصلاحية بتربة الإمام الشافعي بالقرافة، وبالمدرسة المنصورية بالبيمارستان المنصوري في بين القصرين، ودرس الجامع الطولوني.

وكانت وظيفة التدريس يشغلها في بعض الأحيان الأبناء محل آبائهم إذا كان هؤلاء الأبناء في مستوىٰ علمي مناسب، وقد حدث مثلا أنه بعد وفاة قاضي القضاء بدر الدين أبي البقاء -وكان من جملة وظائفه التدريس بالمدرسة الصلاحية المجاورة لتربة الإمام الشافعي- أن ولي هذه الوظيفة ابنه جلال الدين بتوقيع من السلطان[٢].

كما كان يجمع في كثير من الأحيان لعالم واحد بين التدريس ووظائف أخرىٰ: مثل وظيفة نائب الحكم العزيز، والقاضي أو قاضي القضاة، وشاهد الخزانة الخاص والمفتي وكاتب السر.

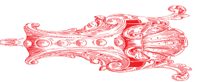
وعلىٰ نمط النظام المتبع في الديار المصرية سار التدريس في دمشق وغيرها من الممالك الشامية وكانت التولية فيها عن النائب بتواقيع كريمة غالبًا، أما التداريس الصغار فكانت التولية فيها عن النواب ولا يولىٰ فيها السلطان إلا نادرًا.

---

(١) السبكي: معيد النعم ص١٠٥-١٠٦.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشي جـ١١ ص٢٣٥.





واعتبر القلقشندي وظيفة التداريس الكبار في دمشق الوظيفة السادسة من بين الوظائف الدينية بها.

وعنىٰ العثمانيون أيضًا بإنشاء المدارس وأول من أسس المدارس في الدولة العثمانية هو السلطان أرخان[١]، ثم اقتدىٰ به سلاطين آل عثمان في ذلك، وأشهر المدارس العثمانية هي المدارس الثمانية التي أنشأها السلطان سليم.

وأنشئت المدارس في غرب العالم الإسلامي: ففي الأندلس أنشئت المدارس في قرطبة وإشبيلية وطليطة وغرناطة ومالقة وغيرها.

وبلغ عدد المدارس في مملكة غرناطة وحدها سبع عشرة مدرسة كبرىٰ ومائة وعشرين مدرسة صغرىٰ[٢]. غير أنه من المعتقد أن مدارس الأندلس لم تكن علىٰ غرار المدرسة النظامية.

ومهما يكن فقد انتشرت المدارس في بلاد المغرب والأندلس في عصر المرابطين والموحدين، وقد بلغت مدرسة فاس درجة عالية من حيث المستوىٰ والشهرة في تلك الفترة، كما اشتهر في المغرب مدارس سبتة وطنجة وأغمات وسجلماسة وتلمسان ومراكش، وفي الأندلس مدارس قرطبة ومرسية والمرية ودانية وأشبيلية وبلنسية وطرطوشة وغرناطة وبطليوس وشاطبة وسرقسطه وشلب.

واشتهر في غرب العالم الإسلامي عدد من المدرسين نذكر منهم القاضي عياض الذي ذاع صيته في أوائل القرن السادس الهجري (١٢م)، وكان من أشهر مدرسي مدرسة سبتة[٣].

---

(١) توفي سنة ٧٦١هـ.

(٢) Ameer Ali, Short History of the Saracens, p. 627.

(٣) دكتور حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٤٣١-٤٣٣.

واهتم بنو مرين ببناء المدارس متأثرين بالحماسة الدينية بحيث اعتبروا أعظم بناة المدارس في بلاد المغرب: ومن أشهر مدارسهم في فاس مدرسة الصفارين ومدرسة الصهريج، ومدرسة العطارين، ومدرسة بوعنانية.

وفي شرق العالم الإسلامي سار المغول علىٰ نهج السلاجقة والعباسيين فأنشأوا المدارس في بلادهم، وكانت المدرسة في عهدهم تخصص في الغالب لمذهبين معا.

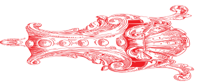
وارتبط بنشأة المدارس في العالم الإسلامي ظهور طراز خاص في العمارة الإسلامية هو طراز المدرسة.

ويبدو أن المدارس النظامية التي أسسها نظام الملك اتخذت طابعًا معماريًا متشابهًا، وعلىٰ الرغم من أننا لا نعرف علىٰ وجه التحديد تخطيط المدارس النظامية وتصميمها[1] فإنه من المحتمل أن عمارة هذه المدارس تأثرت بالإيوانات الساسانية، والحق أن الإيوانات الساسانية ظهر تأثيرها بشكل واضح في بناء المدارس العراقية والشامية والمصرية المتأخرة رغم خضوع كل منها للتقاليد المحلية: إذ كانت قاعاتها علىٰ هيئة إيوانات تفتح علىٰ صحن في الوسط، وتعلوها قبوات ضخمة نصف أسطوانية متكسرة.

ومن المتعذر تتبع تطور عمارة المدرسة في العراق نظرا لاختفاء آثار المدارس المبكرة، وإذا كان قد أمكن في الوقت الحالي ترميم المدرسة المستنصرية فإن المدرسة تمثل في الواقع أوج التطور المعماري للمدرسة العراقية: ذلك أنها كانت أولىٰ المدارس الإسلامية التي جمعت بها المذاهب الأربعة بالإضافة إلىٰ علوم أخرىٰ.

---

(١) ذكر ميرخويند وغيره من الكتاب أن النظامية في بغداد، كانت مبنىً عظيما Van Berchem, CIA, egypte I, P,265.



أما مدارس سوريا فكانت في معظم الأحيان تخصص لمذهب واحد وفي بعض الأحيان لمذهبين، هما الشافعي والحنفي، وفي حالة المذهب الواحد كانت المدرسة تشتمل علىٰ مصلىٰ وبهو مستطيل بواجهته ثلاث بوائك، وفي وسطة نافورة، وقلما وجد في جهة من جهات البهو أكثر من قاعة واحدة متسعة أو إيوان، أما في حالة المذهبين فكانت المدرسة تشتمل علىٰ إيوانين متقابلين يحف بهما من الجانبين غرف للطلبة.

وكانت المدارس السورية عبارة عن شكل رباعي قائم الزوايا موجه نحو القبلة، ومن النادر اشتمالها علىٰ مئذنة علىٰ عكس المدارس المصرية، ومنذ نور الدين صارت المدرس السورية تشتمل علىٰ ضريح مؤسس المدرسة وبذلك بدأت هذه المدارس تقليدًا اتبع في عصر المماليك كما سبق أن أوضحنا.

أما في مصر فكانت معظم المدارس الأيوبية التي بدأ بتأسيسها صلاح الدين مخصصة لتدريس مذهب واحد: إما الشافعي أو المالكي أو الحنفي، وذلك فيما عدا المدرسة الكاملة التي كان يدرس بها الحديث والتي بقيت بعضا آثارها وقد تأثرت المدارس المصرية بطبيعة الحال بالمدارس السورية.

وكانت المدارس المصرية في الغالب تشتمل علىٰ إيوانين متقابلين بينهما فناء ويرتبطان معًا بواسطة غرف متصلة، ومن المحتمل أن الإيوان القبلي كان يستعمل كمسجد إذا كانت المدرسة لمذهب واحد، في حين يستخدم الإيوان الآخر للتدريس، أما إذا كانت المدرسة لمذهبين فكان الإيوان القبلي يستخدم كمسجد عندما يحين وقت الصلاة فقط، وكقاعة للدرس بين مواعيد الصلوات، كما يتضح من وجود ثلاث محاريب في الإيوان القبلي بالمدرسة الصالحية، ومن الإشارة إلىٰ وجود محراب بالإيوان

القبلي بالمدرسة الظاهرية، وفيما عدا استثناءين اثنين لم نزود المدارس المصرية بمساجد ذات طراز خاص.

وعلىٰ عكس المدارس السورية اشتملت المدارس المصرية علىٰ مئذنة تعلو مدخل المدرسة مما يرجح تأثر المدرسة المصرية بعمارة المساجد(١).

وبتأسيس المدرسة الصالحية في سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م لتدرس بها المذاهب الأربعة لأول مرة في مصر صارت المدرسة تشتمل علىٰ أربعة إيوانات، وقد أنشأ الملك الصالح هذه المدرسة علىٰ قطعة أرض كانت جزءا من القصر الشرقي الفاطمي يتشمل علىٰ أحد أبوابه وهو باب الزهومة، وكانت المدرسة تتكون من قسمين علىٰ يمين وشمال الداخل من الباب الرئيسي، ويتوسطها صحن كبير، وكان بكل قسم إيوانان.

ولم يتبق من مباني هذه المدرسة غير واجهتها التي تشتمل علىٰ المدخل الرئيسي وتعلوه المئذنة، ويبقىٰ من الجزء الشمالي الإيوان الغربي وهو ملاصق لضريح السلطان الصالح، وأجزاء قليلة من الإيوان الشرقي، أما القسم الجنوبي فلم يبق منه سوىٰ الواجهة(٢).

وفي عصر المماليك صارت معظم المدارس المصرية تدرس فيها المذاهب الأربعة مما أدىٰ إلىٰ ظهور المدارس ذات الإيوانات المتعامدة كما هي الحال في مدرسة السلطان حسن ومدرسة زين الدين يوسف: إذ صارت المدرسة تشتمل علىٰ أربعة إيوانات متقابلة تكون تخطيطًا متعامدًا، وكان إيوان المحراب هو أكبر هذه الإيوانات، في حين كان الإيوانان الجانبيان هما أصغرها، وكان يتوسط الإيونات صحن مكشوف به قبة الفسقية، وكان يلحق بها مدفن مؤسس المدرسة علىٰ نمط

---

(١) Creswell, The Muslim Architeeture of Egypt, Vol, II, Chapter VI,

(٢) شحاته عيسىٰ: القاهرة ص١١٧.

المدارس السورية والأيوبية، وسبيل يعلوه كتاب بالإضافة إلىٰ مساكن للطلبة، وفي حالة المدرسة ذات الحجم الصغير كان الصحن يغطىٰ، كما كان يستغنىٰ عن الفسقية وعن قبتها في وسطه، وقد أثر طراز المدرسة ذات الإيوانات الأربعة علىٰ تصميم المساجد المصرية في القرن التاسع الهجري (١٥م) بحيث شيدت كثير من المساجد علىٰ مثال المدرسة دون أن تكون مخصصة للتدريس[١].

ولقد اختلف العلماء بصدد أصل الطراز المتعامد في المدرسة المصرية: إذ يعتقد فان برشم مثلا أن هذا الطراز متأثر بصفة أساسية بالكنائس البيزنطية ذات التخطيط الصليبي في حين يؤكد كرزول أنه متطور عن نظام البيوت المصرية الإسلامية.

ومن مصر انتقل نظام المدارس السنية إلىٰ المغرب الأدنىٰ ومن ثم انتشر في كافة أنحاء المغرب، وظهرت المدارس في المغرب الأقصىٰ بعد ثلاثين سنة من ظهورها في المغرب الأدنىٰ.

واشتقت المدرسة المغربية تصميمها من عمارة الأربطة إذ كانت تتألف من صحن مركزي يتوسطه حوض، وتحيط به من الشمال والشرق والغرب غرف صغيرة ضيقة أعدت لإقامة الطلبة، أما الجهة القبلية التي كانت تقع عادة قبالة المدخل الرئيسي فكانت تشتمل علىٰ المصلىٰ، وكانت ذات أسقف هرمية، وكانت المدرسة المغربية تشتمل في معظم الأحيان علىٰ مئذنة كما كانت الحال في المدارس المصرية.

غير أن المدرسة المغربية كانت تختلف عن المدرسة المصرية والسورية من حيث عدم احتوائها علىٰ ضريح[٢].

(١) Creswell, op. cit.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: مدارس فاس ٢٠١-٢٠٧.

وفي شرق العالم الإسلامي أسس المغول في دولهم مدارس علىٰ طراز المدارس السلجوقية، وكانت المدرسة المغولية تخصص غالبًا لمذهبين معًا مما أدىٰ إلىٰ ظهور عمارة المدرسة المزدوجة.

وإذا كانت المدارس هي معاهد الدراسات التخصصية والعليا فقد عرف العالم الإسلامي معاهد تعليم الأطفال والصغار من الذكور والإناث وقد اصطلح علىٰ تسميتها بالكتاتيب، وكان الكتاب يبنىٰ في عصر المماليك حسب طراز معماري معين ولا يزال بعض الكتاتيب المملوكية باقيًا حتىٰ اليوم.





البَابُ الثَّالِث
المجتمع الإسلامي

لم يعن المؤرخون الإسلاميون كثيرًا بدراسة المجتمع الإسلامي، وحياة السكان اليومية وأجناسهم ومدىٰ اختلاطهم، إذ كان جل همهم منصرفا نحو أمور البلاط وأحوال السياسة وأخبار الحروب، ومن ثم كان علىٰ دارس المجتمع الإسلامي أو الحياة الاجتماعية أن يتبسط حقائقه مما يرد من إشارات في الكتب المختلفة من تاريخية وأدبية ودينية سواء أكانت علىٰ هيئة أمثال أم قصص أم غيرها، وكذلك في ضوء ما وصلنا من آثار أو منتجات فنية.

ومهما يكن من أمر فقد كان المجتمع الإسلامي يتألف من طبقات يقوم علىٰ رأسها الخليفة ثم أفراد أسرته وأدنىٰ منهم كبار الموظفين ثم أتباع هؤلاء جميعًا من جند وحرس وندماء وموال وخدم، وكان كثير من الخدم من الرقيق الذين ينتمون في أصلهم إلىٰ شعوب غير مسلمة.

وبالإَضافة إلىٰ هذه الطبقات التي تمثل الفئة الحاكمة وجدت طبقات الشعب وهذه تنقسم بصفة أساسية إلىٰ فئتين: عليا ودنيا، أما الطبقة العليا فكانت تشمل العلماء ورجال الدين والتجار والصناع وأهل الفن، وأما الطبقة الدنيا فكانت تشمل أصحاب المهن المتواضعة كالشيالين والسقائين والفلاحين والرعاة وأشباههم وكان للعلماء مركز مهم سواء عند العامة أو الخاصة، كما تمتع بعض التجار بالثراء والجاه، أما الصناع فكانت سمتهم الغالبة الإتقان والإجادة كما يتضح مما وصلنا من إنتاجهم[١].

ومن حيث التميز الديني فقد وجد إلىٰ جانب المسلمين طوائف أخرىٰ من ديانات مختلفة: من النصارىٰ واليهود والصابئة[٢]، وكان لهم حق أداء شعائرهم الدينية، كما نعموا بالرخاء، وشغلوا كثيرًا من الوظائف حتىٰ العليا

(١) دكتور حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي جـ٢ ص٣٩٥-٣٩٨.

(٢) متز: الحضارة الإسلامية جـ١ ص٥٨-٦٣.

منها، ويختلف العالم الإسلامي في ذلك عن الدول المسيحية التي لم تسمح في الغالب بوجود مسلمين بينهم.

أما من حيث الجنس فمن المعروف أن الدولة العباسية استعانت بالعنصر الفارسي سواء في قيامها أو في إدارة شئونها، ومن ثم وجد إلىٰ جانب العنصر العربي الذي كانت له السيادة المطلقة في العصر الأموي عنصر آخر هو العنصر الفارسي، وقد برز الفرس في شتىٰ نواحي المجتمع العباسي، وتقربوا إلىٰ الخلفاء: فكان منهم كبار رجال الدولة سواء في السياسة أو الجيش أو الإدارة، ووجد تنافس بين العنصرين: العنصر الفارسي الذي كان يحاول أن تكون له السيطرة، والعنصر العربي الذي كان يناضل في سبيل الاحتفاظ بمكانته السابقة، ثم لم يلبث أن ظهر عنصر ثالث منذ عهد المعتصم: هو العنصر التركي الذي استطاع أن يغتصب من كلا الفرس والعرب أهم المناصب في مجال الحكم والحرب.

ومع ذلك فقد أدت تعاليم الإسلام إلىٰ الجمع بين هذه العناصر ومزجها معًا في بوتقة الإسلام والعروبة.

كما حدث تزاوج بين الأجناس المختلفة بفضل التسري أو اتخاذ الإماء، وفي حين كان خلفاء بني أمية يحرصون علىٰ المحافظة علىٰ نقاء الجنس العربي حتىٰ أن جميع خلفائهم قبل يزيد الثالث وهو الخليفة الثالث عشر- كانوا أبناء عربيات، كان جميع خلفاء بني العباس أبناء أمهات غير عربيات فيما عدا ثلاثة فقط: هم السفاح والمهدي والأمين.

وليس من شك في أن أفراد الشعب قد تأسوا بخلفائهم: فوجد التزاوج بين الأجناس المختلفة، وساعد علىٰ ذلك كثرة الأجناس الخاضعة للدولة الإسلامية وسهولة الاتصال بينهم: إذ لم تكن هناك حواجز سياسية بالإضافة إلىٰ تجارة الرقيق التي ساعدت علىٰ الامتزاج بين الأجناس وكان

من نتيجة ذلك أن كثر الهجناء من أبناء الإماء، وقد أدىٰ ذلك إلىٰ أن ضعفت العصبية العربية التي كانت عماد الدولة الأموية، وحل محلها طبقة من الموظفين من جنسيات مختلفة، وغلب علىٰ هذه الطبقة في أول الأمر العنصر الفارسي، ثم حل محله فيما بعد العنصر التركي والديلمي.

وكان للمرأة دورها في الحياة الاجتماعية وقد نقل التاريخ أسماء بعض نساء من الحرائر والرقيق كان لهن نصيب في المجتمع الإسلامي ومن هؤلاء زبيدة زوج الرشيد التي شاركت الخليفة مجده وعظمته حتىٰ في القصص.

وكانت بطريقتها في الحياة وزيها ومقتنياتها وتحفها الثمينة مصدرًا لتقاليد الزي والتزين والتزيين في عصرها: إذ كان المترفات من النساء يحرصن علىٰ تقليدها، ومما يذكر في ذلك أن النساء قلدنها في اتخاذ الخفاف المرصعة بالجوهر واستعمال شمع العنبر.

ومنهن أيضًا علية والعباسة ابنتا المهدي والثانية بطلة نكبة البرامكة عند بعض الباحثين وكانت علية قدوة للنساء في اتخاذ العصابة المطرزة بالجوهر وكانت قد استعملتها أصلًا لتخفىٰ عيبًا في جبينها.

أما الجوراي من النساء فكان لهن دورهن في رفاهية المجتمع[١]، ولا سيما النابهات منهن فكان منهن الشاعرات والمغنيات اللاتي يحيين مجالس السمّر والطرب واللهو، وكانت الجارية التي تجيد الغناء تسمىٰ قينة.

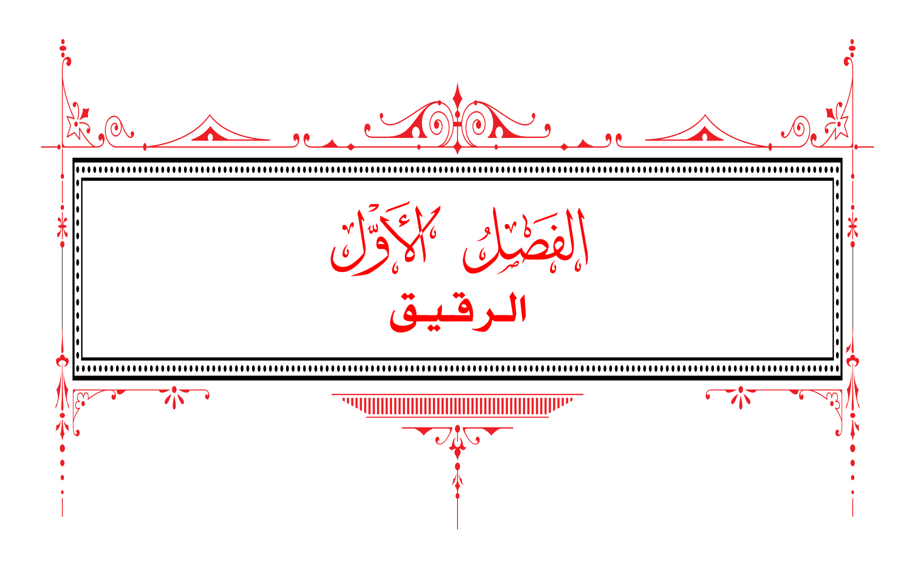
ومن الإماء اللاتي حظين بالذكر في الأخبار محبوبة جارية جعفر المتوكل وكانت بارعة في الفنون والأدب ومجيدة للشعر كما كانت رواية ظريفة وتتقن الغناء، وكانت ذات حظوة عند الخليفة، وبلغ من إخلاصها له

(١) جرجىٰ زيدان: التمدن الإسلامي جـ٢ ص١٣٦، جـ٤ ص١٩، جـ٥ ص٢٨.

أنها بعد أن قُتل المتوكل وتفرقت جواريه وصارت محبوبة إلىٰ الوصيف الكبير امتنعت من الغناء، وحين ألح عليها سيدها الجديد أن تطربه غنت بما يلي:

أي عـــيـــش يـــلـــذ لـــي ... لا أرىٰ فـــيـــه جـــعـــفـــرا
كـــل مـــن كـــان ذا ضـــنـــىٰ ... وســـقـــام فـــقـــد بـــرا
غـــيـــر مـــحـــبـــوبـــة الـــتـــي ... لـــو تـــرىٰ الـــمـــوت يـــشـــتـــرىٰ[1]

(١) ابن قيم الجوزية: أخبار النساء، بيروت ١٩٦٤، ص٦٤.



الرقيق نظام اجتماعي قديم جدًا خفف الإسلام من قسوته ومهد لإلغائه، وقد اعترفت الدولة الإسلامية بهذا النظام شأنها شأن غيرها من الدول المعاصرة لها أو السابقة عليها، وزادت العناية في هذه الدولة بتنظيمه والإشراف عليه، وصار للرقيق فيها دور مهم سواء في الدولة أو في المجتمع، وكان من حسن معاملة الرقيق فيها أن تهيأت الفرصة لطبقة الرقيق أن تكون لها السلطة العليا في الدولة في كثير من الأحيان.

وأخذ دور الأرقاء يعظم منذ عهد المعتصم حين استكثر من شراء الغلمان من الأتراك وأدخلهم في خدمته كحرس خاص له ثم استفحل أمرهم: فصاروا يكونون الجزء الأكبر من الجيش، وأخذوا يستبدون بإدارة الدولة حتىٰ استولوا علىٰ السلطة دون الخلفاء(١).

وبلغ نفوذ المماليك شأوًا في الدول الإسلامية حين استولىٰ السلاجقة علىٰ السلطة وصار مماليكهم من الأتراك عماد جيوشهم وحكومتهم،

(١) متز: الحضارة الإسلامية جا ص٢٦٨.

وبالرغم من الأصل الرق للمملوك فقد كان ذا مركز ممتاز ولم يكن ينقصه عن الأحرار شيء في الحياة العامة إن لم يكن مميزًا عنهم.

وكثيرًا ما كان المملوك يحصل علىٰ حريته، إما بأن يمنحها أو يشتريها أو يغتصبها علىٰ أن العتيق الذي حرر لم يكني يمتاز عن المملوك بشيء في الحقوق الاجتماعية أو الحياة العامة.

ومن بين هؤلاء المماليك أو العتقاء ارتفعت طبقة الأمراء الذين أسند إليهم قيادة الجيش والإشراف علىٰ أهم المناصب الإدارية، ووزعت عليهم الإقطاعات لتسديد نفقاتهم.

ومن بين الأمراء ظهرت الأتابكة[١] الذين انتهىٰ بهم الأمر إلىٰ حكم ولايات الدولة السلجوقية لحسابهم وحساب أسرهم من بعدهم.

واستمر المماليك يزداد نفوذهم شيئًا فشيئًا في العالم الإسلامي حتىٰ استطاعوا أن يصلوا بأنظمتهم إلىٰ غايتها حين حكموا مصر، وبعثوا الخلافة العباسية فيها من جديد لخدمة مطامعهم السياسية ولإقرار سلطانهم، وإكسابه الصبغة الشرعية، ومن ثم ادعوا أحقيتهم في السيادة في العالم الإسلامي بأجمعه.

هذا وقد وجد نوع من الرقيق عرفوا أحيانًا باسم الطواشية[٢]، وهم الخصيان من الغلمان ونظرًا إلىٰ أن الإسلام قد حرم هذا الإجراء فإن تجار الرقيق كانوا يجلبون بعض الرقيق إلىٰ العالم الإسلامي بعد إخصائهم.

وكان الطواشية يقومون بدون مهم في البيت الإسلامي: إذ كان يسند إليهم خدمة الحريم وحراستهم، ومن ثم كانوا يتمتعون بحظوة كبيرة عند رب

(١) ابن بطوطة: جـ٢ ص٢٥٨.

(٢) دكتور حسن الباشا: الألقاب الإسلامية ص٣٨٢.

البيت وحريمه، كما كانوا يطلعون علىٰ أسرارهم جميعًا، وكان كبير الطواشية يلقب بالأستاذ: ومن أمثلة هؤلاء كافور الذي صار يلقب بالأستاذ حين عظم أمره في زمن أنوجور في الدولة الإخشيدية في مصر، ومما تجدر الإشارة إليه أن كافور ظل محتفظًا بلقب الأستاذ حتىٰ بعد أن أتاه التقليد بالولاية من الخليفة المطيع في الحرم سنة ٣٥٥[١].

ومن لقب الأستاذ تفرع لقب أستاذ الدار الذي حور إلىٰ استادار وهو المشرف علىٰ دار الخليفة والعامل علىٰ مراعاة الآداب فيها، وربما أسند إليه الحجابة أو بعض الأعمال الكتابية كما عرف أيضًا لقب أستاذ الأستاذين أي كبيرهم، وقد أطلق علىٰ غبن في عهد الحاكم في الدولة الفاطمية في مصر.

أما الإماء أو الجواري وهن أناث الرقيق فلم يكن دورهن في المجتمع العباسي يقل عن دور الذكور، بل ربما زاد كثيرًا.

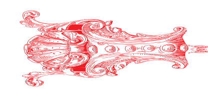
وأصل الجواري هو ما يسبيه الفاتحون في الحرب من النساء والبنات إذ يصرن ملك الفاتحين مهما علا شأنهن: يستخدمونهن أو يستولدونهن أو يبيعونهن أو يهدونهن أو يعتقونهن.

وقد لعب الجواري دورًا مهما في التاريخ والمجتمع العباسي: إذ صار بعضهن أمهات الخلفاء والسلاطين والأعيان، كما نال بعضهن حظوة كبيرة عند أسيادهن، ومنهن من صارت من السلاطين مثل شجر الدر.

وحظي بعض الجواري بإعزاز أسيادهن كما يشهد بذلك وجود شواهد قبور خاصة ببعض الإماء.

---

(١) دكتورة سيدة كاشف: مصر في عصر الأخشيديين ص ٦٧-١٠١.




كما أن بعض الجواري صرن علىٰ جانب كبير من الثراء بحيث استطعن أن يشيدن عمائر يوقفنها علىٰ أعمال الخير[(١)].

ونظرًا إلىٰ أن الجواري كن أكثر تحررًا من حيث اللباس والاختلاط والتبرج فقد تهيأت لهن فرص المشاركة في الحياة الاجتماعية أكثر من غيرهن من الحرائر، ونال كثير من الجواري حظًا وافرًا من العلم، وبرعن في الفنون والآداب والصناعات، وكان التجار يحرصون علىٰ تزويدهن بكثير من الخبرات رغبة في زيادة قيمتهن، ومن ثم كان للجواري أثر كبير في التقدم الاجتماعي والفني والثقافي والصناعي.

كما يجب ألا يغفل أثرهن في مزج الأجناس والتقريب بين الثقافات وتعليم اللغات الأجنبية: وذلك لأنهن كن من أجناس وقوميات مختلفة.

وكان الجواري أحيانا عرضة لغيرة الزوجات الحرائر، ولأمر ما كان الزوج أحيانًا يوافق في عقد الزواج علىٰ أن يكون أمر جواريه بيد زوجته، إن شاءت باعتهن وإن شاءت أعتقتهن: ومن أمثلة ذلك ما جاء في عقد زواج مؤرخ بالعشر الأواخر من جمادي الآخر سنة ٢٧٩هـ علىٰ ورقة بردي من أشمون بمصر محفوظة بدار الكتب المصرية ومما جاء فيه:

«هذا ما أصدق يعقوب بن إسحاق بن يحيىٰ النساج الساكن مدينة أشمون هنيدة ابنة إسحاق بن سري.. وشرط لإسحاق بن سري شروطًا أوجبها علىٰ نفسه بعد أن عقد عقدة نكاحها... كل جارية يتخذها عليها ... يكون بيعها بيد امرأته هنيدة إن شاءت عتقت وإن شاءت بيعت فعتقها وبيعها جائز عليه ولازم له»[(٢)].

(١) Van Berchem, lnschr, aus Syrien, ZDPV, XIX, p. 105. Pl. V: Wiet, steles Funeraires, I, pl, XVI.

(٢) جورهمان: أوراق البردي العربية ص٨٨-٩٢، رقم ٤١، لوحة ٣.

وكان النساء يتخذن أيضًا جواري لهن، وكانت السيدة الحرة حرة التصرف في جاريتها إن شاءت أعتقتها أو أهدتها أو باعتها.

وكان للجواري أحيانًا دور في المؤامرات السياسية: فمثلا كن يستخدمن في أعمال التجسس أو التفريق والإيقاع بين الخصوم أو التخلص منهم: إذ قد تدرب جارية تمتاز بالذكاء والجمال وتهدىٰ إلىٰ وال قد تستطيع بجمالها ودهائها أن تنال حظوة لديه، وبذلك يسهل عليها أن تعرف أسراره وتنقلها إلىٰ سيدها الأول.

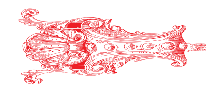
وقد يطلب منها أن تعمل الحيلة لتقريب شقة الخلاف بينهما، أو تكلف بأن توقع بين مولاها الجديد وبين عدو آخر لسيدها الأول، ومن هنا كان الجادون من الولاة ينصرفون عن الجواري.

وعرف في بعض عصور الدولة العباسية من الجواري نوع سمي بالجواري الغلاميات: وهن اللاتي كن يلبسن ملابس الغلمان، ويقال إن زبيدة هي أول من اتخذت الجواري الغلاميات وأنها اتخذتهن لابنها الأمين(١).

وقد تتزوج الأمة من حر أو عبد، غير أن الأولاد الذين تنجبهم كانوا يصبحون عبيدًا لسيدها، وكان من حق الزوج العبد أن يطلق زوجته الأمة، ويصبح طلاقها بلا رجعة بعد الطلقة الثانية، وكانت عدة الأمة سواء كانت أرملة أم مطلقة هي نصف عدة الحرة، وإذا أنجبت الأمة من سيدها صارت أم ولد، وكان إنجاب الأمة من سيدها يمنحها حقوقا معينة فالبرغم من أنها تظل ملكًا له يستمتع بها فإنه كان لا يجوز بيعها أو إهدائها وإذا مات عنها صارت حرة، كما كان طفلها يعتبر حرًا منذ ولادته.

---

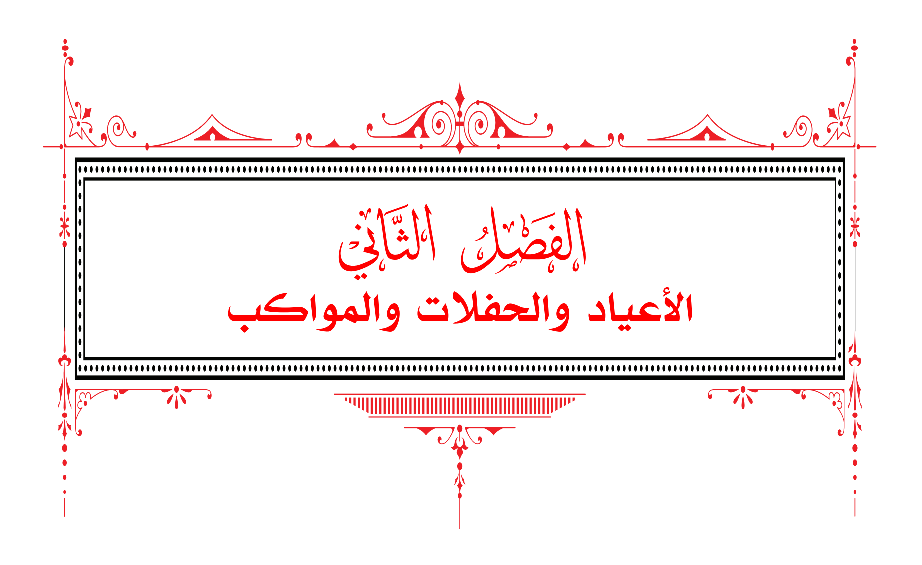
(١) المقريزي: سلوك جـ١ ص١٦ حاشية.




وكان أمهات الولد يحظين في معظم الأحوال بتقدير وإجلال، ولا عجب في ذلك فإنهن قد أنجبن لأسيادهن من جهة، وأصبحن أمهات أبنائهم من جهة أخرىٰ ويتضح هذا الإعزاز من كثرة الشواهد الجنائزية التي وصلتنا بأسماء أمهات الولد.

وتمتع بعض أمهات الولد بألقاب الحرائر من زوجات الخلفاء والسلاطين وذلك بفضل إنجابهن أولادًا أحرارًا، وقد وصلنا كتابة أثرية بوقفية من مكة من حوالي سنة ٥١٢هـ وردت فيها الإشارة إلىٰ «الجهة الكريمة رزين ابنة عبد الله أم ولد الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه»[١].

(١) Repertoire Chronolegicque depigraphie Arabe, VIII, p. 120-121 ne. 2977.



الفصل الثاني
الأعياد والحفلات والمواكب

حفلت الدولة الإسلامية بكثير من الرسوم والمظاهر الاجتماعية، وكان من ضمن العناية بالمظاهر فيها الاهتمام بالأعياد والحفلات والمواكب وتنظيمها حسب قواعد معينة وأنظمة محددة يتقيد بها الموكب أو الاحتفال، وأطلق علىٰ هذه الأنظمة التي يجب مراعاتها في احتفالات الدولة اسم الرسوم وقد ألف هلال الصابي كتابا فيها عنوانه رسوم دار الخلافة(١)، وقد تميزت رسوم الدولة العباسية بالبذخ والترف فضلا عن التكلف والمبالغة في الإتقان والتنظيم.

*** ويمكن تقسيم الرسوم إلىٰ الأنواع الرئيسية الآتية:**

* أولًا- الأعياد والاحتفالات الدينية:

وقد رضخ الاهتمام منذ الدولة الإسلامية باحتفالات وأعياد ترتبط ارتباطا وثيقًا بطبيعة الخلافة العباسية التي كانت بصفة خاصة ذات طابع ديني، وقد تعددت أنواع الأعياد الدينية وكان أهمها ما يلي:

---

(١) نشره ميخائيل عواد في سنة ١٩٦٤.

(١) أعياد إسلامية.

(٢) أعياد دينية مذهبية.

(٣) أعياد تتعلق بديانات غير إسلامية.

(٤) أعياد تقليدية تتصل بعبادات الشعوب القديمة التي خضعت للدولة الإسلامية.

(١) الأعياد الإسلامية:

وكان أهمها عيدين ينبعثان من التعاليم الإسلامية نفسها: وهما عيد الفطر المبارك وعيد الأضحىٰ ويرجع الاحتفال بهذين العيدين إلىٰ عهد النبي ﷺ وإلىٰ تعاليم الإسلام، وكان الاحتفال بالعيد يبدأ بصلاة العيد حيث يجتمع المسلمون في المدينة في مكان واحد فسيح وكان الخليفة يؤمهم ويلقي عليهم خطبة العيد، وبعد الصلاة ينصرف المسلمون إلىٰ منازلهم حيث يتقربون إلىٰ الله بالأضاحي في العيد الكبير أما في عيد الفطر فكانوا يتصدقون بزكاة الفطر قبل صلاة العيد.

وكان الاحتفال بالأعياد في الثغور[١] الإسلامية يتسم بروعة بالغة ففي هذه الثغور كان يجتمع المجاهدون الذين كانوا يرابطون فيها لجهاد أعداء الدين وكان المسلمون يرسلون إليهم الهدايا في مناسبة الأعياد تكريما لهم وتقربا إلىٰ الله.

---

(١) هي البلاد التي علىٰ الحدود بين الدولة الإسلامية وما جاورها من الدول أخذا من الثغر وهو السن لأنه كالباب علىٰ الحلق.

دكتور حسن الباشا: الألقاب الإسلامية ص٤٤٩.

وكان من مظاهر الأعياد لبس الجديد والتصدق علىٰ الفقراء والتزاور، وكان المسلمون ينتهزون فرصة العيد ليروحوا عن أنفسهم بالتسلية واللهو والإقبال علىٰ أنواع خاصة من الأطعمة.

ومن الأعياد الإسلامية التي احتفل بها في الدولة العباسية الاحتفال بأوقات معينة مفضلة عن غيرها مثل أول رمضان وأول العام الهجري والمولد النبوي الشريف وليلة النصف من شعبان وليلة الإسراء وليلة القدر ... ومن الملاحظ أن هذه الأعياد لا يستند الاحتفال بها إلىٰ أساس من القرآن أو السنة، وربما أضيف إليها أيضا الاحتفال بذكرىٰ مولد الخليفة القائم.

(٢) الأعياد الدينية المذهبية:

ومن أمثلتها احتفال الشيعة بيوم عاشوراء وبيوم غدير خم (١٨ ذي الحجة).

(٣) أعياد الطوائف غير الإسلامية:

ومن أمثلتها أعياد النصارىٰ واليهود، وكانت الدولة تسمح لهم بالاحتفال بها.

(٤) الأعياد التقليدية:

وكانت هذه الأعياد ترجع إلىٰ التقاليد الفارسية إذ أدخل في المجتمع الإسلامي الاحتفال ببعض الأعياد الفارسية القديمة: ومن أهمها النوروز وهو عيد العام الجديد ويقع في أول الربيع ودخول الشمس في برج الحمل: وكان المسلمون قد أبطلوا الاحتفال بهذا العيد في بلاد الفرس بعد فتحها،

ولكنه أعيد في العصر العباسي، وكان من عادة الفرس في هذا العيد تبادل الهدايا وبخاصة أنواعًا من الأطعمة مثل السكر والحلوىٰ.

وتجدد في العصر العباسي أيضًا الاحتفال بعيد فارسي ثان هو المهرجان وكان يسمىٰ عند الفرس «روزمهر»، وكان موعده نهاية العام كما احتفلوا بعيد آخر اسمه «الرام»، وقد اعتبرت هذه الأعياد في العصر العباسي أعيادًا رسمية.

* ثانيًا- المواكب:

اهتمت الدولة منذ العباسيين اهتماما خاصًا بالمواكب وذلك جريًا علىٰ عادتهم من حيث الاهتمام بالرسوم والمظاهر، وأهم مواكبهم المواكب التي كان يشترك فيها الخليفة، وقد جرت العادة أن يأخذ موكب الخليفة مظهرًا حربيًا، وكان من التقاليد المتبعة في هذه المواكب ظهور الخليفة بشعارات خاصة أو علامات خاصة هي البردة والخاتم والقضيب[(١)]. هذا وقد كان الخلفاء يخرجون في مناسبات مختلفة منها.

(أ) **مواكب الجمع**: وكان الخليفة يخرج لصلاة الجمعة في موكب فخم إذ كان الحرس من مختلف الطبقات يسيرون في المقدمة وهم يحملون الأعلام ويأتي بعدهم أمراء بيت الخلافة علىٰ ظهور الخيل المزادنة، ثم الخليفة وهو يمتطي جوادًا أبيض وحوله كبار رجال الدولة، وجرت العادة أن يلبس الخليفة العباسي في هذا الموكب قباء أسود، ويضع علىٰ رأسه قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة غالية، وبيده قضيب

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ٢١٠ و٢٤٢و ٢٦١.

الخلافة وبأصبعه خاتم، ويتدلىٰ علىٰ صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر النفيسة، وكان الهادي هو أول من أدخل هذا النظام، وكان من الرسوم المتبعة أن يضرب علىٰ باب قصر الخلافة في بغداد بالطبول والدبادب والأبواق في أوقات الصلاة.

(ب) **مواكب الحج**: جرت العادة أن يخرج الحجيج كل عام في موكب علىٰ رأسه الخليفة أو من ينوب عنه، ومن الملاحظ أنه لم يخرج خلفاء من ذلك القطر، وكان أعظم هذه المواكب موكب بغداد حيث كان يجتمع كثير من المسلمين الراغبين في الحج القادمين من الأقطار الشرقية: العراق وفارس وخراسان، وكانوا يحملون معهم زادهم وتخرج معهم مجموعة من الجند لحراستهم، وكان يتقدم موكب الحج هوادج يعلوها قباب مزينة بالديباج المطرز بالذهب يقيم في أحدها أمير الحج.

وقد عرفت وظيفة أمير الحج منذ عهد النبي ﷺ: إذ كان ينيب عنه أحيانًا عند الضرورة أحد الصحابة في رئاسة المسلمين الذاهبين إلىٰ الحج(١)، وسار الخلفاء والولاة علىٰ هذه السنة: فكانوا يعينون نوابًا عنهم يرأسون الحجيج الخارج من أقطارهم إلىٰ بيت الله الحرام، وعرف هؤلاء في الدولة الإسلامية باسم أمراء الحاج.

---

(١) ديمو مبين: نظم ص ١٤٦، ورد الاسم في الكتابات الأثرية بصيغة أمير الحاج أو أمير حاج.

وذكر الماوردي[(١)] أن أمير الحاج ينظر في أشياء أهمها توجيه من برفقته من الحجاج في الطريق السليم، والمحافظة عليهم حتىٰ لا يضل بعضهم الطريق أو يعجز عن اللحاق برفقائه وأن يهيئ لهم وسائل العيش من ماء ومرعىٰ وأن يحرسهم ويصد عنهم من يتعرض لهم بأذىٰ، وأن يصلح بين المتنازعين منهم بالمعروف، وأن يؤدب المخطئ بما لا يتجاوز التعزير إلىٰ الحد، وأن يحرص علىٰ أن يصلوا إلىٰ غايتهم في الوقت المناسب لأداء شعائر الحج، ثم يعود بهم سالمين إلىٰ موطنهم.

هذا وكان موكب الحج تزداد روعته وأبهته إذا خرج الخليفة علىٰ رأسه وكان الخليفة يركب أحيانًا فيلا أبيض مزينًا، وهو يجلس في هودج محلىٰ بالأصداف اللامعة وفي يده قضيب الخلافة، وفي الأخرىٰ الخاتم وعليه جبة موشاة، وفوقها بردة خضراء تنسب إلىٰ النبي ﷺ[(٢)].

(ج) مواكب الاستقبال: وفي هذه المناسبات كان الخليفة يخرج في موكب لاستقبال بعض الملوك أو السفراء، وكانت هذه المواكب تبلغ درجة من العظمة تفوق الخيال، ومن أمثلة هذه المواكب استقبال الخليفة المقتدر سنة ٣٠٤هـ/ ٩١٧م في بلاطه رسل الإمبراطور قسطنطين السابع: إذ مشىٰ في موكب الخليفة ١٦٠ ألف فارس وراجل وسبعة آلاف خادم وسبعمائة صاحب، وسار رسل الإمبراطور بين صفين من السباع عددها ١٠٠ سبع يقودها سباعوها.

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٠٣- ١٠٥.

(٢) المدور: حضارة الإسلام في دار السلام ص٥٤-٥٥.

*** ثالثًا- مجالس الخلفاء:**

كان للخليفة العباسي مجلسان: مجلس خاص ومجلس رسمي وفي الجلوس الرسمي كان يجلس علىٰ سرير الخلافة في نهاية إيوان رحب أثث بأثمن الرياش وحلي بأجمل الزينات وكان يحجب الخليفة عن الحاضرين ستر كان أحيانًا يرفعه فيبدو الخليفة أمام الحضور بهيئة تبعث علىٰ الاحترام والخشوع.

وكان هذا المجلس الرسمي ينظمه كثير من المراسم والتقاليد التي تؤكد من رفعة الخلافة وجلالها مثل مراسم الدخول علىٰ الخليفة والتحية والكلام والجلوس والانصراف.

أما في المجالس الخاصة فكان الخليفة يبدو أكثر قربًا وألفة بجلسائه الذين كانوا يختلفون من حيث الوظيفة ومدىٰ الصلة، فكان منهم رجال الدولة من وزراء وكتاب وقادة وأعيان، وكثيرًا ما كان يقرب الخليفة إليه العلماء والأدباء والشعراء والندماء، كما كان يستمع إلىٰ المغنين والموسيقيين والقصاص وجرت العادة أن يجزل الخليفة العطاء للمجيدين منهم والمقربين إليه.

ولم تكن المجالس مقصورة علىٰ القاعات والأواوين بل أحيانًا ما كانت تعقد المجالس في السفن حيث كان يستمتع الخلفاء المقربون إليهم بالمنادمة واللهو في نهر دجلة ولقد روي أنه كان للخليفة الأمين عدة حراقات أو سفن في دجلة مشكلة علىٰ هيئة حيوانات وطيور مثل الأسد والفيل والفرس والعقاب والحية بلغت تكاليفها مبلغا طائلا من المال.

وقلد الأعيان من الشعب خلفاءهم في الأخذ بأسباب المتعة واللهو: فكان للوزراء والقواد ورجال الدولة مجالس للترفيه والتسلية واللهو عمرت بمظاهر الأبهة والثراء:

رابعًا- حفلات الزواج:

وكانت هذه الحفلات من المناسبات التي تعرض فيها مظاهر البذخ والترف والغنىٰ، وقد سجل لنا التاريخ وصف بعض هذه المناسبات مثل زواج المأمون من بوران بنت الحسن بن سهل وزواج الخليفة المعتضد من قطر الندا بنت خمارويه حيث كان وصف ما اشتملت عليه هذه الاحتفالات يفوق الخيال، فمثلا مما جاء في وصف بعض مظاهر الاحتفال الذي أقيم بمناسبة زواج المأمون من بوران في سنة ٢١٠هـ/ ٨٢٥م أن وقف العريس وعروسه علىٰ حصير منسوج من خيط الذهب ومرصع بالدر والياقوت ثم نثر عليهما ألف لؤلؤة من صينية ذهبية[(١)].

* خامسًا- الولائم:

وإلىٰ جانب هذه الاحتفالات زادت العناية في العصر الإسلامي بالولائم التي كانت تقام في كثير من المناسبات وجرت العادة أن يمد السماط حيث توضع عليه شتىٰ أنواع الأطعمة، وقد أخذ العباسيون عن الأمويين عادة مد السماط، ويقال إن معاوية بن أبي سفيان كان أول من مد السماط.

وكانت الولائم تقام عادة في الأعياد وفي ليالي رمضان بالإضافة إلىٰ المناسبات الأخرىٰ وقد أطلق عليها أسماء تختلف بحسب مناسباتها فقيل الوليمة لطعام العرس، والأعذار لطعام الختان، والخرس لطعام الولادة، والوكيرة لطعام الاحتفاء ببناء الدور، والمأدبة للدعوات.

---

(١) دكتور حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي جـ٢ ص٤٤٢ - ٤٤٣.

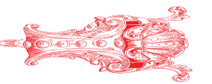
وكانوا يتفننون في أصناف الطعام التي تقدم في هذه المناسبات كما ألفت الكتب الخاصة بالمطابخ، ويقال إن المعتصم أمر بإقامة مباراة في الطبخ، كما أن المتوكل كافأ من أجاد طبخ قدر أعجبه بأن منحه قدرا مملوءة بالدراهم، وينسب إلىٰ الخليفة نفسه نوع من الحساء أطلق عليه اسم المتوكليه، ويقال إن إبراهيم ابن المهدي أولم لأخيه هارون الرشيد وليمة كان ضمن ما قدم فيها صحن من ألسنة الأسماك الرقيقة، ورغم ما في هذا الخبر من مبالغة واضحة فإنه يدل علىٰ مدىٰ البذخ في الولائم، حتىٰ صار يحاك حوله الأساطير.



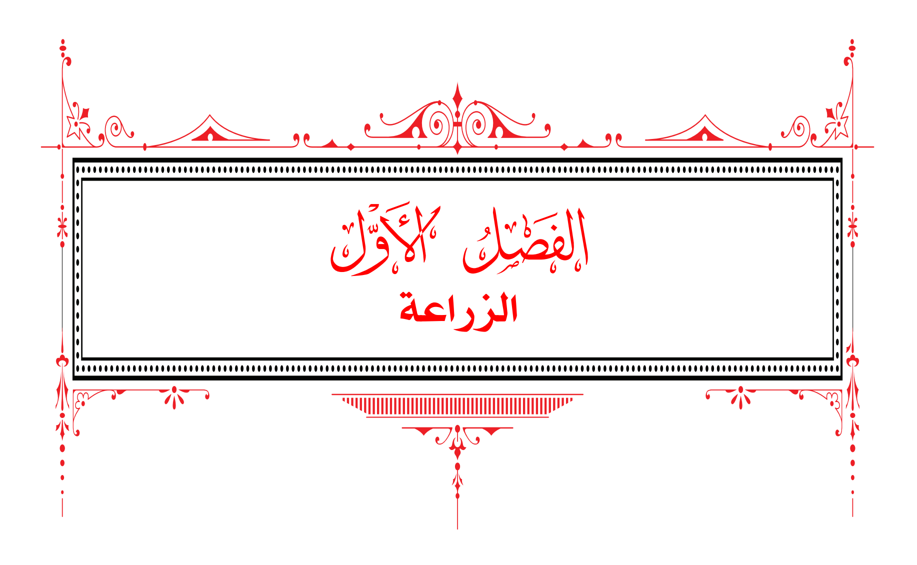


الباب الرابع
التراث المادي





لم يقتصر التقدم علىٰ الجانب الفكري والثقافي فحسب بل امتد بطبيعة الحال إلىٰ الجانب المادي: ذلك أن الازدهار الثقافي لابد وأن يؤثر علىٰ الجوانب الاجتماعية الأخرىٰ، وقد ظهر هذا التأثير في المجتمع الإسلامي: إذ نلحظ تقدمًا ملموسًا في مظاهر الحضارة المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة ومواصلات.



الفصل الأول

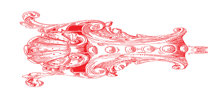
الزراعة

حظيت الزراعة بكثير من العناية، ومن المعروف أن الزراعة تزدهر في ظل الحكومات القوية ذلك أن مثل هذه الحكومات تستطيع أن تعمل علىٰ توفير ما يلزم الزراعة من متطلبات علىٰ نطاق واسع مثل إصلاح الأراضي وتوفير مياه الري وتيسير نقل المحاصيل.

ولقد عملت الدولة الإسلامية علىٰ إصلاح الأراضي التي كانت قد أهملت في أواخر العصر الأموي من أراض زراعية وبساتين فاكهة وحدائق أزهار فاتجهت العناية إلىٰ إعادة حفر القنوات والترع القديمة التي كانت قد ردمت مثل نهر عيسىٰ الذي كان يربط بين الفرات عند الأنبار في الشمال الغربي وبين نهر دجلة عند بغداد، ومن الملاحظ أن الدولة العباسية لم تحفر كثيرا من القنوات الجديدة وإن ما قامت به كان مجرد إعادة حفر أو تعمير لقنوات قديمة كان قد أهمل أمرها[١].

وكانت الخلافة الإسلامية تسيطر علىٰ عدد من الأقطار الخصبة الغنية بمحاصيلها الزراعية مثل مصر والعراق وخراسان، وكانت الدولة حريصة

(١) دكتور حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي جـ٢ ص٣٠٤.




علىٰ نقل المحاصيل الزراعية وتبادلها بين ولايات الدولة وعلىٰ توفير ما يلزم لحفظها وصيانتها من التلف أثناء النقل: فكان البطيخ مثلا ينقل من خوارزم إلىٰ بغداد داخل صناديق من الرصاص بها المقادير اللازمة من الثلج.

وزادت العناية بزراعة الزهور لاستخراج العطور، وازدهرت صناعة العطور بصفة خاصة في دمشق وشيراز وفيروز آباد، وكانت العطور تصدر من فارس إلىٰ الصين، وكان خراج فارس إلىٰ الخلافة يشمل ضمن ما يشمل ٣٠ ألف قارورة عطر مستخرج من الورد الأحمر.

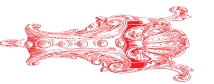
واسترعىٰ النبات أنظار العلماء كمصدر للأدوية والعقاقير وتتضح أهمية النبات من الكتب الكثيرة التي ألفت أو ترجمت عن اليونانية، وقد أورد ابن النديم في الفهرست قائمة ببعضها، ومن أشهر هذه الكتاب كتاب الحشائش والنباتات أو خواص العقاقير لديسقوريدس[١]، وقد اشتهر هذا الكتاب في مجال التصوير الإسلامي: إذ عثر علىٰ بعض نسخ منه مزوقة بالتصاوير[٢].

هذا وقد كانت الأراضي الزراعية في أقطار الدولة في يد أصحابها من أهالي البلاد الأصليين، وكانت الدولة تفرض علىٰ هذه الأراضي خراجًا محددا أو ضريبة تقوم بجمعها عن طريق جباتها وحين كانت السلطة المركزية المتمثلة في الخلافة تسيطر سيطرة تامة علىٰ سائر ولايات الدولة حتىٰ العصر العباسي الأول كان الفائض من الخراج يبعث به الولاة إلىٰ عاصمة الخلافة حيث يصرف منه علىٰ شئون الإدارة والجيش ومختلف منافع الدولة ومن هنا عمر بيت المال مما هيأ للدولة فرص التقدم والازدهار.

---

(١) Materia Medica.

(٢) دكتور حسن الباشا: التصوير الإسلامي في العصور الوسطىٰ ص٩٧ و١٣٢.



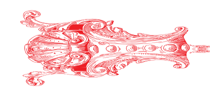
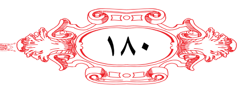
ولكن حين ضعفت الخلافة، وأخذت الدولة العباسية في التمزق وانقسمت إلىٰ ولايات شبه مستقلة حاول الولاة أن يستأثروا بأكبر قدر ممكن من دخل ولاياتهم مما أدىٰ إلىٰ فقر بيت مال الخلافة وعجزه عن أن يقوم بتغطية أوجه الصوف المختلفة: ففقدت الدولة استقرارها المالي، وتعرضت لأزمات مالية، وتكرر حدوث العجز عن الدفع الفوري اللازم لمتطلبات الدولة، وكان أخطر ما تعرضت له السلطة المركزية هو العجز عن توفير أرزاق الجند مما سبب قيام كثير من الفتن والثورات.

وفي سبيل التخلص من ذلك لجأ بنو بويه بعد استيلائهم علىٰ بغداد إلىٰ نظام الإقطاع، إذ أخذ معز الدولة يقطع القرىٰ لقواده كأرزان عوضًا عن المرتبات النقدية، كما لجأ أيضًا إلىٰ الإكثار من المكوس والمصادرات.

واستقر نظام الإقطاع في عصر السلاجقة حين وزعت الأراضي كاقطاعات علىٰ الجند علىٰ أن يأخذوا ما تغله كأجر وأن يؤدوا مقابل ذلك جزءًا من الإيراد كضريبة للدولة وأن يقوموا هم أنفسهم بجمع الضرائب من الزراع.

ومن المحتمل أن نظام الإقطاع كان له أثره في تحطيم الوحدة السياسية وتقسيم الدولة العباسية إلىٰ دويلات: إذ كان الإقطاع يكبر بحسب نفوذ صاحبه، وباتساع الاقطاعات ازداد نفوذ أصحابها وتجمعت في يد كل منهم سلطات كثيرة وقد ساعدهم ذلك علىٰ الاستقلال عن السلطة المركزية.

وبالرغم من أن أهمية الزراعة والاعتماد عليها في تمويل الدولة عن طريق خراج الأراضي فإن التطور الاجتماعي في الدولة الإسلامية أدىٰ إلىٰ الحط من مركز الزراع لحساب التجار إذ ازدادت العناية بتأسيس المدن، وتشجيع التجارة والإشادة بما كان يتضح من كتابات الجاحظ وأحاديثه عن التجار ومن قصص ألف ليلة وليلة، وكان من جراء ذلك أن ظهر الاهتمام

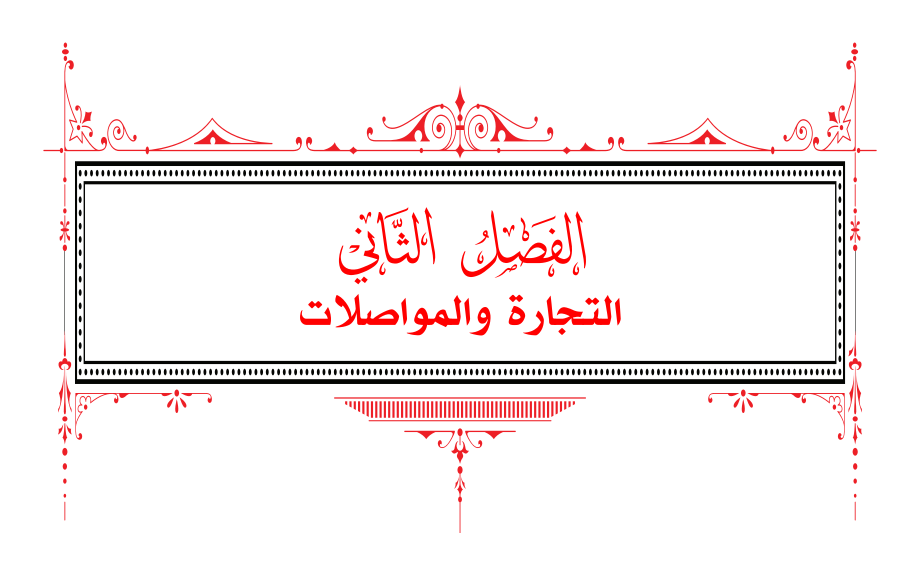



بتجميع الأموال، وتكوين رؤوس أموال ضخمة وازدهار أعمال الصيرفة[١] وتبادل العملة، واستثمار الأموال في الزراعة والتجارة علىٰ نطاق واسع.

ونتيجة لهذه الرأسمالية استعيض عن الجندي العربي بغلمان يشترون أو جند يؤجرون من أجناس مختلفة كالأتراك والديلم، وظهرت طبقة حاكمة من أجناس مختلفة تتألف من القواد وملاك الأراضي والتجار.

---

(١) عرفت المكتبة العربية كتبًا كثيرة عن الصيرفة منها كتاب المختار في كشف الأسرار للجوبري وكتاب الباهر في الحيل والشعبذة لأحمد بن عبد الملك الأندلسي ومعيد النعم ومبيد النقم للسبكي.



انتعشت التجارة في الدولة الإسلامية إذ بعثت التجارة العالمية من جديد بعد أن توقفت فترة قصيرة، كما حدث ازدياد مضطرد في التجارة في الدولة العباسية سواء في التجارة الخارجية أو الداخلية.

* التجارة الخارجية:

وفي مجال التجارة الخارجية كان للعالم الإسلامي علاقات تجارية مع غرب أوروبا وشمالها ومع الشرق الأقصىٰ ومع القارة الإفريقية.

مع غرب أوروبا: كانت العلاقات التجارية مع غرب أوروبا تقوم بصفة أساسية علىٰ تصدير الرقيق إلىٰ العالم الإسلامي وكان الرقيق يجلب إلىٰ الموانئ الفرنسية ثم يحمل منها إلىٰ العالم الإسلامي، إما عن طريق أنطاكيا ثم بغداد، وإما عن طريق مصر فالفرما فالقزم فالبحر الأحمر فموانئ الحجاز.

وبهذه المناسبة أورد بيرن بعض النظريات التاريخية التي أوضحها في عدة مؤلفات منها محاضرات في جامعة برينستون عن مدن العصور

الوسطىٰ، ومحمد وشارلمان وتاريخ أوروبا في العصور الوسطىٰ، ويحاول بيرن في هذه النظريات أن يدحض الرأي الشائع الذي يقول بأن الحضارة الرومانية انتهت علىٰ يد غزو البرابرة، ويزعم أن العرب هم الذين قضوا علىٰ الحضارة الرومانية وأنه بظهور الدولة العربية الإسلامية انتهىٰ دور البحر الأبيض المتوسط كوسيلة للاتصال وأصبح حاجزًا بين الشرق والغرب.

ويضيف بيرن أيضًا أن ظهور الإسلام ثم الدولة الإسلامية كان السبب الرئيسي لظهور شارلمان ويقول بهذا الصدد «إن محمدا هو الذي صنع شارلمان أي أنه لو لم يوجد محمد ﷺ لما وجد شارلمان».

وقد أثارت آراء بيرن موجة من المعارضة بين مؤرخي العصور الوسطىٰ والأوروبيين ومن الملاحظ أنه يمكن نقض آراء بيرن علىٰ الأسس الآتية:

أولًا: ظل التبادل التجاري مستمرًا بين العالم الإسلامي من جهة والدولة البيزنطية ودول أوروبا من جهة أخرىٰ.

ثانيًا: كانت الامبراطورية الرومانية الغربية قد قضىٰ عليها تماما قبل ظهور الإسلام وذلك باستيلاء البرابرة علىٰ روما سنة ٤٧٦م أما الدولة الرومانية الشرقية أو الدولة البيزنطية فلم يقض عليها إلا في سنة ١٤٥٣م علىٰ يد الأتراك العثمانيين أي بعد ظهور الإسلام بأكثر من ثمانية قرون.

ثالثًا: العرب المسلمون هم الذين حافظوا علىٰ التراث اليوناني الروماني ولولاهم لما بعث من جديد في عصر النهضة الأوروبية.

مع شمال أوروبا: وجدت العلاقات التجارية في العصر العباسي مع شمال أوروبا وكانت إسكنديناوة تصدر بصفة خاصة الفراء الذي كان يحمل

عبر روسيا إلىٰ العالم الإسلامي، وعثر علىٰ نقود عربية في فلنده والسويد والنرويج كما عثر علىٰ قليل منها في الجزر البريطانية وايسلنده مما يدل علىٰ وجود التبادل التجاري بينها وبين العالم الإسلامي.

مع الشرق الأقصىٰ: حدث تبادل تجاري علىٰ نطاق واسع بين العالم الإسلامي والشرق الأقصىٰ الذي حل فيه الوفاق بدلا من العداء الذي كان سائدًا في العصر الأموي، وكانت التجارة مع الشرق الأقصىٰ تتخذ طريقين إما طريق البر أو طريق البحر فمن جهة كانت القوافل التجارية تسير عبر الطريق التجاري القديم الذي كان مستخدمًا في عصر الدولة الساسانية، ومن جهة أخرىٰ وجد طريق الخليج العربي وطريق البحر الأحمر ومنهما إلىٰ الهند وجنوب شرق آسيا والصين، وكان العالم الإسلامي يستورد الحرير من الصين والفيلة والتوابل وأخشاب البناء من الهند[١].

مع القارة الإفريقية: كانت القارة الإفريقية تصدر إلىٰ العالم الإسلامي الذهب والأبنوس والعاج وكانت المتاجر تنقل مع زيلع علىٰ الشاطئ الإفريقي في مواجهة عدن.

التجارة الداخلية: كانت التجارة الداخلية تعتمد في انتقالها إما علىٰ الطرق البرية أو الطرق المائية من أنهار وقنوات وبحار.

ويزعم بعض المستشرقين أن العرب المسلمين لم يهتموا بتمهيد الطرق البرية نظرًا لعدم استخدامهم العربات ذات العجل في نقل المتاجر ولاعتمادهم بصفة أساسية علىٰ الجمال والحمير ومن ثم اكتفت الدولة بالسبل أو الجادات.

---

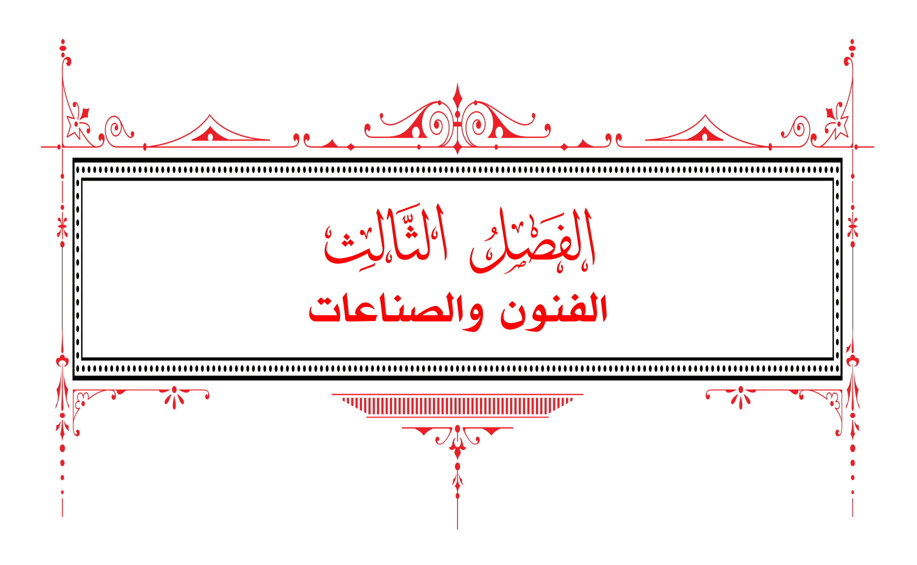
(١) Heyd, Histoire de Commerce du Levant au Moyen Age, (Leipzig 1925), Vol. I, p. 72.

غير أنه من الملاحظ أن العرب اهتموا بالطرق كوسيلة للمواصلات ونقل المتاجر وسير القوافل فعنوا بتزويدها بالقصور أو منازل الاستراحة وبحفر الآبار وإجراء العيون وعمل المناهل لإمداد المسافرين وأبناء السبيل بالمياه اللازمة، كما أقاموا الأميال أو العلامات التي تحدد الأطوال علىٰ الطريق وقد عثر علىٰ أربعة أميال ترجع إلىٰ عهد عبد الملك بن مروان[١].

هذا ويجب ألا ننسىٰ أن العناية بالطرق تعتبر في الإسلام من الواجبات الدينية ومن القربات إلىٰ الله نظرًا لاستخدامها في الحج إلىٰ بيت الله الحرام وزيارة المسجد النبوي الشريف.

---

(١) Repertoin Chronologique dEpigraphie Arabe, I, no. 14-17.



* نشأة الفنون الإسلامية:

ما أن دخل النبي ﷺ المدينة المنورة عقب الهجرة حتىٰ أمر ببناء مسجد يقيم به الصلاة، فهدت قطعة من الأرض اشتراها النبي من غلامين يتيمين بالمدينة المنورة، ثم خطط المسجد وأعدت مواد البناء من حجارة ولبن وجذوع نخيل وغير ذلك، واشترك النبي ﷺ وصحابته في أعمال البناء حتىٰ تمت إقامة المسجد النبوي الشريف كأول عمل معماري هام في الإسلام.

وصار هذا المسجد النبوي النموذج الذي أخذت تبني علىٰ نمطه المساجد في الإسلام، وذلك علىٰ سبيل الاقتداء بالسنة النبوية الشريفة، ومن أمثلة ذلك مساجد البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان والمسجد الأموي في دمشق[(١)].

(١) دكتور حسن الباشا: عمارة المساجد: الحرم النبوي الشريف مجلة منبر الإسلام العدد ٣ - السنة ٢٦ ص ١٧٧-١٨٤.

وفي مباني المسجد تطورت العناصر المعمارية والزخرفية التي انتقلت إلىٰ سائر أنواع المباني الإسلامية من قصور ومدارس وقلاع وغير ذلك، مثل الأعمدة والعقود والمداخل والقباب والزخارف الهندسية والنباتية والكتابية وغيرها.

وعن طريق العناية بأثاث المسجد والرغبة في تجميله نشأت الفنون التطبيقية الإسلامية، إذ تطورت فنون المعادن مثلا بفضل عناية المسلمين بأساس المسجد المعدني من أباريق وثريات وشمعدانات ومساند، وتطورت كذلك الصناعات الخشبية بمختلف أنواعها في ضوء الاهتمام بالأثاث الخشبي في المسجد من منابر وكراسي وأرحال وتطورت فنون الزجاج عن طريق العناية بمصابيح الإضاءة والنوافذ، وارتقت فنون السجاد تبعًا للاهتمام بفرش المساجد بل إن هذا الفن الذي نبغ فيه المسلمون، وكاد أن يختص بهم وحدهم استمدوا اسمه من لفظة المسجد نفسها.

وبالإضافة إلىٰ المسجد النبوي الشريف كان هناك محور آخر تكونت حوله أنواع أخرىٰ من الفنون الإسلامية، ونعني بهذا العامل نسخ المصحف وقد تم جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتم نسخه وتوزيعه علىٰ سائر الأمصار في عهد عثمان رضي الله عنه(١) وكما كان لهذا العمل أهميته في توحيد رسم القرآن وفي حفظه بفضل الله تعالىٰ الذي تكفل بذلك ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، كان له أثره أيضًا في نشأة فنون إسلامية احتلت المكانة الأولىٰ بين سائر الفنون، وهي فنون الكتاب، من خط، وتذهيب، وتزويق، وتجليد.

---

(١) دكتور محمد عبد العزيز مرزوق: المصحف الشريف، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ٢٠ ص٩-١٣.

حول هذين المحورين: المسجد، والمصحف، نشأت الفنون الإسلامية وارتقت حتىٰ بلغت القمة، وانتشرت بحيث صارت من أوسع فنون العالم انتشارًا، وطال عمرها حتىٰ أصبحت من أطول فنون العالم عمرًا.

وظل هذان الأساسان عامل توحيد في الفنون الإسلامية برغم اختلاف عصورها وأماكن إنتاجها، وبرغم كثرة الشعوب الإسلامية التي أسهمت في تكوينها وتطويرها، وبرغم التأثيرات الأجنبية التي دخلت عليها.

واستوحىٰ الفن الإسلامي في نشأته وتشكيله روح الإسلام وتعاليمه، فمن جهة يلاحظ أن الفن الإسلامي نشأ بدافع الرغبة في الإجادة والإتقان وهذه الرغبة مستمدة من الإسلام نفسه[١] قال ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه».

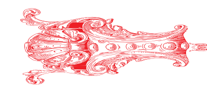
والحق أن هذا الدافع يفسر لنا الدرجة العظيمة من الإتقان التي بلغتها الفنون الإسلامية ومن المعروف أن المبالغة في الإتقان تؤدي بطبيعتها إلىٰ التنميق والتزويق والزخرفة، ومن جهة أخرىٰ تأثر الفن الإسلامي بدافع آخر هو الرغبة في تجميل الحياة والاستمتاع بها، وهذه الرغبة أيضًا مستوحاة من العقيدة الإسلامية.

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢]، كما ينسب إليه تعالىٰ أنه زين السماء بالكواكب ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦].

وعلىٰ عكس ما يزعم المستشرقون كان للعرب دور مهم في تشكيل الفن الإسلامي.

---

(١) قال الله تعالىٰ: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النمل: ٨٨].




حقًا إننا لا نعرف الكثير عن الحالة الفنية في بلاد العرب عند ظهور الإسلام، وإن كان ما وصلنا من التراث الأدبي يدل علىٰ أن العرب في ذلك الوقت كانوا قد بلغوا مستوىٰ رفيعًا جدًا في الذوق والإحساس الفني بصورة عامة، بحيث تسنىٰ لهم أن يتذوقوا بلاغة القرآن الكريم وأن يقروا بإعجازه[١]، ومع ذلك يمكننا في ضوء ما وصلنا من شواهد قليلة أن نتعرف علىٰ بعض المظاهر الفنية في بلاد العرب، ويتضح مما وصلنا من الآثار والتراث الأدبي أنه كان للعرب قبل الإسلام فن معماري ازدهر نوع منه حتىٰ انتشر خارج الجزيرة، ونعني بذلك عمارة الحصون والآطام التي اشتهرت في بلاد العرب، ومن أشهر هذه الحصون قصور غمدان وبينون وسلحين التي ورد ذكرها في كثير من الشعر الجاهلي.

وكانت الحصون التي انتشرت في بلاد العرب قبل الإسلام متينة البنيان مشيدة بالصخور الضخمة من عدة طبقات، هذا ومن المعروف أنه كان في المدينة المنورة علىٰ عهد الرسول الله ﷺ آطام وشيدت خارج الجزيرة العربية حصون متأثرة في عمارتها بالحصون العربية، وانتشرت هذه الحصون حتىٰ وصلت بيزنطة، ومن المرجح أن القصور التي بناها الأمويون في صحراء الشام مثل «قصر المشتىٰ» و«الحير الغربي» و«الطوبه»[٢] وغيرها قد شيدت علىٰ نمط هذه الحصون.

وبالإضافة إلىٰ هذه الدلائل المادية وردت الإشارة إلىٰ البناء والعمائر والتمثيل بها في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الشريف، فضلا عما جاء في الأدب الجاهلي، وكلها تشهد بصلة العرب الوثيقة بهذه الفنون: إذ ورد في القرآن الكريم ذكر الحصون والبروج والقصور

(١) دكتور حسن الباشا: فنون التصوير الإسلامي في مصر ص٢٠.

(٢) انظر Creswell, (K. A. C.), Early Muslim Architectuer, Vol. I.

والغرف والجدران، كما ضرب المثل بالبنيان الذي يشد بعضه بعضًا في حديث النبي ﷺ.

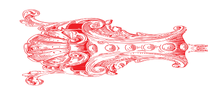
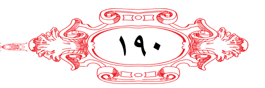
أما من حيث الفنون التشكيلية أي «النحت والتصوير» فمن المعروف أن العرب قبل الإسلام كانوا يعبدون الأصنام أي أنهم ولا شك قد وجد بينهم من اشتغل بصناعة صور وتماثيل كان يتعبد إليها العرب في الجاهلية ووصلنا أسماء بعضهم مثل أبي تجزأة[١]، كما أشارت الأحاديث النبوية الشريفة إلىٰ طبقة المصورين الذين يصنعون الأصنام، ونهتهم عن هذا العمل وحذرتهم من صناعة الأصنام من تماثيل وصور «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون».

ويتضح من هذا كله أن العرب كانت لهم خبرة بالفن التشكيلي بصرف النظر عن الأهداف التي كانوا يرمون إليها.

ومن جهة أخرىٰ لا شك أن العرب كانت لهم خبرة أيضًا بأنواع الفنون التطبيقية ولا سيما الفنون الوثيقة الصلة بمعيشتهم مثل صناعة الأسلحة والحلي والنسيج ودباغة الجلود وما أشبه ذلك، ولقد وصلتنا أحاديث نبوية شريفة تشير إلىٰ اتخاذ العرب لبعض التحف الفنية مثل المنسوجات المزخرفة بالصور والسيوف والرماح والحلي، كما ورد ذكر الخاتم والكير والسيف في أحاديث نبوية شريفة.

نخرج من هذا كله بأن العرب كانت لهم تقاليد فنية عند ظهور الإسلام، ولذلك لم يكونوا عالة علىٰ الحضارات الأخرىٰ في المجال الفني، وحينما دخل العرب المسلمون الأقطار الخاضعة للفرس الساسانيين وللروم البيزنطيين، والتي شملت ما بين المحيط الأطلسي غربًا وحدود الهند شرقًا، سارع أهلها إلىٰ الانضواء تحت راية الإسلام والعمل في ظله،

(١) الأزرقي: أخبار مكة ص٧٢.

وساعد تفوق العرب السياسي والحربي والخلقي في ذلك الوقت علىٰ سيادة الطابع العربي الإسلامي في هذه الأقطار وكان العرب المسلمون علىٰ قسط وافر من سعة الأفق السياسي والحضاري، بحيث حافظوا علىٰ التقاليد الفنية والصناعية النافعة في البلاد التي فتحوها، بل عملوا علىٰ تقدمها وتطورها في الطريق السليم، واستطاعت الدولة الإسلامية الناشئة بفضل الروح الإسلامية الجديدة والخبرات الفنية والصناعية المتنوعة التي يتمتع بها شعوبها من عرب وفرس وروم وقبط وغيرهم، أن تبتكر فنًا جديدًا يمتاز بامتزاج التقاليد الصناعية المختلفة وسيادة الطابع العربي الإسلامي.

* مميزاتها:

وإذا كانت الفنون تختلف فيما بينها من حيث موقفها من تقليد الطبيعة والقرب من الواقع والميل نحو الزخرفة والمثالية فإنه يمكن القول بأن الفن الإسلامي كان بطبيعته فنًا زخرفيًا بالدرجة الأولىٰ[(١)].

ويتجلىٰ الطابع الزخرفي في الفن الإسلامي بشكل واضح في استخدام الفنانين المسلمين في تزويق منتجاتهم الفنية بشتىٰ أنواع الزخارف من رسوم كائنات حية بطريقة زخرفية، ومن زخارف هندسية ونباتية بالإضافة إلىٰ الزخارف الكتابية، ومن الملاحظ أنه في مجال استخدام الكائنات الحية كان الفنان الإسلامي ينحو نحوًا زخرفيًا بعيدًا عن محاكاة الطبيعة، كما أنه استخدم رسم الكائنات الخرافية، وساعده خياله الخصب والأدب العربي علىٰ ابتكار أشكال كثيرة.

ومن حيث استخدام الزخارف النباتية، يلاحظ أن الفنانين المسلمين استخدموا عناصر زخرفية كثيرة مستمدة في عالم النبات من أشجار وأوراق

---

(١) دكتور حسن الباشا: التصوير الإسلامي في العصور الوسطىٰ ص٢٠.

وغصون وأزهار وثمار وغير ذلك كما طوروا نوعًا من هذه الزخارف النباتية أطلق عليه الأوروبيون اسم «أرابسك»[١] (Arabesque) نسبة للعرب ويسمونها أحيانا «نصف مروحة تخيلية» وكانت هذه الزخرفة النباتية من الزخارف الإسلامية الأصيلة التي انفرد بها الفن الإسلامي، وتتألف هذه الزخرفة من عناصر زخرفية مكونة من أفرع نباتية محورة وأوراق نباتية ذات فصين تتداخل أو تتشابك معًا بطريقة منسقة جميلة.

وبلغ الفن الإسلامي في الزخارف الهندسية مرتبة لا يدانيه فيها أي فن آخر وطور المسلمون الزخارف الإسلامية علىٰ أسس مدروسة[٢] وابتكروا أنواعا من هذه الزخارف لم تعرفها الفنون الأخرىٰ، ومن أمثلة تلك الزخارف، ما اصطلح علىٰ تسميته «بالأطباق النجمية» ويتألف الطبق النجمي من عناصر هي الترس واللوزة والكندة.

* طرزها:

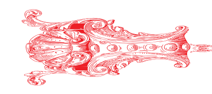
الفنون الإسلامية شأنها شأن غيرها من الفنون تحمل في طبيعتها بذور التجديد والاختلاف ومن ثم انقسمت إلىٰ عدة طرز متميزة، ولكن، هذه الطرز ظلت يوحد بينها طابع العروبة والإسلام الذي جعل عناصر الوحدة فيها أقوىٰ من عوامل الاختلاف.

حتىٰ الآن لم نعثر علىٰ آثار فنية مؤكدة من عهد النبي (ﷺ) والخلفاء الراشدين، ولم يصلنا من ذلك العصر غير نماذج قليلة تتمثل في الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة، وفي جامع البصرة وجامع الكوفة وجامع عمرو بن العاص بالفسطاط، ولو أن جميع هذه الآثار جرىٰ عليها كثير من

---

(١) انظر هذه المادة في Encyclopaedia of Islam.

(٢) انظر: Bourgoin (g.) Les Arts arabes.




التغيير والتبديل أفقدها معالمها الأصلية وذلك فضلا عن الآثار النبوية الشريفة التي يحتفظ بها في بعض الأماكن مثل مسجد الحسين بالقاهرة[١] .

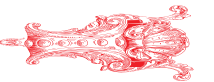
غير أن المنتوجات الفنية التي وصلتنا من عهد الأمويين من سنة ٤١-١٣٢هـ/ ٦٦١-٧٥٠م تدل علىٰ أن الفن الإسلامي اتخذ في ذلك العصر طابعا خاصًا متميزًا وأن الإسلام أنتج فنًا يضاهي في قيمته وعظمته انتصاراته السياسية والحربية والإدارية، ويتضح من الآثار والتحف الإسلامية التي وصلتنا من هذا العصر أن الفن الإسلامي نشأ في كل إقليم من أقاليم الدولة الإسلامية علىٰ أساس الفنون السابقة بها .

ففي إيران نشأ علىٰ أساس الفن الساساني، وفي الشام علىٰ الفن البيزنطي والفن الهيلنتي وفي مصر الفن القبطي والفن البيزنطي والفن الهيلنتي والفن الفرعوني، كما استمد في الوقت نفسه من التقاليد الفنية في الأقاليم الأخرىٰ الخاضعة للإسلام والتي أتاح لها الحكم الواحد فرصة الامتزاج، وفي الوقت نفسه كان متمشيًا أيضًا مع تعاليم الدين الجديد وروحه وشعائره والطابع العربي.

واصطلح علىٰ تسمية هذا الفن الإسلامي الجديد باسم الطراز الأموي[٢]، ويعتبر هذا الطراز (الأموي) طابعًا دوليًا، إذ انتشر في الأقطار الكثيرة التي كانت خاضعة للخليفة الأموي وساعد علىٰ انتشاره الصناع ذوو الجنسيات المختلفة الذين كانوا كثيرًا ما يشتركون في العمل معا في إنتاج واحد، كما هي الحال في بناء المسجد النبوي الشريف في عهد الوليد بن عبد الملك.

(١) أحمد تيمور: الآثار النبوية ص ١٠ وما بعدها .

(٢) دكتور زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ص١٥.



وبعد أن استولىٰ العباسيون علىٰ الخلافة في سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م) نقلوا مركز حكمهم إلىٰ العراق، حيث أسسوا مدينة بغداد في سنة ٧٦٦م، بالقرب من حدود إيران واتخذوها عاصمة لدولتهم، وربما فعلوا ذلك ليكونوا علىٰ مقربة من الفرس الذين اعتمدوا عليهم في إقامة حكمهم، وكان من نتيجة ذلك أن زاد الأثر الإيراني «الساساني» في الإنتاج الفني الإسلامي مما أدىٰ إلىٰ ظهور طراز فني إسلامي جديد هو الطراز العباسي المبكر، ويمثل الإنتاج الفني الذي كشفت عنه الحفائر الأثرية التي أجريت في سامرا نضج هذا الطراز ويرجع فن سامرا إلىٰ ما بين عام ٢٢١و٢٧٦هـ/ ٨٣٦-٨٨٩م، وهي الفترة التي كانت فيها سامرا مركز للخلافة العباسية[(١)].

واتخذ فن سامرا طابعًا دوليًا إسلاميًا، إذا انتشر في سائر العالم الإسلامي، وذلك بحكم سيطرة الخلافة العباسية في بداية العصر العباسي علىٰ سائر العالم الإسلامي باستثناء الأندلس.

ولكن لم تلبث الخلافة العباسية أن انتابها الضعف، فأخذت الولايات المختلفة تستقل عن الخلافة العباسية، كما ظهرت خلافتان أخريان هما، الخلافة الفاطمية في مصر والخلافة الأموية في الأندلس وأدىٰ هذا الاستقلال السياسي إلىٰ أن يتميز الفن في كل دولة من هذه الدول بمميزات خاصة، وبذلك ظهرت بعض الطراز المحلية التي كان لكل منها مميزاته الخاصة، وإن كان يجمع بينها طابع واحد وروح واحد هو الروح الإسلامي العربي.

ووجد في مصر الفن الفاطمي أثناء حكم الخلفاء الفاطميين (٣٥٨-٥٦٧هـ) ثم الطراز الأيوبي، في عصر الأيوبيين (٦٧هـ- ٦٤٨هـ) ثم الطراز المملوكي، في عهد سلاطين المماليك (٦٤٨- ٩٢٣هـ).

(١) Sarre und Herzfeld, Archaoligische Reise im Euphrat-und-Tigris-Gebiet, I, p,69,87.

ووجد في الأندلس فن أندلسي[١] اصطلح علىٰ تسميته (بالطراز الأموي الغربي) نسبة إلىٰ بني أمية الذين استقلوا بحكم الأندلس في الغرب بعد زوال خلافتهم في الشرق واستمر هذا الطراز إلىٰ القرن الخامس الهجري ثم قام في أعقابه الطراز الإسباني المغربي في القرن السادس الهجري وبلغ قمته في غرناطة في القرن الثالث الهجري، ولا يزال المغرب يحتفظ إلىٰ اليوم ببعض الأساليب الفنية المتصلة بهذا الطراز.

أما في مشرق العالم الإسلامي فقد حل محل طراز سامرا فن جديد كان له أيضًا طابع الدولية، وهذا الفن هو الفن السلجوقي، وذلك نسبة إلىٰ السلاجقة الذين قدموا إلىٰ آسيا الوسطىٰ وتمكنوا ومن خلفهم من الأتابكة أن يحكموا أفغانستان وإيران والعراق والشام وآسيا الصغرىٰ حتىٰ حوالي القرن الثالث عشر الميلادي (القرن السابع الهجري) ومن الملاحظ أن الفن الأيوبي والمملوكي يمكن اعتبارهما متطورين عن الفن السلجوقي.

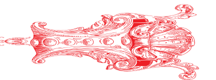
وقام في إيران بعد الطراز السلجوقي طرز إيرانية أولها (الطراز المغولي) الذي ازدهر أثناء حكم أسر الإيلخائيين في القرن الثامن الهجري، والطراز التيموري الذي ازدهر أثناء حكم التيموريين في القرن التاسع الهجري، ثم الطراز الصفوي الذي ازدهر أثناء حكم الأسر الصفوية من القرن العاشر إلىٰ القرن الثاني عشر بعد الهجرة[٢].

ووجد في الهند طراز هندي إسلامي متأثر إلىٰ حد ما بالطراز الإيراني وذو صبغة هندية محلية.

---

(١) مانويل جوميث مورينو: الفن الإسلامي في إسبانيا ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع والدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم ص١٦.

(٢) دكتور زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ص١٥-٤٢.



وفي آسيا الصغرىٰ أعقب الطراز السلجوقي طراز فني آخر قام في عصر الأتراك العثمانيين وانتشر هذا الطراز التركي العثماني في الولايات التي خضعت لحكم الأتراك العثمانيين في مصر والشام والعراق والجزيرة العربية وشمال إفريقيا.

وبعد استقلال هذه الأقطار عن الأتراك العثمانيين أخذت تعمل علىٰ ابتكار فنون خاصة بها ولا تزال هذه الطرز الإسلامية المختلفة باقية في العالم الإسلامي رغم أنه منذ القرن الثاني عشر الهجري أخذت التأثيرات الأوروبية تتوغل بشكل خطير في البلاد الإسلامية، ولم يكن الفن الإسلامي في أي فترة من تاريخه فنًا راكدًا أو جامدًا أو منعزلًا، بل كان دائم الاحتكاك بالفنون الأخرىٰ في الشرق والغرب، مما ساعد علىٰ احتفاظه بحيويته وأدىٰ إلىٰ تطوره، وبفضل العلاقات المختلفة التي قامت بين العالم الإسلامي والشرق الأقصىٰ، نجد أن الفن الإسلامي كان يتبادل التأثير مع فنون الشرق الأقصىٰ بعامة وفنون الصين بخاصة.

ومن جهة أخرىٰ ساعدت ظروف كثيرة علىٰ انتقال التأثيرات الفنية الإسلامية إلىٰ أوروبا، وإلىٰ الفن الإسلامي يرجع الكثير من الفضل في نشأة بعض الفنون الأوروبية، مثل الفن القوطي، وانتقلت التأثيرات الفنية الإسلامية إلىٰ أوربا عن طريق إسبانيا وصقلية ودولة الترك العثمانيين في البلقان وبحر الأرخبيل، كما كانت الحروب الصليبية والتجارة بين الجمهوريات الإيطالية ومدن الشرق الأدنىٰ وثغوره، وقدوم الأوروبيين للحج إلىٰ فلسطين ذات أثر كبير في تبادل العناصر الفنية بين الإسلام وأوروبا[(١)].

هذا وقد عنىٰ العلماء منذ حوالي بداية القرن العشرين بإجراء حفائر إسلامية كشفت عن كثير من الآثار والتحف الفنية التي تعتبر ذخيرة قيمة في

(١) تراث الإسلام ترجمة دكتور زكي محمد حسن ص ٣ وما بعدها.

دراسة الفنون الإسلامية خاصة، والحضارة الإسلامية عامة... ومن أهم هذه الحفائر:

(١) حفائر بني حماد في الجزائر، قام بها «بلانشيه» في سنة ١٨٩٨م وتبعه «دي بيلي» في سنة ١٩٠٨م.

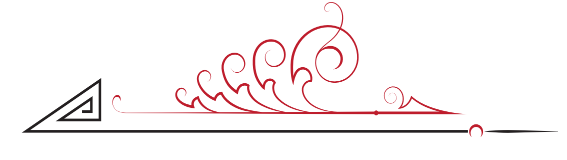
(٢) حفائر مدينة الزهراء بالأندلس قام بها «فيلاسكويز بوسكو» في سنة ١٩١٠م.

(٣) حفائر الفسطاط، قام بها علي بهجت سنة ١٩١٢م.

(٤) حفائر سامراء بالعراق، قام بها «زاره» و«هرتسفلد» فيما بين ١٩١١-١٩١٣م.

(٥) حفائر قصير عمره وحران والطوبه، قام بها «جوسان» و«سافينياك» سنة ١٩٢٢م.

(٦) حفائر في إيران قام بها بعثة سويدية في سنة ١٩٣٢-١٩٣٣ وفي نيسابور متحف المترو بوليتان.



الكتابة العربية

من أهم الفنون التي ازدهرت في العالم الإسلامي الخط العربي أو الكتابة العربية وقد وصلتنا روايات كثيرة مختلفة عن أصل الكتابة العربية ونشأتها وكلها ترجع إلىٰ مصادر عربية من العصر الإسلامي، ويمكن تلخيص هذه الروايات إلىٰ الأقسام الآتية:

القسم الأول: روايات تذكر أن الكتابة العربية اخترعت اختراعا علىٰ يد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام[1]، أو علىٰ يد أبنائه نفيس ونضر وتيماء ودومه، وتتمشىٰ هذه الآراء مع روايات أخرىٰ تقول: إن إسماعيل هو أبو العرب المستعربة، وأنه هو أول من تكلم منهم العربية بعد أن أخذها من العرب العاربة.

القسم الثاني: روايات تقول إن الكتابة العربية منقولة عن الخط المسند الذي عرف في بلاد اليمن وتختلف هذه الكتابات فيما بينها في تفاصيل الانتقال من اليمن إلىٰ الحجاز، ونستطيع أن نقسمها بدورها من هذه الناحية إلىٰ أقسام:

(١) القلقشندي: صبح الأعشي جـ٣ ص٧ و٨.

أولا: روايات تقرر أن الخط نشأ في بلاد اليمن ثم انتقل منها إلىٰ العراق حيث تعلمه أهل الحيرة، ومن أهل الحيرة تعلمه أهل الأنبار، ومن أهل الأنبار تعلمه أقوام نقلوه إلىٰ الحجاز، ويذكر أصحاب هذه الأخبار أن ممن تعلمه من أهل الحجاز سفيان بن حرب أو أباه حرب بن أمية وأنه تعلمه من رجل يدعىٰ «أسلم بن سدرة»[١] حسب رأي ابن خلدون أو يدعىٰ عبد الله بن جدعان، حسب رأي آخر.

ثانيًا: رأي يقول إن ثلاثة نفر من طي من بولان وهم: مرامر بن مره، وأسلم بن سدره، وعامر بن جدره، كانوا قد سكنوا الأنبار، فاقتطع مرامر الخط من المسند فسمي الجزم ووضع صورة الخط، ووضع أسلم الفصل والوصل، ووضع عامر الإعجام (النقط)، وتعلم أهل الأنبار هذا الخط من هؤلاء الثلاثة ثم نقلوه إلىٰ أهل الحيرة وسائر عرب العراق، وتعلمه من أهل الحيرة بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل، وكان من أصحابه حرب بن أمية إذ كان يتاجر في العراق فتعلم منه الكتابة، وسافر بشر بن عبد الملك صحبة حرب بن أمية إلىٰ مكة حيث تعلمها منه جماعة من أهلها.

ومن الملاحظ أن هذه الآراء تتفق في جعل الكتابة العربية مستمدة من الكتابة السائدة في بلاد اليمن وهي الخط المسند وتتناسب هذه الآراء مع

(١) الدكتور جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام جـ٧ ص٥٦ وما بعدها.

ما كان العرب يعرفونه عن حضارة بلاد اليمن، وأنها كانت مصدرًا مهمًا من مصادر الثقافة والحضارة في بلاد العرب، وأنها كانت متقدمة في مجال العلوم، والفنون والصناعة والزراعة وأنها كانت في كثير من الأحيان تفرض علىٰ الجزيرة العربية سلطانها السياسي وذلك بحكم سيطرتها علىٰ طرق التجارة العربية وعلىٰ طريق القوافل بين الشمال والجنوب وبحكم ثرائها وغناها وثروتها الكبيرة من البخور[١]، ومن الملاحظ أن بلاد اليمن قدمت عددًا غير قليل من الإخباريين الذين زودوا التاريخ العربي بكثير من أخبار العرب في الجاهلية والذين كانوا ينزعون بطبيعة الحال إلىٰ الإشادة بمجد اليمن ومن ثم يمكن اعتبار هذه الروايات التي تزعم أن الخط العربي مستمد من المسند من قبيل قصص الإخباريين الذين بالغوا في الإشادة بما كانت عليه اليمن من عز ومجد قبل الإسلام.

والحق أن مقارنة الحروف العربية بحروف المسند توضح اختلافًا أساسيًا بين الخطين ينفىٰ أي تأثير متبادل بينهما علىٰ أنه من الممكن أن نعتبر هذه الروايات التي تقول بتأثر الكتابة العربية بالخط المسند منصبة بصفة عامة علىٰ فكرة نشأة الحروف بعامة أي فكرة اتخاذ أشكال معينة وصور كتابية خاصة للتعبير عن الأصوات المحددة.

ويؤيد هذا الظن أن هذه الروايات تتكلم عن نشأة الكتابة أو الخط بصفة عامة، كما أنها لا تقول بالانتقال المباشر من المسند إلىٰ العربية وإنما تشير إلىٰ مراحل انتقال إذ تجعل الكتابة العربية منقولة عن كتابات أخرىٰ كانت قد نقلت بدورها بالتعاقب من المسند.

(١) دكتور حسن الباشا: طرق التجارة العربية من عصر سبأ إلىٰ صدر الإسلام، المجلة العدد ٤.

والحق أن الكتابة في بلاد اليمن يجب أن يكون لها اعتبارها عند الكلام عن نشأة الكتابة بوجه عام: إذ أنه قد عثر في بعض الأقطار علىٰ كتابات أرجعها بعض العلماء إلىٰ حوالي ١٠٠٠ سنة ق.م، وهي مكتوبة بخط جميل منسق ومن ثم يمكن اعتبارها من أقدم ما عرف من الكتابة بحروف منمقة.

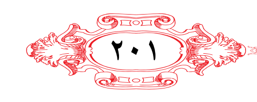
القسم الثالث: روايات ترجع أصل الكتابة العربية إلىٰ شمال بلاد العرب أو العراق، وهي تختلف فيما بينها في بعض التفاصيل بحيث يمكن أن نقسمها هي الأخرىٰ إلىٰ أقسام فرعية كما يلي:

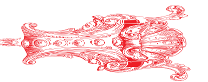
أولًا: روايات ترجع أصل الخط العربي إلىٰ مدين في شمال الحجاز، وهذه تروي أن أول من وضع الخط العربي هم أبجد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت وهم قوم من الجبلة الآخرة حسب بعض الآراء، أو بنو المحصن بن جندل بن يصعب بن مدين حسب البعض الآخر، وكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز، وكان الآخرون ملوكا لمدين أو لمضر فوضعوا الحروف حسب أسمائهم ثم زادوا عليها باقي الحروف، وهي ث، خ، ذ، ض، ظ، غ (ثخذ ضظغ) وأطلقوا عليها اسم الروادف.

ثانيًا: رواية تذكر أن أهل مكة تعلموا الكتابة من آياد من أهل العراق، ويروىٰ بهذا الصدد شعر علىٰ لسان أمية بن أبي الصلت جاء فيه:

قوم لهم ساحة العراق إذا ... ساروا جميعًا والخط والقلم[(١)]

(١) بلوغ الأرب جـ٣ ص٣٦٩ عن الدكتور جواد علىٰ: المرجع السابق ص٥٨.





ثالثًا: روايات تقول بأن الخط العربي وضع علىٰ مثال الخط السرياني وقد قام بذلك حسب هذا الرأي ثلاثة نفر، هم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة، وكان هؤلاء الثلاثة من طيء اجتمعوا ببقة (أو بغيرها) فوضعوا الخط علىٰ مثال الخط السرياني فتعلمه منهم جماعة من الأنبار ثم تعلمه أهل الحيرة، ومن الحيرة أخذه بشر وكان نصرانيًا ثم نقله إلىٰ مكة حيث تعلمه منه سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن زهرة ابن كلاب.

رابعًا: رواية تقول إن أهل مكة تعلموا الكتابة من أحد اليهود[1]. وتتلخص آراء القسم الثالث في أن الكتابة العربية متأثرة بالكتابة السريانية وأن عملية النقل كانت في الحيرة أو الأنبار أو مدين وأن هذا النقل اشترك فيه يهود ونصارىٰ وأنه تم في عهد قريب من الإسلام.

غير أن المحاولات الحديثة للتوصل إلىٰ نشأة الكتابة العربية عنيت بصفة خاصة بدراسة طبيعة الخطوط القديمة ومقارنتها بالكتابة العربية الإسلامية وذلك في سبيل التعرف علىٰ أقرب الكتابات القديمة شبهًا بالكتابة العربية الإسلامية، وتتبع مراحل التطور من الكتابات القديمة المذكورة إلىٰ الكتابة العربية الإسلامية في ضوء النقوش الأثرية التي عثر عليها في شبه الجزيرة العربية أو بالقرب منها مع الإفادة في الوقت نفسه بالروايات التاريخية وقصص الإخباريين.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشىٰ جـ٣ ص٨.

ومن المعروف أن الكتابات التي عرفت في بلاد العرب أو بالقرب منها قبل الإسلام تنقسم قسمين:

(١) قسم أقدم، وهو عبارة عن الخط المسند، وهو الخط الذي دونت به اللغات في جنوب بلاد العرب مثل المعينية والسبئية والحميرية والقتبانية والأوسانية كما دونت به لغات انتشرت في أنحاء أخرىٰ من شبه جزيرة العرب ولكنها متأثرة بلغات الجنوب وهي الثمودية والصفوية واللحيانية.

(٢) القسم الأحدث، ويتألف من المجموعة السامية الشمالية للخطوط، ومن هذه المجموعة: الخط الآرامي، وكذلك الخط النبطي الذي اشتق من الخط الآرامي المتأخر، وقد تطور الخط النبطي شأنه شأن غيره من الخطوط فصار له أسلوب قديم وأسلوب متأخر، وامتاز الأسلوب المتأخر بميله إلىٰ ربط الحروف بعضها ببعض[(١)].

وإذا تأملنا أقدم الكتابات العربية الإسلامية سواء أكانت كتابات أثرية أم كتابات علىٰ العملة أو الصنج أم في البرديات أم الرق ودرسنا أشكال حروفها نجد أنها أقرب شبهًا بالخط النبطي منها بالخطوط الأخرىٰ التي سبقت الإشارة إليها مما يرجح أن الخط العربي قد تطور عن الخط النبطي، غير أنه لتأكيد هذا الرأي لابد من التعرف علىٰ مراحل التطور من الخط النبطي إلىٰ الخط العربي، هذا وقد عثر علىٰ خمسة نقوش يمكن أن تساعد في التعرف علىٰ هذه المراحل وهي ترجع إلىٰ ما قبل الإسلام، ويرىٰ

---

(١) الدكتور جواد علي: المجرع السابق ص٢٧١.

البعض أن الموازنة بين أحدث الكتابات النبطية وبين هذه النقوش الخمسة المذكورة وبين أقدم الكتابات العربية الإسلامية ترجح أن الخط العربي تطور من الخط النبطي ولو أنه ما زال كثير من حلقات التطور مفقودة.

أما النقوش الخمسة المشار إليها فلم يعثر عليها في بلاد العرب وإنما جاءت كلها من إقليم الشام، وربما كان من الخطأ أن نسمي هذه النقوش جميعا نقوشًا عربية صرفة إذ أنها مكتوبة بلغة غير عربية وبخط غير عربي ولكنها مع ذلك أقرب الكتابات التي ترجع إلىٰ ما قبل الإسلام شبها وصلة بالخط العربي فمن جهة نجد أن حروفها من حيث الشكل قريبة من الحروف العربية ومن جهة أخرىٰ نجد أن أصحاب هذه النقوش عرب كما يدل علىٰ ذلك أسماؤهم وتاريخهم وبالإضافة إلىٰ ذلك فإن بعض هذه النقوش مكتوب بلغة عربية صرفة في حين أن الباقي تبدو عليه ملامح عربية إما في التركيب أو في بعض الألفاظ، وأقدم هذه النقوش نقش يطلق عليه اسم (نقش أم الجمال الأول) وقد عثر عليه في أم الجمال جنوب حوران بالأردن، وقد عثر في هذا الموضع نفسه علىٰ نقش آخر يرجع إلىٰ تاريخ أحدث ولذلك اصطلح علىٰ تسمية النقش الأقدم بنقش أم الجمال الأول، والنقش الأحدث بنقش أم الجمال الثاني(١).

ويرجع نقش أم الجمال الأول إلىٰ سنة ٢٥٠م هو من النوع الجنائزي ووجد علىٰ قبر مصحوبًا بترجمة باللغة اليونانية، وهو مكتوب بلغة غير عربية هي اللغة النبطية وليس به من العربية إلا اسم صاحب الكتابة وتمتاز الكتابة بظهور روابط عديدة بين الحروف ولكن الربط بين الحروف يختلف عن الربط المعروف في الكتابة العربية الإسلامية.

---

(١) Littmann, in zeitschrift fur Semitistik und Vewandte Gebiete, VII, p. 197 ff.

* نقش النمارة:

وهو من حيث التاريخ يأتي بعد الكتابة السابقة وقد عثر عليه علىٰ بعد كيلو متر من النمارة شرقي جبل الدروز، ووجد علىٰ قبر امرئ القيس الأول ابن عمرو ملك العرب المتوفي في يوم ٧ بكسلول سنة ٢٢٣هـ (سنة ٣٢٨م).

وهو أيضًا من النوع الجنائزي وهو أيضا مكتوب باللغة النبطية وإن كانت لهجته عربية، ويشمل بعض الألفاظ والتراكيب العربية وهو قريب الشبه من الكتابة العربية في صدر الإسلام لا سيما من حيث الوصل بين الحروف كما أن حروف لا تختلف كثيرًا عن الحروف الإسلامية الأولىٰ.

* نقش زيد:

وقد عثر عليه في خرائب زيد بين قنسرين ونهر الفرات جنوب شرقي حلب، وتاريخه يرجع إلىٰ سنة ٥١١-٥١٢م ووجد مصحوبا بنقشين أحدهما يوناني والآخر سرياني مؤرخين، ولا يشتمل هذا النقش إلا علىٰ أسماء وصياغته نبطية ولكن خطه قطع مرحلة نحو الكتابة الإسلامية أوسع عن نقش النمارة.

* نقش حران:

وعثر عليه في حران في المنطقة الشمالية في جبل الدروز ويرجع إلىٰ سنة ٥٨م وهو مصحوب بنقش يوناني ومكتوب بلغة عربية لا تختلف كثيرا عن لغة القرآن، كما أن صورة الكتابة لا تختلف عن الصورة العربية الإسلامية.

* نقش أم الجمال الثاني:

عثر عليه في أم الجمال ويرجع إلىٰ القرن ٦م ولغته قريبة جدًا من لغة القرآن ومتحررة تحررًا كبيرًا من اللغة النبطية.

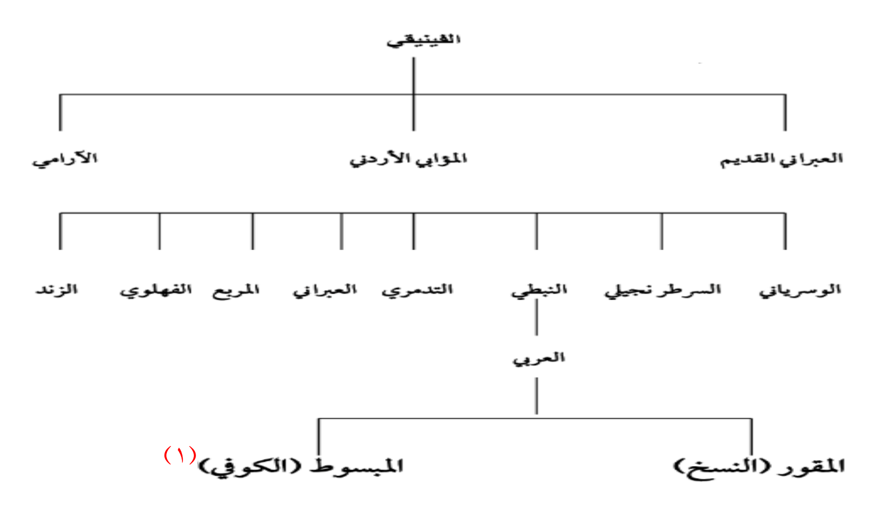
وبعد فهذه النقوش السابقة هي الكتابات التي عثر عليها وترجع إلىٰ ما قبل الإسلام وتشبه من حيث الشكل أو اللغة أو الكتابة العربية الإسلامية[١] ومن ثم اعتبرت من الكتابات العربية الجاهلية وإن غلب علىٰ بعضها الطابع النبطي.

وقد لاحظ بعض العلماء من تتبع هذه الكتابات من نقش أم الجمال الأول إلىٰ نقش أم الجمال الثاني، أن هذه النقوش يمكن أن تمثل مرحلة انتقال من الخط النبطي إلىٰ الخط العربي في صدر الإسلام مما يرجح تطور الخط العربي عن الخط النبطي.

غير أنه من الواضح أنه يلزم الحصول علىٰ عدد أكبر من الكتابات حتىٰ يمكن تأكيد هذا الرأي وحتىٰ يمكن التعرف علىٰ جميع حلقات التطور، وإذا ثبت هذا الرأي فإن الخط العربي يكون متطورا من النبطي الذي تطور عن الآرامي، وهذا تطور بدوره عن الفينيقي.

---

(١) الدكتور جواد علىٰ: المرجع السابق ص٦٢.



هذه النتيجة التي وصل إليها العلماء عن طريق الدراسة المقارنة للخطوط يؤيدها شواهد أو قرائن أخرىٰ يمكن تلخيصها فيما يلي:

(١) تكاد روايات الإخباريين العرب تجمع علىٰ انتقال الكتابة العربية من الشمال إلىٰ الجنوب حتىٰ تلك الروايات التي تقول بأن الكتابة العربية مستمدة من المسند إذ أنها تؤكد الانتقال عن طريق الشمال[٢].

(٢) تذكر بعض الروايات أن ملوك مدين الذين قاموا بوضع الحروف العربية كانوا يسمون «أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت»، وأن الحروف العربية وضعت علىٰ أساس ترتيب هذه الأسماء ثم أضيف إليها الروادف الناقصة، ثخذ ضظغ[٣].

---

(١) انظر: Encyclopaedia of Islam.

(٢) انظر مثلا ابن خلدون: المقدمة ص٣٤٩.

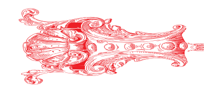
(٣) ابن النديم: الفهرست ص٦.

والواقع أن هذا الترتيب متفق مع ترتيب حروف الأبجدية النبطية مما يوحي بتأثر الكتابة العربية بالكتابة النبطية، وكان هذا الترتيب هو المستعمل للأبجدية العربية في القرون الأولىٰ من الإسلام ولا يزال مستعملا إلىٰ اليوم في بعض الجهات.

(٣) يلاحظ أن الترتيب العددي للحروف الذي اصطلح عليه العرب حتىٰ اليوم يتفق مع ترتيب «أبجد هوز . . . إلخ» وفي الوقت نفسه يتفق مع الترتيب النبطي المقارن للأعداد والحروف ثم يلي ذلك الحروف العربية الجديدة التي لم تكن معروفة في النبطية والتي سميت بالروادف وهذه الروادف ليس فيها جديد من حيث الشكل وهي ث - خ - ذ - ض- ظ - غ، وهذا يدل علىٰ أن هذا الترتيب هو الذي كان معروفًا في القرون الأولىٰ للإسلام وأنه مستمد بدوره من الترتيب النبطي للحروف.

(أ ١، بـ٢، جـ٣، د٤، هـ٥، و٦، ز٧، ح٨، ط٩، يـىٰ١٠، ك٢٠، ل٣٠، م٤٠، ن٥٠، س٦٠، ع٧٠، ف٨٠، ص٩٠، ق١٠٠، ر٢٠٠، ش٣٠٠، ت٤٠٠، ث٥٠٠، خ٦٠٠، ذ٧٠٠، ض٨٠٠، ظ٩٠٠، غ١٠٠٠).

أما عن كيفية انتقال الكتابة من الشمال إلىٰ الجنوب فليس لدينا من الكتابات أو الأدلة ما يوضحها علىٰ وجه التحقيق، وإن كان من المعتقد حسب الأخبار القليلة التي وصلتنا أن هذا الخط المتأثر بالخط النبطي أخذ ينتشر في مكة والمدينة علىٰ يد التجار العرب الذين كانوا كثيري الاحتكاك بالنبط أو بالحيرة حتىٰ استطاع أن يتغلب علىٰ كتابة المسند، وقد قضىٰ في




عصر مبكر علىٰ هذه الكتابة من شمال بلاد العرب وهي الكتابات الثمودية والصفوية واللحيانية، غير أن المسند بقىٰ في اليمن إذ عثر علىٰ نصوص به ترجع إلىٰ ما قبل الإسلام مباشرة[١] وربما ساعده علىٰ البقاء في اليمن أنه كان قريب الشبه بخط الحبشة التي كانت مسيطرة علىٰ اليمن في ذلك الوقت، هذا بالإضافة لأصالة المسند وعمق جذوره، وبلوغه درجة كبيرة من الجمال والتأنق، علىٰ أنه بظهور الإسلام تم القضاء نهائيًا علىٰ خط المسند، وتم انتصار الكتابة العربية الشمالية.

* تطور الكتابة العربية بعد ظهور الإسلام:

بالرغم مما أورده المؤلفون من أخبار وآراءه بخصوص نشأة الكتابة العربية وتطورها فإن تاريخ هذه الكتابة لا يزال مشكلة تحتاج إلىٰ كثير من الدراسة ولا سيما فيما يتعلق بتطور الخط العربي فيما قبل الإسلام، إذ أنه لم يصلنا من الكتابات العربية التي تعود إلىٰ عصر ما قبل الإسلام غير بضع كتابات أثرية بعضها مكتوب بلغة غير عربية أو بخط غير عربي، وبظهور الإسلام أخذ شأن الكتابة العربية في الازدهار إذ لم يلبث أن انتشر العرب في كثير من أجزاء العالم المتحضر في ذلك الوقت وامتد نفوذ العرب المسلمين في نحو قرن من الزمان من حدود الهند شرقًا إلىٰ المحيط الأطلسي غربا، ومن ثم أصبحت اللغة العربية ذات قيمة سياسية إلىٰ جانب أهميتها الدينية والأدبية، وتبع ذلك بطبيعة الحال التمكين للكتابة العربية التي لم يقتصر نفوذها علىٰ اللغة العربية بل امتد خارج نطاقها فصارت تكتب بها فيما بعد لغات أخرىٰ غير عربية[٢].

---

(١) من أمثلة ذلك نص أبرهة.

(٢) مثل اللغة الفارسية والأوردية والتركية وغيرها.

وكان من الأسباب الرئيسية في انتشار الكتابة العربية تعريب الدواوين في عهد الخليفة الأموي (عبد الملك بن مروان)، كما كان الخط العربي الوسيلة الأساسية التي حفظ بها القرآن الكريم إذا اتخذ النبي ﷺ كتابا يدونون الآيات الكريمة عند نزولها بخط عربي، وفي عهد أبي بكر تم جمع القرآن الكريم بعد أن استشهد كثير من حفظته في ميادين الجهاد، وفي عهد عثمان دونت المصاحف علىٰ رسم واحد وأرسلت إلىٰ الأقطار الإسلامية المختلفة، وهكذا كان للخط العربي دوره في حفظ القرآن وفي تداوله وانتشاره والتعبد بتلاوته وذلك بفضل الله تعالىٰ.

وكان لكتابة القرآن ولقراءته في المصاحف أثر كبير في إعلاء شأن الخط العربي وفي الرغبة في تحسينه وتزيينه وفي النظر إليه بإكبار وبتأمله بمتعة روحية مما أدىٰ إلىٰ زيادة العناية به والمبالغة في تزويقه وتجميله والتطور به تطورًا زخرفيًا فنيًا.

ويتضح جانب من جانب العناية بالكتابة العربية فيما أدخله علماء اللغة من علامات الإعراب والإعجام وكان الهدف الأساسي من ذلك هو الرغبة في تفادي الخطأ لا سيما في تلاوة القرآن الكريم.

وساعد علىٰ العناية بالخط العربي أيضًا ما تشتمل عليه تعاليم الإسلام من تقدير للكتابة إذ أقسم بها الله ﷻ فقال جل شأنه: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، وامتدح سبحانه ملائكته فقال: ﴿كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١]، كما أشير إليها في أول الآيات التي نزلت علىٰ النبي ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١-٥]، كما أن العناية بالكتابة مظهر من مظاهر العلم والتحضر والمدنية التي عمل الإسلام علىٰ تنميتها ونشرها، والكتابة في

الوقت نفسه من أهم وسائلها، ومن الملاحظ أنه قرن بين العلم والكتابة في الآيات الكريمة السابقة[١].

ومن جهة أخرىٰ يلاحظ أن طبيعة الخط العربي وأشكال حروفه وما تمتاز به من الموافقة والطواعية والمرونة هيأت الفرص المناسبة للتحسين والإجادة وابتكار الأشكال الجميلة وكانت هذه الظروف كلها مما هيأ المجال لأن يحتل الخط العربي ومزاولوه من الخطاطين أعلىٰ درجة من التقدير والإعزاز بالنسبة للفنون الإسلامية الأخرىٰ كما حظي الخطاطون بعناية الفنانين القدامىٰ والمحدثين فصنفت عنهم المقالات والكتب التي تناولت الكلام عن حياتهم وأخبارهم وأشادت ببراعتهم وبما وهبهم الله من فن جميل.

أما الخط العربي نفسه فقد احتل مكان الصدارة بين الفنون الأخرىٰ ولم يقف دوره عند حد استخدامه كوسيلة للتعليم أو للمكاتبات العادية أو الرسمية أو تدوين المصاحف بل استخدام أيضًا كعنصر زخرفي أثري وفي الكتابات التذكارية، وزينت به العمائر وزوقت به منتجات الفنون التطبيقية وأقبل المسلمون علىٰ اقتناء نماذجه الجميلة، والحق أن الخط العربي لعب في عالم الفن والزخرفة دورًا مشهودًا فاق كثيرًا من الكتابات الأخرىٰ.

وربما كان من أهم مظاهر العناية بالخط العربي تفريعه إلىٰ عدد من الخطوط يتميز كل منها بخصائص معينة وأهم هذه الخطوط نوعان رئيسيان هما الخط الكوفي المزوي الجاف والخط النسخ المقور.

وكانت نشأة هذين الخطين وتطورهما مثار آراء مختلفة، وكان الرأي الشائع أن الخط الكوفي كان أسبق من حيث الظهور وأن الخط النسخ قد

(١) دكتور حسن الباشا: الخط الفن العربي الأصيل، حلقة بحث الخط العربي ص٢٥.

تطور منه، غير أن الحقيقة هي أن الخط العربي يحمل منذ البداية بذور الطابعين المبسوط والمقور أي أن الخطين الكوفي والنسخ قد ظهرا منذ البداية ولم يتطور أحدهما من الآخر.

غير أنه في القرون الخمسة الأولىٰ غلب استعمال الخط المبسوط في المصاحف وفي الكتابات التذكارية الأثرية وفي زخرفة الفنون التطبيقية في حين غلب استعمال الخط المقور في المكاتبات اليومية وفي نسخ الكتب، وأقدم ما وصلنا من أمثلة لاستخدامه في النقوش سد العيار بالطائف الذي يرجع إلىٰ عهد معاوية بن أبي سفيان، وكتابات قبة الصخرة، وكتابات الأميال من عهد عبد الملك بن مروان[١]، وأدت سهولة تنسيق هذا الخط وتزويقه وزخرفته إلىٰ أن أصبح أشبه بخط رسمي طوال القرون الخمسة الأولىٰ حتىٰ كاد أن ينفرد وحده بتدوين المصاحف وفي الكتابات التذكارية وفي النقوش الزخرفية وعلىٰ المسكوكات الإسلامية.

* أنواعه:

وقد تفرع هذا الخط الكوفي إلىٰ عدد كبير جدًا من الخطوط[٢] يتميز كل منها بميزات معينة وأهم هذه الخطوط الكوفية ما يلي:

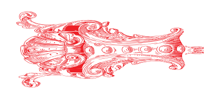
(١) كوفي بدائي ويمثله شاهد الحجري المؤرخ في سنة ٣١هـ.

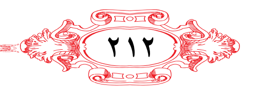
(٢) كوفي بسيط وأمثلته كتابات قبة الصخرة من عهد عبد الملك ابن مروان سنة ٧٢هـ ولم يعرف في القرن الأول الهجري من الخط الكوفي غير هذين النوعين.

---

(١) Van Berchem, CIA Jrusalem, I, No I, III, pl. I, II.

(٢) Flury, Ornamental Kufic lnscriptions on pottery, Survey of Persian Art.





(٣) كوفي ذو طرف متقن.

(٤) كوفي مزخرف الطرف بزخارف هندسية بسيطة.

(٥) كوفي مورق.

(٦) كوفي مزهر، وقد عرف من هذا النوع خط يسمىٰ الخط القرمطي وشاع استخدامه في الدولة الفاطمية.

(٧) كوفي مجدول أو مضفر.

(٨) كوفي محدد بشريط زخرفي وفيه يضاف في أعلىٰ شريط الكتابة شريط زخرفي مؤلف من وحدات زخرفيه متكررة.

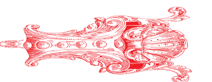
(٩) كوفي ذو أرضية نباتية.

(١٠) كوفي معماري.

(١١) كوفي مربع.

* الخط النسخ:

وإذا كان النوع المبسوط من الخط أسهل من حيث التنسيق والزخرفة بحيث صار في الإمكان تطويره وتجميله في وقت قصير نسبيًا فإن الخط المقور أو النسخ كان من جهة أخرىٰ أسهل تناولا بصفة عامة وذلك لما يمتاز به من ليونة، ويتمثل أقدم ما وصلنا من نماذج الخط المقور في وثيقة من البردي عبارة عن مكاتبة صادرة من أحد عمال عمرو بن العاص علىٰ أهناسيا في مصر مؤرخة في سنة ٢٢هـ ومكتوبة باللغة العربية واليونانية وهي كتابة خالية من العناية والتنسيق.



غير أن الخطاطين المسلمين أخذوا يبذلون جهدهم في سبيل العناية بهذا النوع من الخط منذ أواخر العصر الأموي ولا سيما بعد استخدام الورق في العالم الإسلامي، ويرجع الفضل في تحسين هذا النوع من الخط وتجميله إلىٰ سلسلة من الخطاطين الأفذاذ نذكر منهم ثلاثة هم: ابن مقله، وابن البواب[١]، وياقوت المستعصمي، وكان هؤلاء الخطاطون الكبار يتوارثون الخط المقور، ويضيف كل منهم من فنه إلىٰ تراث سلفه حتىٰ استطاعوا أن يطوروا خطًا جميلا قليل الزوايا كثير الاستدارة: هو الخط المنسوب الذي صارت أجزاؤه تخضع لمقاييس ونسب معينة تضفي عليه جمالا ورونقا وبهاء[٢].

وما أن وصل الخط المقور أو المنسوب إلىٰ درجة مناسبة من التجويد والتنسيق والجمال حتىٰ أخذ ينافس الخط المبسوط أو الكوفي كخط رسمي وزخرفي إلىٰ جانب استخدامه في الكتابة العادية وفي المؤلفات والكتب.

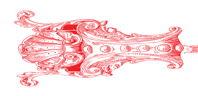
وحقق الخط النسخ انتصاره التام منذ عصر السلاجقة والأيوبيين: إذ صارت تدون به المصاحف الفخمة، واحتل الصدارة في الكتابات الأثرية والزخرفية علىٰ المباني والتحف الفنية، ومع ذلك لم يفقد الخط الكوفي قيمته الزخرفية: ذلك أنه ظل يستخدم علىٰ نطاق ضيق إلىٰ جانب النسخ في الكتابات الأثرية والزخرفية.

ولا يزال الخطان محتفظين بهذه المكانة حتىٰ عصرنا الحاضر.

---

(١) الدكتور سهيل أنور: الخطاط البغدادي علىٰ بن هلال المشهور بابن البواب - ترجمة محمد بهجة الأثري وعزيز سامي ص٢٢ وما بعدها.

(٢) القلقشندي: المرجع السابق جـ٣ ص١٣.




وقد تفرع من الخط المقور عدة خطوط اندثر بعضها وبقىٰ البعض الآخر ومن أهم أفرع الخط المقور الخطوط الآتية:

(١) الخط النسخ. (٢) الخط الثلث.

(٣) خط التوقيع (الإجازة). (٤) النستعليق.

(٥) الخط الفارسي. (٦) الخط الديواني.

(٧) الخط الهمايوني. (٨) الطغراء.

(٩) السياقت. (١٠) الرقعة.

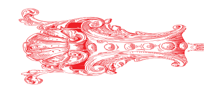
العمارة

وبالإضافة إلىٰ الخط مارس المسلمين كثيرًا من المجالات الفنية ومن أهم هذه المجالات «فن العمارة».

وقد زاول المعماريون المسلمون بناء جميع أنواع العمائر تقريبًا فخلفوا لنا كثيرًا من العمائر الإسلامية من مساجد ومدارس وقلاع وقصور وأبواب مدن ومداخل أسواق وأسوار مدن وحمامات ووكالات وخانقاوات وأربطة ومطابخ، وبيمارستانات ومساكن وغير ذلك من المؤسسات الدينية والمدنية والعسكرية، كما خططوا المدن وعبدوا الطرق وشقوا القنوات وشيدوا القناطر، ووصلتنا أمثلة كثيرة من العمائر الإسلامية في مختلف الأقطار الإسلامية، وتتميز العمارة الإسلامية بوحدات وعناصر معمارية خاصة بها، كالمآذن والقباب والمداخل والعقود والأعمدة والتيجان والمحاريب[(١)].

ومن أهم العناصر المعمارية الإسلامية (المقرنصات) وهي عبارة عن أشكال زخرفية علىٰ هيئة صفوف من الحنيات أو المحاريب الصغيرة بعضها فوق بعض، تكسو خطوط التقابل بين الأسطح الأفقية والرأسية وفي الزوايا وقد تتدلىٰ منها في بعض الأحيان دلايات، وقد تصنع هذه المقرنصات من الحجر أو الجص أو الطوب أو الخشب أو الخزف أو الزجاج أو المرايا،

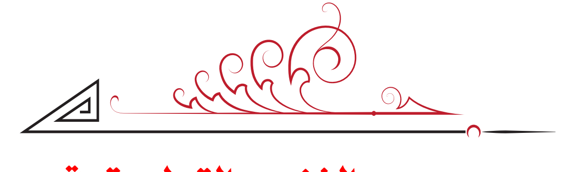
(١) دكتور فريد شافعي: العمارة العربية ص٥٨١-٦٢٢.




وقد اتخذت المقرنصات في الزخرفة في فنون تطبيقية مثل الخشب والخزف والمعادن وغيرها.

وتعتبر المقرنصات من العناصر الإسلامية المميزة الأصلية التي أنفرد بها الفن الإسلامي، ووجودها في أي إنتاج فني غير إسلامي يدل علىٰ تأثره بالفن الإسلامي[١].

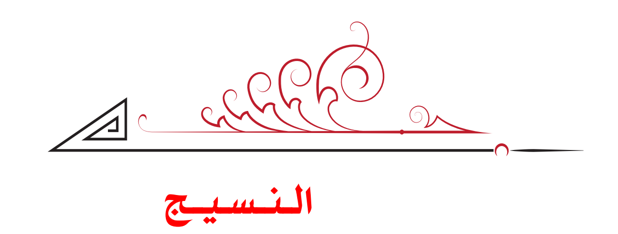
(١) Dr.Hassan El-Basha, The Muqarnas, Minbar Al-Islam, V, No. I: VI, No. I.



الفنون التطبيقية

احتلت الفنون التطبيقية مركزًا أساسيًا بين الفنون الإسلامية المختلفة إذ تفوق المسلمون فيها علىٰ غيرهم من الشعوب ونذكر هنا علىٰ سبيل المثال فن النسيج والخزف وصناعة الورق[(١)].

(١) دكتور زكي محمد حسن: أطلس الفنون الزخرفية ص٧ وما بعدها.



النسيج

ومن الصناعات والفنون التي حظيت بعناية خاصة في ذلك العصر فن النسيج وذلك لأنه من أهم مظاهر التحضر والتمدين من جهة كما أن الخلع المنسوجة كانت من أبرز مراسم التشريف والتكريم التي وصلت درجة كبيرة من التنظيم والإتقان في الدولة الإسلامية.

وبدأت العناية بالنسيج في العصر الأموي ثم ارتقت وتقدمت تقدمًا سريعًا في العصر العباسي واتجهت صناعة النسيج اتجاهين: اتجاهًا شخصيًا واتجاهًا رسميًا، فمن جهة وجدت أنوال النسيج أو أدوات للنسيج كانت تشرف عليها الدولة وكان يطلق عليها اسم الطراز.

* الطراز[١]:

والطراز كلمة معربة عن لفظة «ترازيدن» الفارسية بمعنىٰ يطرز أو يوشي وقد استخدمت لفظة الطراز لتدل علىٰ العبارة الرسمية التي كانت تنقش علىٰ النسيج أو العملة أو غير ذلك من الأشياء ذات الطابع الرسمي: إذ جرت العادة أن تتخذ كل دولة لنفسها طرازا أو عبارة متميزة كشعار خاص بها وكان الطراز المستعمل في مصر والشام عند فتح العرب لهما هو طراز الدولة الرومانية الشرقية أو البيزنطية، واستمر هذا الطراز مستعملا إلىٰ أن نقله عبد الملك ابن مروان إلىٰ العربية، وجعله «لا إله إلا الله» واستخدم الطراز

(١) Encyclopaedia of Islam, Tiraz.

العربي في سائر أقطار الدولة الإسلامية وظل كذلك في جوهره، وكان يتضمن عادة اسم الخليفة أو السلطان أو ذوي النفوذ من الوزراء والأمراء.

ونظرًا إلىٰ أن أكثر المواد التي كان يرد عليها الطراز هو النسيج كما كان يعمل منه الثياب التي كان يخلعها الخلفاء علىٰ رجال الدولة ويهدونها لهم من باب التشريف وعلامة علىٰ رضاهم عنهم وإقرارهم في مناصبهم صارت دور النسيج أو مصانع النسيج تسمىٰ بالطراز، وصار المشرف علىٰ هذه الدور يسمىٰ صاحب الطراز[١].

وبدأت الدولة تنشئ مصانع النسيج أو الطراز منذ أواخر العصر الأموي[٢]، ثم تطورت هذه المصانع وازداد تنظيمها في العصر الفاطمي والعباسي، وعرف العالم الإسلامي نوعين من الطراز أو من مصانع النسيج: هما طراز الخاصة: أي الدور التي تقوم بإعداد نسيج الخلفاء والسلاطين وكبار رجال الدولة، وطراز العامة: أي الدور التي تقوم بعمل نسيج عامة الشعب.

* مراكز صناعة النسيج:

واشتهرت كثير من المدن في العالم الإسلامي بصناعة النسيج ولا سيما في مصر وإيران والعراق، ومن أهم مراكز صناعة النسيج في مصر: دمياط والإسكندرية وتنيس والفيوم والبهنسا، وكان القطن والكتان ينسجان في مراكز الصناعة المصرية المختلفة، ومن المعروف أن الولاة المصريين كانوا يرسلون إلىٰ الخلافة العباسية كثيرا من المنسوجات النفيسة ضمن الأموال المقررة أو الهدايا التي كانوا يبعثون بها إلىٰ الخلفاء، وفي متحف برلين قطعة من النسيج المصري باسم الخليفة

(١) دكتور حسن إبراهيم حسن: نظم ص٢١٩.

(٢) Lewis, The Arabs in History, p. 86-7.

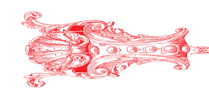
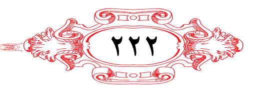
المعتمد مؤرخة سنة ٢٧٨هـ (٨٩١م)، وقطعة أخرىٰ باسم الخليفة المكتفي والأمير هارون بن خمارويه مؤرخة سنة ٢٩١هـ (٩٠٤م) أي قبل سقوط الدولة الطولونية بسنة واحدة.

ووصلتنا مجموعة من قطع النسيج من الصوف ومن الصوف والكتان ترجع إلىٰ كورة الفيوم أي إقليم الفيوم وتنسب إلىٰ حوالي القرن الرابع الهجري، ويزخرف كثيرا من هذه القطع رسوم تتألف عادة من أشرطة تشتمل علىٰ زخارف وصور حيوانات وطيور وآدميين بالإضافة إلىٰ أشرطة من الكتابة العربية الزخرفية المحورة التي قد تكون عبارة كاملة ذات معنىٰ أو تكرارا لكلمة واحدة، أو مجرد زخارف من حروف تؤلف كلمات لا معنىٰ لها، وفي متحف الفن الإسلامي بالقاهرة قطعة منسوجة من الصوف والكتان بها شريط من الكتابة العربية مرسومة بأسلوب زخرفي يقرأ «... ونعمة كاملة لصاحبه مما عمل في طراز الخاصة بمطمور من قرىٰ كورة الفيوم»، وفي أعلىٰ هذه الكتابة شريط أحمر اللون به صف من الجمال البيضاء والخضراء مرسومة بأسلوب هندسي محور جدا[1]. وبالرغم من أنه لم يصلنا من العراق نماذج كثيرة من النسيج فإن ما وصلنا منها ليشهد بالمستوىٰ الرفيع الذي وصلته صناعة النسيج في العراق.

ومن هذه النماذج قطعة محفوظة في إحدىٰ كنائس مدينة ليون في إسبانيا تنسب إلىٰ القرن الرابع والخامس الهجري تشتمل علىٰ زخارف علىٰ هيئة دوائر كبيرة بداخلها رسم اصطلح علىٰ تسميته بشجرة الحياة وقوامه رسم فيلين متماثلين ومتواجهين وبينهما شجرة متماثلة الجانبين مرسومة بأسلوب هندسي تجريدي، وذلك بالإضافة إلىٰ صور طيور وسباع وطراز من الكتابة الكوفية يقرأ فيه «البركة من الله» و«مما عمل في بغداد» و«أبو النصر».

---

(١) الرقم في السجل ٩٠٦١.

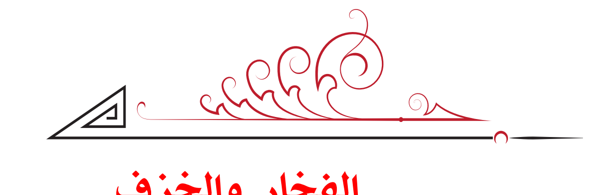
أما إيران فقد ازدهر فيها كثير من مراكز النسيج، ويتضح مما ورد في المؤلفات التاريخية والجغرافية القديمة حيث ذكر بعض هذه المراكز مثل مرو وأصبهان وشيراز ونيسابور وفي متحف الفن الإسلامي بالقاهرة عدة قطع من نسيج مرو ونيسابور نجد علىٰ واحدة منها اسم الخليفة العباسي المعتمد علىٰ الله وعلىٰ أخرىٰ اسم المقتدر بالله، وفي متحف اللوفر قطعة منسوجة من الحرير والقطن قوام زخرفتها فيلان متماثلان متواجهان تحتهما شريط من الكتابة بالخط الكوفي نصه: «عز وإقبال للقائد أبي منصور بختكين أطال الله بقاه . . .» ويرجع أن هذه القطعة من صناعة خراسان في القرن الرابع الهجري، وربما كان القائد بختكين المذكور في هذا النص هو قائد عاش في بلاط عبد الملك بن نوح أمير خراسان وما وراء النهار وقتل علىٰ يد هذا الأمير في سنة ٣٤٩هـ (٩٦٠م)[١].

هذا وقد بدأت في عصر السلاجقة نهضة كبرىٰ في صناعة النسيج سواء من حيث تقدم أساليب الصناعة والزخرفة أو من حيث ازدياد مراكز النسيج وانتشارها في سائر الأقاليم التي خضعت لحكم السلاجقة[٢] وكان بعض قطع النسيج السلجوقي يشتمل علىٰ حكم وأشعار من ذلك قطعة تنسب إلىٰ إقليم فارس عليها كتابة نصها: «لا تأمن الموت في طرف ولا نفس، ولو تمنعت بالحجاب والحرس» وقطعة أخرىٰ عليها عبارة نصها: «كل ابن أنثىٰ وإن طالت سلامته يومًا علىٰ آلة حدباء محمول».

ومما تجدر الإشارة إليه أن العالم الإسلامي كان يستورد القطن من آسيا والحرير من الصين، وقد استقرت صناعة الحرير بصفة خاصة في إيران وجرجان وسجستان، كما ازدهرت صناعة السجاد في طبرستان وأرمينيا وكانت تعتبر من الصناعات المنزلية إلىٰ حد ما .

(١) دكتور زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ص٢١١ وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه ص٢١٦.



الفخار والخزف

فن الخزف من أهم الفنون التطبيقية الإسلامية، والخزف بصفة خاصة من المواد الأثرية القيمة، وترجع قيمته الأثرية إلىٰ عوامل كثيرة، أهمها ما يلي:

أولًا- الكثرة: ذلك أن مخلفاته تفوق غيره من أي مادة أثرية أخرىٰ والحق أن أكثر ما يستخرج من الحفائر الأثرية هو الفخار، وترجع كثرته إلىٰ أمور منها ما يلي:

(١) كثرة ما كان يصنع منه لشدة الحاجة إليه، فهو يستخدم في الأكل والشرب ولتخزين الحبوب والسوائل، أي أنه كثير الاستعمال في الحياة اليومية والمعيشية، بالإضافة إلىٰ استخدامه في الزينة.

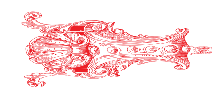
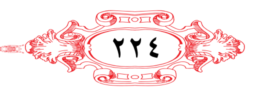
(٢) رخصه.

(٣) سهولة استعماله.

(٤) سرعة تلفه عن طريق الكسر.

(٥) استحالة إعادة تشكيله، بخلاف المواد الأخرىٰ مثل المعادن والزجاج.

(٦) الاستغناء عنه بمجرد كسره أو تلفه، علىٰ عكس المواد الأخرىٰ، مثل النسيج والسجاد الذي يمكن استعماله حتىٰ يبلىٰ تماما.

(٧) كثرة استخدامه في الطقوس الدينية القديمة لتقديم القرابين من الطعام أو الشراب ووضعه في القبور.

ثانيًا- قيمته الأثرية: عن طريقة يمكن تتبع مراحل التطور الحضاري والفني:

ويرجع ذلك من جهة إلىٰ كثرة ما يكتشف منه ومن جهة أخرىٰ إلىٰ سرعة تطوره الفني، فأساليبه دائمة التطور، ومن ثم استخدمه علماء الآثار والفنون والحضارة في تتبع المراحل الحضارية(١)، وقد أمكنهم في كثير من الأحيان أن يرتبوا أساليبه ترتيبا زمنيًا ومن ثم استغل في تاريخ طبقات الحفر، وترتيب الطرز الفنية الأخرىٰ.

ثالثًا: ربما كان أقرب الفنون الزخرفية والتطبيقية إلىٰ روح الإنسان وأكثر صلة به من غيره وإن من يشاهد صانع الفخار، ولا سيما عاجن الطين ومشكله يشعر بقوة الامتزاج بين الإنسان والطين(٢).

ولقد تقدمت الصناعات والفنون الخزفية في العصور الإسلامية تقدما كبيرا، إذ أخضع المسلمون أقطارا كان لها ماض عريق في هذه الفنون مثل إيران والعراق والشام ومصر وبفضل الحكم الواحد تبادلت هذه الأقطار الخبرات المتعلقة بهذه الصناعات مما أدىٰ إلىٰ حدوث نهضة في هذا المجال، بعد أن كان فن الخزف قد أخذ في التدهور قبيل الفتح الإسلامي، وذلك نتيجة الخلل العام الذي أصاب هذه الأقطار في تلك الفترة، ومن هنا أخذت صناعة الخزف في الازدهار تحت الحكم الإسلامي، ويبدو أن هذا الانتعاش قد بدأ بصفة خاصة في إيران والعراق حيث وجدت التقاليد

(١) ليونارد دولي: مدخل إلىٰ علم الآثار ص٩٣.

(٢) صدق الله تعالىٰ حيث قال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

العريقة في هذه الصناعة، ولم يكتف الصناع الإسلاميون بالمحافظة علىٰ التقاليد القديمة في فن الخزف، بل أخذوا في تطويرها وابتكار أساليب جديدة لم تكن معروفة من قبل سواء في مجال الصناعة أو الزخرفة، واستفادوا في تطوير فنهم من الخزف الصيني الذي كان يستورد بكثرة إلىٰ العالم الإسلامي، وعثر علىٰ كميات كثيرة منه في الحفائر الإسلامية مثل حفائر (سامرا والفسطاط)[١].

*** وعرف المسلمون أنواعًا كثيرة من الخزف أهمها ما يلي:**

(١) الفخار. (٢) الفخار المطلي بالميناء.

(٣) الخزف. (٤) القاشاني.

(٥) الفسيفساء الخزفية. (٦) السلادون.

(٧) تقليد البورسلين.

وتختلف هذه الأنواع بعضها عن بعض من حيث نوع الطينة أو العجينة المستعملة ومن حيث التشكيل ورقة الجدران والطلاء والزخرفة والأدوات المنتجة واستعمالها.

ويصنع الفخار من الطين المحروق دون طلاء، وطينته أقل نقاءا من طينة الخزف وجدرانه أكثر سمكا وهو هش وأكثر مسامية ومن حيث القدم هو أقدم من حيث استخدام البشر له، ويستخدم الفخار في صنع القلل والازيار حيث يستفاد من مساميته في تبريد الماء وفي بعض العصور طلي الفخار بالميناء وانتشر هذا الأسلوب في عهد المماليك.

(١) دكتور زكي محمد حسن: فنون الإسلام (باب الخزف).

ويستخدم في زخرفة الفخار طرق مختلفة منها، النقش والحفر والزخارف المجسمة المنفذة بطريقة الباربوتين «القرطاس»، أو الطبع بالأختام أو عن طريق القوالب وفي هذه الحالة يصنع جسم الإناء المستدير عادة من جزئين منفصلين ثم يجمعان معًا ويضاف إليهما رقبة الإناء والمقابض والقاعدة، ومن الآثار الفنية الفخارية التي تسترعي الانتباه (شبابيك القلل).

أما الخزف فهو النوع المطلي أو المزجج(١)، والطلاء يكون عادة بمادة زجاجية، وطينة الخزف تكون أكثر نقاء وصلابة من الفخار أما السلادون والبورسلين فيصنعان من عجائن مختلفة من عجينة الخزف وهذه العجائن أكثر تماسكا من الخزف، وهذه الأنواع كلها أكثر ما تستخدم في صناعة الأواني وصنعت في العصر الإسلامي أدوات كثيرة أخرىٰ من الخزف، مثل الأحواض، وكراسي العشاء ومساند الأرجل والنوافد والشمعدانات والتماثيل والمسارج، كما صنعت منه بلاطات القاشاني التي تستخدم في الكسوة والتبليط كما صنعت منه الفسيفساء الخزفية، وهي عبارة عن فصوص مختلفة الشكل والحجم مقطوعة من لوحات كثرة من الخزف المطلي بالألوان، يجمع بعضها إلىٰ بعض يصب عليها من الخلف، فيملأ جميع التجاويف وتتماسك الفصوص.

* وتمر صناعة الخزف بصورة عامة بعدة مراحل وهي:

الحصول علىٰ الطينة المناسبة، وتختلف الطينة من قطر إلىٰ آخر أو من جهة إلىٰ أخرىٰ، ولذلك فهي تتفاوت من حيث المادة والخامة، ومن حيث الجودة واللون، ومن ثم يفيد نوع الطينة أحيانا في تحديد مكان الصناعة،

(١) الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق: الفن الإسلامي، تاريخه وخصائصه ص١٢٦.

وبالتالي في تحديد العصر أو الطراز، ثم تعجن الطينة إلىٰ درجة معينة ثم تشكل، وكان التشكيل في أول الأمر يتم باليد، ثم صار يستعان بالدولاب أو العجلة لتدوير الطين، ثم يستخدم الصانع يده وأصابعه في التشكيل وإذا لزم الأمر استعمل أداة، وبعد التشكيل تجفف الأواني ثم تطلىٰ بالبطانة ثم تحرق في أفران في درجة معينة حسب الطينة أو الظروف، ثم تطلي بالطلاء الزجاجي وقد يستخدم التذهيب وأنواع أخرىٰ من الأطلية، ثم يعاد حرقها لتثبيت الطلاء، وربما تكرر حرقها أثناء الطلاء، وذلك حين استخدام طلاءات مختلفة يلزم حرقها.

ومن الملاحظ أن الخزف يشترك في عمله عدد من الأفراد لكل منهم مهمة خاصة، كالعجان، والخزاف الذي يقوم بالتشكيل، والعامل الذي يتولىٰ الحرق والمزخرف أو الرسام أو الدهان الذي يقوم بالطلاء أو عمل الزخارف وقد يشترك في الطلاء عدد من المزخرفين يصنع كل منهم نوعًا معينًا أو طلاء محددا أو رسما خاصا، ثم ينقله لمن يليه ويضيف إليه بدوره وهكذا.



مراكز صناعة الخزف

اشتهرت بصناعة الخزف أماكن معينة في العالم الإسلامي[(١)]، ويرجع ذلك إلىٰ وجود الطينة المناسبة للصناعة، وظروف أخرىٰ، ومن أشهر مناطق صناعة الخزف:

(١) بغداد، وسامراء، والموصل في العراق.

(٢) الري وقاشان والسوس في إيران.

(٣) الفسطاط والقاهرة والفيوم في مصر.

(٤) دمشق والرقة في الشام.

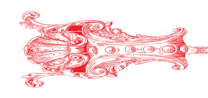
(٥) مالقة وغرناطة ومنيشة في الأندلس.

(٦) أزنيق وكوتاهية في آسيا الصغرىٰ وكان في أزنيق في عهد السلطان أحمد (سنة ١٦٠٣م- ١٦١٧م) ٣٠٠ مصنع للخزف.

ويتميز الخزف الإسلامي أنه يحمل توقيعات صناعة مثل مسلم وسعد وغيبي.

كما وصلتنا رسالة عن صناعة الخزف كتبها عبد الله بن علي بن محمد بن أبي طاهر في قاشان في ٧٠٠هـ - ١٢٠٠ فيها وصف بعض

(١) دكتور زكي محمد حسن: المرجع السابق.




العلميات في صناعة الخزف، وعين مصادر بعض المواد المستعملة فيه، وقد عثر علىٰ هذا الكتاب في استنبول.

* طرز الخزف الإسلامي:

وينقسم الخزف الإسلامي إلىٰ عدة طرز، بعضها اتخذ طابع الدولية أي أنه انتشر في أقطار كثيرة من العالم الإسلامي وبعضها اقتصر علىٰ الطابع المحلي أي أنه انفرد به قطر إسلامي، أو إقليم معين دون سائر الأقاليم أو الأقطار[١].

ومن الملاحظ أن الطراز المعين قد ينقسم بدوره إلىٰ عدة طرز ثانوية أو فرعية حسب اختلاف الأقطار والأقاليم والأزمنة بل والفنانين أنفسهم، وهذا ينطبق من حيث الصناعة ومن حيث الزخرفة أو كليهما معًا، ومن أهم طرز الخزف الإسلامي نوع من الخزف اصطلح علىٰ تسميته باسم الخزف ذي البريق المعدني (Lustre ware) ويتميز هذا النوع من الخزف بأنه يدهن أولا بدهان أبيض، أو أبيض مائل إلىٰ الزرقة أو الإخضرار ثم يجفف بالحرق، ثم يرسم هذا الدهان بالرسوم والزخارف المطلية بطلاء مكون من أكسيدات معدنية، ثم يجفف مرة ثانية ببطء فتتبخر الأكاسيد ويبقىٰ الطلاء المعدني الذي يتخذ بريقًا يشبه بريق المعادن، وهو في الأغلب ذهبي اللون أو أصفر مائل إلىٰ الحمرة، واتخذ هذا النوع من الخزف طابعًا دوليًا إذ انتشر في أقطار إسلامية كثيرة مثل العراق وإيران ومصر والشام وشمال إفريقيا والأندلس، كما عثر علىٰ مخلفات منه في جزيرة العرب.

ولم يقتصر هذا الطراز علىٰ فترة معينة بل وجد في عصور مختلفة، وهذا الخزف ابتكار إسلامي صرف، ويمتاز بأن طلاءه ذو بريق يشبه بريق الذهب أو المعادن.

---

(١) Dimand: A Handbook of Muhammadan Art, pp. 158. Ff.

ويزعم البعض أن ابتكاره يرجع إلىٰ الرغبة في إشباع روح الترف عند المسلمين، مع مراعاة تعاليم الدين الذي نهىٰ عن الأكل أو الشرب في أواني الذهب والفضة، ومن ثم ابتكر الفنانون الإسلامية خزفًا فاخرًا له بريق الذهب يشبع حب الترف دون مخالفة الدين.

ومن أشهر أنواع هذا الخزف (خزف سامراء) ويرجع إلىٰ القرن الثالث الهجري وقد عثر عليه في أطلال مدينة سامراء[١].

وانتشر أسلوب سامراء في أقطار كثيرة مثل العراق وإيران ومصر، وعثر علىٰ نماذج منه في جزيرة العرب، ورغم وحدة الأسلوب بين النماذج التي وجدت في هذه الأقطار، فإن هناك بعض الاختلافات فيما بينها، فمثلا يتميز خزف سامراء بخلو زخارفه من الكائنات الحية، أما الخزف الإيراني فبعضه يشتمل علىٰ رسوم كائنات حية، أما الخزف المصري الذي يشبه أسلوب سامراء والذي يرجع بصفة عامة إلىٰ العصر الطولوني، فبعضه يشتمل علىٰ رسوم كائنات حية ولا سيما رسوم آدمية ذات وجوه متميزة مرسومة بأسلوب تخطيطي ولها عيون مستديرة وأنوف محورة مرسومة أحيانًا بخطين رأسيين متوازيين، هذا وقد عثر في سامراء علىٰ بلاطات من الخزف ذي البريق المعدني كانت تزخرف جدران بعض قصور سامراء، وهي مرسومة ببريق معدني ياقوتي اللون، يوجد في أغلب الأحيان مع اللون الأصفر والأخضر والذهبي والأرجواني ويزين بعض هذه البلاطات رسم ديك داخل إكليل مضفر، علىٰ أرضية صفراء مرمرية؛ كما أن محراب سيدي عقبة بالقيروان بتونس يحف به بلاطات ذات بريق معدني من طراز سامراء، عددها ١٣٩ بلاطة، وضعت علىٰ شكل إطار للمحراب، ويعتقد البعض أنها مستوردة من بغداد مع المنبر الخشبي لجامع القيروان، ويرىٰ البعض الآخر

(١) دكتور فريد شافعي: زخارف وطرز سامرا، مجلة كلية الآداب ديسمبر ١٩٥١ص ٢١- ٢٢.

أنها صناعة محلية وربما ترجع إلىٰ عهد زيادة الله بن الأغلب من ٨١٧-٨٣٨م ومن ثم فهي تسبق في تاريخها مدينة سامراء[١].

هذا وقد ازدهرت صناعة أنواع أخرىٰ من الخزف ذي البريق المعدني تختلف اختلافًا بينًا عن أسلوب سامراء، نذكر منها، الخزف ذا البريق المعدني في مصر من العصر الفاطمي، وفي إيران من العصر السلجوقي، وفي الرقة والشام من العصر السلجوقي وعصر الأتابكة وفي بلاد الأندلس في القرن العاشر الميلادي والقرن الرابع عشر والخامس عشر، ولكل نوع من هذه الأنواع أسلوبه المتميز.

وبالإضافة إلىٰ الخزف ذي البريق المعدني عرف العالم الإسلامي أنواعًا أخرىٰ من الخزف نذكر منها:

* أولًا:

(أ) في إيران[٢] من القرن ٨و ٩م:

(١) الخزف المرقش أو تقليد خزف (طنك) الصيني ويرجع إلىٰ القرن ٨، ٩ الميلادي.

(ب) من القرن ١١م:

(٢) **خزف أبيض**: وهو محفور حفرًا غائرا، أو محزوز أو مخرم يترسب في خرومه الطلاء الأبيض فيسدها ويرجع هذا النوع من الخزف إلىٰ القرن ١١م، ويشبه نوع آخر ذو طلاء فيروزي أو أخضر.

(١) أسست سامرا سنة ٨٣٦م.

(٢) Dimand, op. cit., p. 158.

(٣) **خزف كبرىٰ**: وهو خزف ذو رسوم محفورة أو مكشوطة يطلي بطلاء سمني أو أخضر يترسب في الأجزاء المحفورة أو المكشوطة، فيصبح لونه أكثر دكنة وتشتمل زخارفه عادة علىٰ رسم حيوان أو طائر يملأ باطن الإناء ومرسوم بأسلوب محور.

فيه حيوية، ويعتقد أنه سمي بهذا الاسم نسبة إلىٰ جماعة وثنية تسمىٰ بهذا الاسم.

(٤) **خوف لقبي**: وهو خزف أبيض ذو زخارف محفورة ومرسومة بطلاء ذي ألوان مختلفة مثل الأزرق والذهبي والفيروزي والأخضر والأرجواني.

(٥) **أوان وبلاطات مرسومة بالبريق المعدني**:

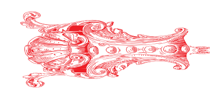
وهي مزخرفة بألوان ذهبية باهتة مخضرة أو بنية داكنة محمرة، وذلك فوق دهان أبيض أو أزرق ذهبي أو فيروزي.

(جـ) من القرن ١٢و ١٣م:

(٦) **خزف مينائي**[١]:

زخارفه مرسومة فوق الدهان الأبيض أو الأزرق الزهري أو الفيروزي بعدة ألوان، يوجد من بينها أحيانًا التذهيب، كما يوجد أيضًا زخارف بارزة مذهبة، وبصفة عامة يرجع الخزف من هذا النوع ذو الرسوم الكبيرة إلىٰ قاشان، وذو الرسوم الصغيرة إلىٰ الري، وتشبه رسوم هذا الخزف بصفة عامة رسوم المخطوطات.

(١) Ibid., p. 186.




(٧) خزف ذو بريق معدني:

ويشتمل هذا النوع من الخزف علىٰ رسوم تشبه رسوم خزف مينائي، وكثير منها يشتمل علىٰ موضوعات قصصية مثل قصة بهرام كور، وأزده.

(٨) خزف ذو زخارف سوداء تحت طلاء شفاف أو أزرق شفاف:

أحيانًا تكون زخارفه بارزة ويمكن اعتباره مقدمة لنوع من الخزف مشهور يسمىٰ خزف (سلطانياد).

(٩) خزف ذو طلاء أزرق زهري أو أخضر وذو زخارف مجسمة.

(د) العصر المغولي من القرن ١٣- ١٤م:

(١٠) **فسيفساء خزفية**: شاع استعمالها في العصر المغولي في إيران ومن المرجح أنها عرفت أولا في عصر سلاجقة الروم في آسيا الصغرىٰ ثم تطورت في القرن ١٤م وبلغت آخر مراحل تطورها في أصفهان.

(١١) **خزف سلطاناباد**[١]:

وهو خزف مرسوم تحت طلاء سمني أو أزرق أو فيروزي باللونين الأسود والأزرق.

---

(١) الدكتور زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ص٢٠٣.

(هـ) العصر التيموري من القرن ١٥م:

(١٢) خزف تقليد البورسلين:

(و) العصر الصفوي، القرنين ١٦-١٧م:

(١٣) خزف كوبجي: وهو خزف متعدد الألوان مرسوم تحت الطلاء.

(١٤) خزف تقليد البورسلين: وزخارفه صينية الأسلوب، وطينته ضعيفة الاحتمال بنية اللون، ويتميز أحيانا بوجود أحرف صينية زائفة.

(ز) القرن ١٨-١٩م:

خزف كمبرون: وهو ثغر إيراني علىٰ الخليج العربي ينسب إليه مجموعة من الخزف الأبيض تقليد البورسلين ومن المرجح أن هذا الثغر لم يكن موطنًا لصناعة هذه المجموعة.

* ثانيًا- في الرقة:

(١) خزف ذو بريق معدني، وينسب إلىٰ القرن الثاني عشر والثالث عشر.

(٢) خزف ذو زخارف سوداء تحت طلاء أزرق من القرن ١٣م.

* ثالثًا- في مصر:

(١) خزف فاطمي ذو بريق معدني[١]، يتميز بوجود توقيعات كثيرة مثل «مسلم وسعد».

---

(١) ly Bahgat et Felix, Massoul, La Ceramique Musulmane de lEgypte, pls, VIII -XXXIII.

(٢) خزف متعدد الألوان، من العصر الأيوبي، وزخارفه متعددة الألوان مرسومة تحت الدهان ورسومه باللون الأزرق الداكن والأخضر والأسود علىٰ أرضية بيضاء.

(٣) خزف مرسوم تحت الطلاء، وهو ذو صلة وثيقة بخزف سلطاناباد وتظهر عليه كثير من التوقيعات ونقل فيه الرسوم الآدمية ويرجع إلىٰ عصر المماليك، ومن التوقيعات التي تظهر عليه اسم (غيبي).

(٤) فخار مطلي بالميناء، ويرجع إلىٰ عصر المماليك وتشتمل زخارفه أحيانا علىٰ كتابات نسخية ورنوك.

* رابعًا- في تركيا العثمانية:

(١) خزف أزنيق: وكانت أزنيق أهم مركز في آسيا الصغرىٰ في القرنين ١٦-١٧م واشتهرت بنوع من الخزف ذي زخارف مرسومة تحت الطلاء وألوان زخارفه الأزرق الذهبي والأزرق الفيروزي، والأخضر والأصفر، والأحمر الطماطمي، وهذا اللون لون مميز للخزف التركي، وكان يصنع من الطمي الأرمني المحمر، وكانت توضع منه طبقة سميكة وتشتمل زخارفه علىٰ مراوح نخيلية، وزهرة القرنفل وغيرها من الأزهار والورود، ومنذ القرن السابع عشر أخذت رسومه تحاكي الطبيعة، وبدأ تدهور هذا النوع من الخزف في القرن الثامن عشر، وحل اللون البني المحمر محل اللون الأحمر الزاهي الطماطمي، وأصبحت ألوانه باهتة.

(٣) الخزف السوري: ويرجع إلىٰ القرنين ١٧-١٨م وفيه حل اللون الأرجواني محل اللون الأحمر الطماطمي، وتمتاز رسومه بالرشاقة والتأنق وينسبه البعض إلىٰ دمشق والبعض الآخر ينسبه إلىٰ الأناضول.

(٤) خزف آسيا الصغرىٰ: من القرن ١٤-١٧م.

ومن خزف ذو رسوم تحت الطلاء مرسومة باللون الأزرق والأبيض تقليدا للبورسلين الصيني، من أسرة منج.

ويلاحظ أنه شاع استخدام بلاطات الخزف من شتىٰ الأنواع في العصر التركي[1].

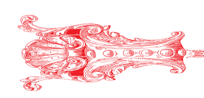
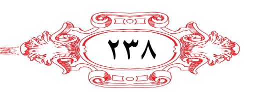
* خامسًا- في إسبانيا:

(١) وقد عثر علىٰ أقدم أنواع الخزف الإسباني الإسلامي في مدينة الزهراء قرب قرطبة وهو ذو بريق معدني، ويرجع إلىٰ القرن العاشر الميلادي، ويعتبر أقدم أنواع الخزف الإسلامي التي عثر عليها في إسبانيا، ويشبه خزف سامراء وإيران ذا البريق المعدني.

(٢) خزف ذو بريق معدني: من القرن ١٤- ١٥م، عثر عليه في مدينة مالقة وغرناطة، ومن أشهر أنواعه قدور الحمراء، وترجع إلىٰ القرن ١٤م، ويتميز خزف مالقة بالبريق المعدني الذهبي، وخزف غرناطة بالبريق المعدني الذهبي والأزرق.

---

(١) انظر بلاطة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة (سجل رقم ٣٢٥١).

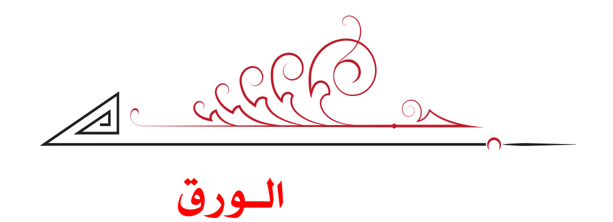



(٣) خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر بعد الميلاد ظهر نوع من الخزف في بلنسية ويشتمل علىٰ عناصر زخرفية مستمدة من الفن القوطي وهو ذو لون أزرق عليه صور حيوانات تتميز بالرشاقة وكتابات قوطية بالإضافة إلىٰ تفريعات عنب وشعارات أسر أوربية.

(٤) في القرن السادس عشر انتقلت صناعة الخزف في منيشه من أيدي المسلمين إلىٰ أيدي النصارىٰ[١].

---

(١) Dimand, op. cit., pp. 226,229.



الـورق

ومن الصناعات التي ازدهرت ازدهارا كبيرا في العالم الإسلامي وكان لها أثر كبير في تقدم الحضارة سواء في الشرق أو في الغرب صناعة الورق.

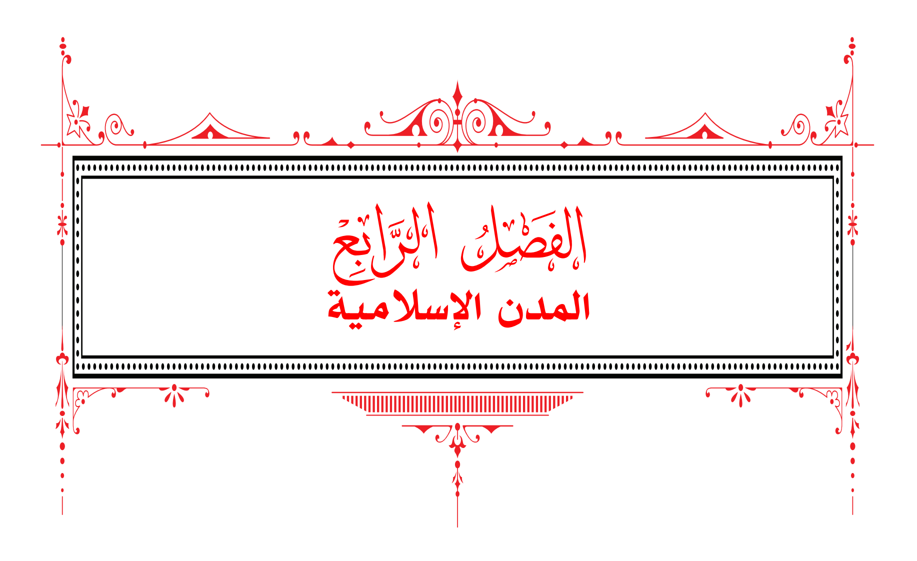
ويعزىٰ اختراع الورق إلىٰ الصين التي يقال إنها ظلت محافظة علىٰ سر صناعته شأنه في ذلك شأن الحرير، غير أنه حدث في سنة ١٣٥هـ (٧٥١م) أن وقعت معركة عند سمرقند بين القوات الصينية وبين القوات العربية بقيادة زياد بن صالح، وأسفرت المعركة عن انتصار العرب وهزيمة الصينين وكان ضمن أسرىٰ الصينيين بعض صناع الورق، ومنهم ألم العرب بأسرار هذه الصناعة[١].

وأيًا ما تكون الصحة في هذه القصة فإن الورق لم تصبح له أهمية حضارية كبيرة إلا بعد أن صنعه العرب.

ويقال إن إنشاء مصانع الورق بدأ في سمرقند وفي شمال شرق العالم الإسلامي ثم أخذت مصانع الورق تنتشر غربا: فأنشئت في بغداد، ثم في سائر أقطار العالم الإسلامي، وعن طريق العرب انتقلت صناعة الورق إلىٰ أوروبا حيث كان لها أثر كبير في النهضة الأوروبية ثم في اختراع الطباعة.

(١) يذكر الأستاذ كريسويل أن المسلمين عرفوا صناعة الورق علىٰ يد صناع، الورق الصينيين الذين أسرهم مسلم في وسط آسيا في سنة ٧١٢، انظر:

Creswell (K. A. C.), A Bibliography of the Architecfure, Arts and Crafts of Islam, no. 1095.



الفصل الرابع: المدن الإسلامية

عنىٰ العرب المسلمون بنشر العمران في الأقطار التي دخلوها. وكان من أهم وسائلهم إلىٰ ذلك إنشاء المدن الجديدة[(١)]. ولقد بلغ عدد المدن الجديدة التي أسسها العرب حتىٰ نهاية العصر الأموي نحو خمس وعشرين مدينة، ومن هذه المدن البصرة والكوفة وواسط في العراق، والفسطاط في مصر، والقيروان في شمال أفريقية.

وسار العباسيون علىٰ الخطة نفسها: إذ أنشيء في عهدهم كثير من المدن الجديدة كما عمرت مدن أخرىٰ قديمة. ومن المدن التي أنشئت في العصر العباسي الهاشمية في العراق، والعسكر وتنيس والقطائع في مصر، ورقادة وسوسة ووهران وفاس في بلاد المغرب. أما المدن القديمة التي حظيت بازدياد العمران فأكثر من أن تحصىٰ، ونذكر منها علىٰ سبيل المثال مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق وحلب.

وبالإضافة إلىٰ المدن شيد المسلمون القصور الضخمة بملحقاتها ومرافقها اللازمة، وانتشر هذا النوع من القصور في العصرين الأموي

---

(١) دكتور فريد شافعي: العمارة والبيئة العربية الإسلامية - الدارة، العدد ٢ ص ٢٢.

والعباسي وغيرها: ومن أشهرها قصر الخير الشرقي وقصر الطوبة في العصر الأموي وقصر البلكواره في العصر العباسي[١].

ولم تكن هذه المدن والقصور تنشأ اعتباطًا بل كان يجري تأسيسها حسب تخطيط مسبق سواء من حيث اختيار الموقع أو التنظيم أو البناء أو التحصين.

هذا وقد اشتهر في العالم الإسلامي عدد من المدن فاق عمرانها عواصم الدول الأخرىٰ المعاصرة غير الإسلامية.

ومن أهم المدن التي أنشئت في العالم الإسلامي سواء من حيث العمارة أو الحضارة كانت مدينة الفسطاط وبغداد وسامرا.

(١) Creswell (K.A.C.), Early Muslim Architecture, I. II.



الفسطاط

لم يلبث عمرو بعد أن استقرت الأمور في الإسكندرية أن رجع إلىٰ بابليون حيث أسس في سنة ٢١هـ (٦٤٢م) مدينة لتكون عاصمة لمصر: هي الفسطاط التي تعتبر بحق أصل القاهرة الحالية.

ويقال إن عمرًا كان قد أراد أن يتخذ الإسكندرية مركزًا لحكمه وقال حين استولىٰ عليها «مساكن قد كفيناها» غير أن الخليفة عمر بن الخطاب منعه من ذلك حتىٰ لا يفصل ما بينه وبين المسلمين مما اضطر عمرًا أن يؤسس مدينة جديدة عند بابليون هي الفسطاط.

كما يقال أيضًا أن تأسيس مدينة الفسطاط كعاصمة كان أفضل من اتخاذ الإسكندرية وذلك إرضاء للمصريين الذين بغضوه فيها باعتبارها ترمز إلىٰ ظلم الرومان واضطهادهم لهم.

غير أنه من الواضح أن موقع الفسطاط كعاصمة أنسب كثيرًا من الإسكندرية من أنواح أخرىٰ كثيرة لا تخفىٰ علىٰ فطنة قائد محنك مثل عمر الذي كان قد سبق له أن زار مصر من قبل للتجارة وألم بظروفها السياسية والاجتماعية والجغرافية.

إذ أنه بدخول العرب مصر واستقلالها عن الإمبراطورية البيزنطية فقدت الإسكندرية أهميتها كمركز يتصل بحرًا بطريق مباشر بالقسطنطينية عاصمة

الإمبراطورية بل صارت علىٰ العكس موضع تهديد ومركز خطر لأعداء هذه الإمبراطورية في مصر.

ولذا كان من الأسلم للعرب أن يبتعدوا عن الإسكندرية التي كانت في ذلك الوقت موطن العناصر الأجنبية الحاكمة ومركز الثقافة اليونانية الرومانية وأن يقيموا عند بابليون في قلب مصر حيث العناصر الوطنية المسالمة التي كانت تنظر إلىٰ العرب كمنقذين لهم من ظلم الرومان واضطادهم المذهبي[1].

وبالإضافة إلىٰ ذلك كان موقع الفسطاط يجمع بين مزايا عديدة فمن جهة يمكن الاتصال منه مباشرة بالمدينة مركز الخلافة الإسلامية في الحجاز عن طريق الصحراء التي اعتاد العرب سلوكها.

وفي موقع بابليون كان في استطاعة العرب أن يؤسسوا مدينة جديدة حسب تقاليدهم الإسلامية وعلىٰ نمط ما سارت عليه جيوشهم قبل ذلك في العراق حين أسسوا مدينة البصرة سنة ١٤هـ (٦٣٥م) ومدينة الكوفة سنة ١٦-١٧هـ (٦٣٧ - ٦٣٨م).

ومن جهة أخرىٰ كان الموقع الجديد يمتاز بحصانة طبيعية إذ تحميه التلال من الشرق والشمال ويحميه من الغرب خندق مائي طبيعي هو: نهر النيل الذي كان في الوقت نفسه يصل بين الشمال والجنوب.

ومن المحتمل أن عمرو بن العاص حين سمح لبني وهدان ومن والاهم أن يقيموا علىٰ الضفة الغربية من النيل حيث بنىٰ لهم حصنًا في الجيزة يعتصمون به عند الخطر كان يهدف من وراء ذلك إلىٰ زيادة تأمين هذا الجانب الغربي لمدينة الفسطاط.

(١) دكتور حسن الباشا: قبل أن تكون القاهرة - القاهرة: تاريخها، فنونها، آثارها، ص ١١.

ولذا لم يبق للفسطاط غير جانب واحد مفتوح هو الجانب الشمالي. ولم يهتم عمرو بتحصين هذا الجانب وربما كان السبب في ذلك أن عمرًا لم يخش تعرضه للأخطار من هذا الجانب نظرًا إلىٰ أن الطريق إليه يمر بأقطار يحكمها العرب أي أنها كانت علىٰ العكس مصدر الأمان للفسطاط وطريق الإمدادات إليها كما أن هذا الجانب كان المجال الطبيعي لامتداد المدينة ونموها فيما بعد(١).

وأيًا ما كانت الظروف التي حدت بعمرو بن العاص إلىٰ أن يؤسس عند بابليون عاصمة مصر العربية فإن هذا الموقع الذي اختاره عمرو أثبت ببقائه موقع العاصمة المصرية حتىٰ اليوم توفيق عمرو في اختياره.

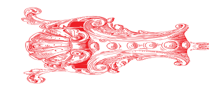
هذا وقد صار يطلق علىٰ هذه المدينة الجديدة اسم الفسطاط ويقول القلقشندي إنها بضم الفاء ويقال فيها فستاط وفساط بتشديد السين ويقول الجوهري إنه يجوز كسر الفاء فيها جميعًا.

ولقد ثار بين الباحثين خلاف بشأن تسمية المدينة بالفسطاط. ويتفق جمهور الرواة الأقدمين أنه أطلق عليها اسم فسطاط عمرو أي خيمته. وذلك أن عمرًا لما فتح الحصن المعروف بقصر الشمع في سنة إحدىٰ وعشرين من الهجرة واستولىٰ عليه ضرب فسطاطه للرحيل فإذا بحمام قد أفرخ فيه فقال: «لقد تحرم منا بحرم»، وأمر بإقرار الفسطاط مكانه، وأوصىٰ علىٰ الحمام وسار إلىٰ الإسكندرية ففتحها ثم عاد إلىٰ فسطاطه، ونزل به ونزل الناس حوله، وبني داره بجوار الجامع العتيق مكان فسطاطه، وبني الناس حوله. ومن هنا سميت المدينة التي أنشئت بالفسطاط(٢).

---

(١) المرجع نفسه ص ١٢.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشىٰ جـ ٣ ص ٣٢٦.





غير أن بعض العلماء المحدثين يعتبرون هذه القصة أسطورة من نسيج الخيال ومن نمط الأساطير التي تحاك عادة حول تأسيس بعض المدن أو تشييد بعض المؤسسات.

ويعتقد بعض المستشرقين أن كلمة فسطاط قد اشتقت من أصل يوناني هو (فسطاطوم) اسم المدينة أو الحصن أو الخندق الذي كان عند بابليون حرفه العرب إلىٰ فساط ثم فسطاط غير أن هذا الزعم لا يسنده أي دليل من التاريخ ولا يتفق مع منطق الأحداث.

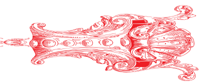
وهناك رأي آخر يقول إن الفسطاط ومعناها المخيم قد أخذت من المخيم الذي كان قد نصبه جيش عمرو عند محاصرته حصن بابليون وقد صار يطلق علىٰ المدينة التي شيدت مكانه، علىٰ أنه مما تجدر ملاحظته أنه (فسطاط) لفظة عربية كانت تطلق أيضًا علىٰ المدينة ومجتمعها. وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بالجماعة فإن يد الله علىٰ الفسطاط» أي مع المدينة التي بها مجتمع الناس. ومما له دلالته أيضًا أن البصرة أيضًا كان يقال لها الفسطاط[١] ولذا فمن المرجح أن العرب قد أطلقوا علىٰ المدينة التي أسسوها في مصر اسم الفسطاط بمعني المدينة كما أطلق علىٰ البصرة أيضًا الاسم نفسه وكما أطلق من قبل علىٰ يثرب اسم المدينة. وقد ذكرت في القرآن الكريم بضع مرات مثل «ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله »[٢].

وفي ضوء روايات المؤلفين العرب الأقدمين وبحوث العلماء المحدثين صار من المتيسر تحديد موقع الفسطاط كما صار من الممكن إلىٰ حد ما تصور تخطيطها ومدىٰ عمارها.

(١) ابن منظور: لسان العرب (المادة).

(٢) سورة التوبة آية ١١٩.





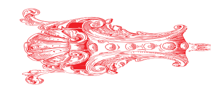
ومن أشهر المؤلفين العرب الذين كتبوا عن الفسطاط ابن عبد الحكم (فتوح مصر وأخبارها) وابن دقماق (الانتصار لواسطة عقد الأمصار) وابن سعيد الأندلسي (المغرب) والقلقشندي (صبح الأعشي) والمقريزي (الخطط).

أما العلماء المحدثون فأهمهم علي بهجت وجبريل (كتاب حفريات الفسطاط) وكازانوفا (طبوغرافية الفسطاط) وفريد شافعي (عمارة مصر العربية) وجمال الدين الشيال (تاريخ مصر الإسلامية).

وكما فعل العرب عند تأسيس البصرة والكوفة بدأ عمرو ببناء مسجد وشيد إلىٰ جواره دارًا له، وأسند عملية توزيع الخطط بين جماعات القبائل إلىٰ أربعة نفر من العرب، هم معاوية بن حديج التجيبي، وحيويل بن ناشرة المعافري، وشريك ابن سعي الغطيفي. وعمرو بن تحزم الخولاني، فوزعوا الأراضي حول الجامع علىٰ جماعات القبائل: فاختط هؤلاء الخطط وبنوا الدور والمساجد وسميث هذه الخطط بأسماء القبائل أو الجماعات التي اختطتها: مثل خطة تجيب وخطة مهرة وخطة لخم وغيرها.

ويتضح من أسماء بعض الخطط اشتراط جند من غير العرب في فتح مصر من ذلك مثلاً خطة الفارسيين، وكانوا من بقايا جند باذان: عامل كسرىٰ ملك الفرس علىٰ اليمن، وخطط الحمراوات وقد سميت بذلك لاشتراك بعض الروم فيها وكانوا حمر الألوان. وكان منهم بنو نبه وبنو الأزرق وقد حضر الفتح من بني الأزرق أربعمائة رجل وكان ينزل معهم بنو يشكر، وقد نسب إليهم جبل يشكر[١] الذي شيد عليه جامع ابن طولون فيما بعد.

(١) ابن دقماق الانتصار ج ٤ ص ٤ -٥.




وكانت من أعظم الخطط أوسعها خطة أهل الراية وهم جماعة من قريش والأنصار وقبائل أخرىٰ لم يكن لكل من العدد لأن ينفرد بخطة، فجعل لهم عمرو راية لم ينسبها لأحد فعرفوا بأهل الراية.

وأخذ أهل الخطط يشيدون المنازل والمساجد وامتدت حول الجامع نحو الشرق والشمال والجنوب.

وكان بين هذه الخطط دور جماعة من الصحابة اشتركوا في فتح مصر مثل دار عمرو بن العاص ودار الزبير بن العوام ودار يعقوب القبطي ودار جبر القبطي وكانا قد صحبا السيدة مارية القبطية إلىٰ المدينة حين أهداها المقوقس للنبي ﷺ.

كانت خطط الفسطاط يحدها من الغرب مجرىٰ نهر النيل[١] الذي كان يسير في ذلك الوقت بجوار الجانب الغربي لحصن بابليون إلىٰ جامع عمرو حيث يمر في غربية مباشرة ثم يتجه إلىٰ موقع مشهد السيدة زينب الحالي، وكان يحدها من الشرق عين الصيرة ومن الجنوب الشرف المطل علىٰ بركة الحبش عند دير السلام حاليًا ومن الشمال جبل يشكر الذي شيد عليه فيما بعد جامع ابن طولون: أي أن الفسطاط كانت تشغل مساحة طولها من الشمال إلىٰ الجنوب حوالي خمسة آلاف متر وعرضها من الشرق إلىٰ الغرب نحو ألف متر[٢].

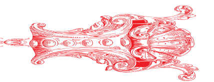
ونظرًا إلىٰ أن هذه المساحة كانت أوسع كثيرًا من أن تقتصر علىٰ جند عمرو الذي كان عددهم حسب بعض الروايات اثني عشر ألف جندي فقط فإن بعض العلماء يحاول أن يستنتج من ذلك أن دور هذه الخطط كانت علىٰ

---

(١) Casanova (p.), Esgai de reconstitution topographique de la Ville dal fustat ou Misr, plan III.

(٢) ومع ذلك فإن المقريزي يذكر أنه لم يكن في هذه المنطقة من المباني سوىٰ حصن بابليون. انظر خطط جـ١ ص ٢٨٦.





درجة كبيرة من الاتساع وأنها كانت منعزلة بعضها عن بعض ولا تتلاصق إلا بالقرب من الجامع فقط، وأنها كانت يزيد انعزالها كلما بعدت عن الجامع غير أنه من المرجح أن الخطط قد شملت هذه المساحة الكبيرة حتىٰ تتسع أيضًا للسكان الأصليين من القبط الذين كان بعضهم من غير شك يعيشون من قبل في ذلك المكان والذين قدم بعضهم الآخر ليقوم بأعمال الصناعة والتجارة مع المستوطنين الجدد. ولقد ذكر المؤرخون العرب أنه كان بموقع الفسطاط عدة كنائس وديارات للنصارىٰ ومن المستبعد إقامة كنائس عدة في مناطق خالية من السكان.

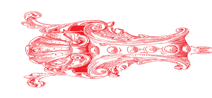
وكان جامع عمرو حين أسس يقع علىٰ شاطئ النيل الشرقي في منطقة بها أشجار وكروم وكان يشغل مساحة طولها خمسة وعشرون مترا وعرضها خمسة عشر ويقال إنه اشترك في تحرير قبلته ثمانون رجلاً من الصحابة وقبل ثمانية فقط[1] ومع ذلك قيل إن هذه القبلة انحرفت نحو الشرق أكثر مما يجب وكان يحد قبلته عمد قائمة بصدر الجدار، وكان له بابان في كل من جوانبه فيما عدا جار القبلة، وكان منها بابان يقابلان دار عمرو في شرقي الجامع وكان طولها يساوي طول المسجد من قبليه إلىٰ بحريه وكان بين المسجد وبين دار عمرو طريق عرضه نحو ثلاثة أمتار ونصف. وقد استوحىٰ عمرو في تخطيط المسجد والدار والعلاقة بينهما مسجد النبي ﷺ وداره في المدينة.

ويقال إنه لما فرغ عمرو من بنائه اتخذ له منبرًا يخطب عليه فأمره عمر بكسره وكتب: «أما يكفيك أن تقوم قائمًا والمسلمون جلوس تحت عقبيك».

ولقد توالت علىٰ جامع عمرو كثير من العمائر حتىٰ أنه لم يبق من الجامع الأصلي، الذي بناه عمرو غير البقعة من الأرض التي شيد عليها،

---

(١) محمود أحمد: جامع عمرو بن العاص ص ٥.




وتوجد هذه البقعة في رواق القبلة في النصف الشمالي من المسجد أي علىٰ يسار الواقف أمام المحراب الأوسط ومتجها نحو القبلة[(١)].

وكانت بيوت الفسطاط في أول الأمر تحيط بجامع عمرو من ثلاث جهات فقط نظرًا إلىٰ أن النيل كان يجري في غربيه مباشرة كما سبق أن ذكرنا أن المساحة الواقعة بينه وبين النيل كانت تتسع تدريجيًا كلما انحرف مجرىٰ النيل إلىٰ الغرب ومن ثم أخذت هذه المساحة تتسع لبناء بيوت جديدة وهكذا صارت بيوت الفسطاط تحيط بالجامع من جميع نواحيه، وتبلغ المسافة بين جامع عمرو والنيل حاليًا نحو خمسمائة متر وهي المسافة التي انحرفها النيل منذ ذلك الوقت.

ومن المرجح أن دور الفسطاط كانت متسعة وكانت مشيدة بالطوب غير أن بعضها كان مبنيًا بالحجارة، وربما استخدم اللبن أو الطين أحيانًا في البناء ولا سيما في الأطراف ولقد كشفت بعض الحفائر التي أجريت حديثًا بالقرب من مسجد أبي السعود الجارحي عن بعض جدران من الطين قد يرجع إلىٰ عصور مبكرة.

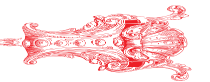
وكان بالفسطاط ميادين وأسواق كما أسس بها مصانع مختلفة وكان بها عدد من المساجد والحمامات[(٢)] كما كان لها ميناء علىٰ النيل زادت أهميته بعد أن حفر عمرو الخليج الذي صار يصل النيل بالبحر الأحمر عند القلزم أو السويس.

وفي سنة ٥٤ هـ (٦٧٤م) أنشئ في جزيرة الروضة مقابل الفسطاط صناعة العمائر والسفن ولذلك سميت جزيرة الصناعة ثم غلب عليها اسم الروضة وكان بينها وبين الفسطاط جسر ممتد من المراكب.

---

(١) دكتور حسن الباشا: جامع عمرو، القاهرة ص ٤٠٤.

(٢) ابن دقماق: المرجع السابق ص ٣٩ - ٤٠ و١٠٥ - ١٠٧.



وفي سنة ٦٩هـ (٦٨٨م) أقيمت علىٰ الخليج قنطرة كانت تفتح عند وفاء النيل، وكان مكانها بين قناطر السباع (موقع المشهد الزينبي) وبين قنطرة السد (موقع كنيسة مار مينا).

وفي عصر الولاة الأمويين أخذ عمران الفسطاط في الازدياد إلىٰ أن تعرضت المدينة لبعض أعمال التدمير في نهاية العصر الأموي أثناء مطاردة جيوش العباسيين لمروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠م) وكان التخريب الذي نال المدينة علىٰ يد الأمويين الهاربين أشد مما نالها علىٰ يد العباسيين القادمين: ذلك أن الأمويين عمدوا إلىٰ التخريب كوسيلة من وسائل تعويق الجيوش العباسية عن المطارة أو حقدًا منهم أن يتركوا هذا العمار ينعم به العباسيون.

وكان من جراء هذه الأحداث أن خرب الجانب الشمالي من الفسطاط مما يلي جبل يشكر وخلا من العمار.

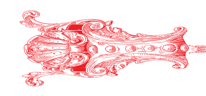
وتمت الغلبة للعباسيين في مصر علىٰ يد صالح بن علي قائد جيوشهم الذي قام بمطاردة مروان بن محمد في مصر وتمكن من قتله، واستقر صالح بن علي كأول والٍ علىٰ مصر من قبل الخلافة العباسية الجديدة[١].

ولما خلفه الأمير أبو عون في ولاية مصر شرع في سنة ١٣٥هـ (٧٥٢م) في تأسيس مدينة جديدة في الجانب الشمالي من الفسطاط الذي كان قد أصبح فضاء قفرًا. ونظرًا إلىٰ أن هذه المدينة أسست لإيواء العسكر العباسي فقد سميت بالعسكر.

وكان حد العسكر من الجنوب عند كوم الجارح ومن الشمال قناطر السباع ومن الغرب قنطرة السد ومن الشرق تلال المقطم.

---

(١) الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف: مصر في عصر الولاة ص ٨٣ - ٨٥.




وقد شيد في العسكر دار للإمارة ظل ينزلها الولاة العباسيون، وبنىٰ بها الفضل بن صالح في سنة ١٦٩هـ (٧٨٥م) مسجدًا لم يكتب له البقاء، وفي سنة ٢٠٠هـ (٨١٦م) أثناء ولاية السري بن الحكم سمح للناس بالبناء حول العسكر فكثرت بها العمارة حتىٰ اتصلت بالفسطاط وشيدت الدور العظيمة.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه كان يطلق علىٰ هذه المدينة في ذلك الوقت أيضًا اسم مصر وذلك من باب إطلاق اسم القطر كله علىٰ العاصمة كما يطلق علىٰ دمشق اسم الشام.

ويؤكد هذه التسمية أنه قد عثر بحفائر الفسطاط علىٰ قطعة من الزجاج مؤرخة سنة ١٦٣هـ (٧٧٩م)، نقش عليها أنها صنعت «بمصر»(١).

كما وصلنا دينار مؤرخ سنة ١٩٩ هـ (٨١٤م) نقش عليه أنه ضرب في مصر، بل وصلنا مسكوكات نحاسية من الفلوس يرجع أقدمها إلىٰ سنة ١٣٣هـ (٧٥٠م) نقش عليها اسم «مصر»(٢).

وظلت العسكر عاصمة مصر ومركز الإمارة والإدارة والشرطة حتىٰ سنة ٢٥٧هـ (٨٧٠م) حين أسس أحمد بن طولون مدينة جديدة هي القطائع اتخذها عاصمة له ومقر للجيش والإدارة.

وجاء ابن طولون إلىٰ مصر في سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨م) وكيلا عن باكباك صاحب إقطاعها، وكان زوج أم أحمد بن طولون، وكان من عادة أصحاب إقطاعات الولايات أن يقيموا بسامرا مركز الخلافة ويرسلوا عنهم وكلاء إلىٰ ولايتهم. ولما قتل باكباك منح إقطاع مصر لباركوج وكان صهر أحمد

---

(١) متحف الفن الإسلامي بالقاهرة رقم ٩ -١٢٧٣٩.

(٢) مجموعات متحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

ابن طولون فأبقاه وكيلا له في حكم مصر بل أطلق يده فيها حتىٰ قال له (تسلم من نفسك لنفسك) فأسندت إليه ولاية الإسكندرية وخضع له صاحب برقة وبسط سلطانه علىٰ سائر أقاليم القطر المصري. ولم يلبث ابن طولون أن استقل بحكم مصر ثم ضم إليه بلاد الشام[١].

وقد أقام ابن طولون في أول الأمر بالعسكر ونزل دار إمارتها وأسس فيها مستشفىٰ اشتهر بدقة أنظمته، ولكنه في سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠م) شرع في تأسيس مدينة القطائع لتكون مركزًا لحكمة ومقرًا لجنده وحاشيته الذين اقتسموها فسميت بذلك القطائع. وربما كان تأسيس ابن طولون للقطائع مرتبطًا بأطماعه في الاستقلال بحكم مصر.

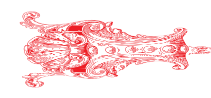
وكما فعل أبو عون حين أسس العسكر في الجانب الشمالي من الفسطاط أسس ابن طولون القطائع في الطرف الشمالي من العسكر أو علىٰ الأصح في الطرف الشمالي الشرقي[٢].

وكانت القطائع تقع من جهة بين جبل يشكر وهو الحد الشمالي للفسطاط وبين سفح جبل المقطم عند مكان القلعة حاليًا وكان يعرف في ذلك الوقت باسم قبة الهواء، ومن جهة أخرىٰ بين الرميلة تحت القلعة إلىٰ «مشهد الرأس» الذي عرف فيما بعد باسم «مشهد زين العابدين».

وقد بدأ ابن طولون في سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م) بتشييد قصر له تحت موقع القلعة فيما بين قلعة الجبل حاليًا والمشهد النفيسي ثم أتم بناء مسجده المعروف فوق جبل يشكر في سنة ٢٦٥هـ (٨٧٨-٨٧٩م) كما يتضح من لوحة التأسيس التي وصلتنا، وترك بين المسجد والقصر

(١) Hitti, History of Syria, p. 558.

(٢) المقريزي: الخطط ج ١ ص ٣١٣ وما بعدها.




ميدانًا واسعًا، واختطت حاشيته وجنده دورها في موقع المدينة حتىٰ اتصلت بالعسكر والفسطاط.

وكما أنه لم يبق من فسطاط عمرو غير جامع عمرو فإنه لم يبق من قطائع ابن طولون غير جامع ابن طولون الذي -علىٰ العكس من جامع عمرو- قد وصلنا تقريبًا بحالته الأصلية وذلك يما عدا المئذنة التي أعاد بناءها السلطان لاجين في سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م).

ويتميز جامع ابن طولون بزخارف جصية من طراز جديد بدأ ظهوره في عهد ابن طولون ويعتبر صدىٰ لطراز الزخرفة الجصية التي ازدهرت في مدينة سامرا عاصمة الخلافة العباسية في ذلك الوقت ويعتمد علماء الآثار الذين يقومون بالحفر والتنقيب في مناطق الفسطاط علىٰ ظهور هذه الزخارف الجصية في تاريخ المباني التي يكشفون عنها.

وقد شيد ابن طولون في الجهة الشرقية من القطائع قناطر للمياه لا تزال بعض عقودها قائمة أشار إليها أحد الشعراء بقوله:

بناء لو أن الجن جاءت بمثله لقيل لقد جاءت بمستفظع نكر

وقد ازداد عمار القطائع في عهد خمارويه بن أحمد بن طولون الذي كان بطبيعته شغوفًا بالترف والبذخ والفنون.

وأنشأ خمارويه حديقة للحيوان كان فيها السباع والنمور والفيلة والزرافات والطيور وغيرها وجهز بيوتها بما يكفل لها الصحة والنظافة[١].

غير أن أسرة طولون لم يكتب لها البقاء طويلاً، ففي سنة ٢٩٢هـ (٩٠٤م) أرسل المستكفي بالله قائده محمد بن سليمان الكاتب علىٰ رأس جيش فاقتحم القطائع وقتل بني طولون وخرب قصورهم. ويقال

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٣ ص ٥٣ - ٥٩.

إن محمد بن سليمان هدم القصر وقلع أساسه وخرب موضعه حتىٰ لم يبق له أثر.

وسكن محمد بن سليمان الفسطاط وتبعه في ذلك من جاء بعده من الولاة العباسيين والإخشيديين. ولما استولىٰ الفاطميون علىٰ مصر في سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) أسسوا القاهرة في الشمال الشرقي من الفسطاط وحصنوها بالأسوار وقصروا الإقامة فيها علىٰ الخليفة وحاشيته وحرسه ورجال الحكومة وحرموا سكناها علىٰ سائر الشعب.

ولذا لم يؤثر تأسيس القاهرة في عمران الفسطاط وازدهاره بل علىٰ العكس تزايدت عمارته وأسست به «الآدر الأنيقة والمساجد القائمة والحمامات الباهية والقياسر الزاهية والمستنزهات الرائقة ورحل الناس إليه من سائر الأقطار وقصدوه من جميع الجهات وغص بسكانه وضاق فضاؤه الرحيب عن قطانه»[١].

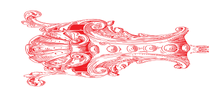
وقد عمرت مدينة الفسطاط بالمصانع المختلفة التي كانت تسد حاجات سكانها وغيرهم من أهل مصر كما كانت تصدر الفائض من منتجاتها إلىٰ الخارج.

وقد كشفت الحفائر التي أجريت في مناطق الفسطاط عن مصبغة يتضح مما تبقىٰ من آثارها أنها كانت تقوم بأعمال الصباغة علىٰ نطاق واسع. كما عثر أسفل بعض الطرق علىٰ مجار ذات أقبية مما يدل علىٰ العناية بتنظيم وسائل الصرف.

كما كشفت الحفائر أيضًا عن مجموعة من الدور والطرق ترجع إلىٰ ما بين القرنين الثالث والخامس بعد الهجرة (٩-١١م) استشف منها فكرة واضحة عن تصميمها في تلك الفترة.

---

(١) القلقشندي: المرجع السابق ج ٢ ص ٣٣٣.




وكانت الدار تتألف من عدة وحدات أهمها وحدة الاستقبال وكانت تتكون من فناء مربع مسقوف يقام في أحد جوانبه أو في جانبين متقابلين أو في جوانبه الأربعة إيوانات تفتح عليه وقد يكون بعض هذه الإيوانات ضحلا أو عميقًا وكان أحد الجوانب يتميز عادة بتصميم خاص إذ كان يتألف من إيوان رئيسي أوسط علىٰ كل من جانبيه حجرة وكان يتقدم الجميع سقيفة تفتح علىٰ الصحن خلال ثلاث فتحات[١].

وكانت الدور المشتمل علىٰ مقاعد وملاقف ونافورات وسلسبيلات أو شاذروانات وأحواض للنباتات، كما كانت مداخلها في معظم الأحيان منكسرة بزاوية قائمة حتىٰ يختفي داخل الدار عن السائرين في الطريق، ولو كان الباب مفتوحًا كما زودت بعض الدور بممرات داخلية تمكن أهل الدار من التنقل بين أجزاء الدار دون المرور بالفناء الأوسط، كما عثر في بعض الدور علىٰ خزانات مياه تحت الأرض وكان الماء يجري في البيوت خلال أنابيب داخل الجدران.

وكانت جدران الدور تكسىٰ عادة بالجص المزخرف بالرسوم المحفورة والبارزة كما كانت تزخرف أحيانًا بالصور المرسومة بالألوان المائية علىٰ الجص.

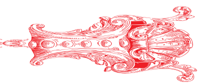
ولقد ظلت الفسطاط بعد تأسيس مدينة القاهرة مدينة الشعب ومقر الصناعات والمهن والتجارة ومزاولة الأعمال.

ولقد ترك لنا بعض من زار الفسطاط في تلك الفترة وصفًا لمدىٰ العمران الذي كانت عليه هذه المدينة قد يكون بعضه من باب المبالغة في التقريظ غير أنه في الوقت نفسه يشير إلىٰ انطباعاتهم عن هذه المدينة ومدىٰ ازدهار العمران بها.

---

(١) حفريات الفسطاط. اللوحات ٨ -١٩.





وقد نكبت الفسطاط في عهد المستنصر حين استمر القحط من سنة ٤٥٧هـ (١٠٦٥م) إلىٰ سنة ٤٦٤هـ (١٠٧٢م) وبلغ أوجه في سنة ٤٦٢هـ (١٠٧٠م) وانتشر في مصر الوباء واختل الأمن وثارت الفتن مما اضطر المستنصر إلىٰ أن يستغيث بأمير الجيوش بدر الجمالي[١] فقدم من عكا وحكم مصر باسم الخليفة. وكان من سياسته العناية بالقاهرة وإهمال الفسطاط بل إنه أباح للجند ولغيرهم من القادرية علىٰ البناء أن يستغلوا مباني الفسطاط الخالية من السكان في تشييد مبان لهم في القاهرة وقد أدىٰ ذلك كله إلىٰ تخريب العسكر والقطائع وجزء كبير من الفسطاط وصار ما بين القاهرة ومصر خاليًا من السكان وخرابًا ولم يبق هناك إلا بعض البساتين.

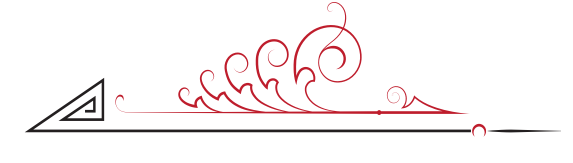
ثم كانت الطامة الكبرىٰ علىٰ الفسطاط حين أمر شاور بإحراقها سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م) حتىٰ لا تقع في يد عموري ملك بيت المقدس حيت طمع في الاستيلاء علىٰ مصر مما كان من جرائه أن تحولت الفسطاط إلىٰ أطلال وكيمان ... ويصف المقريزي (الخطط جـ ١ ص ٣٣٨-٣٣٩) كيف تم حرق الفسطاط فيقول إن شاور نادىٰ بأن لا يقيم في مصر أحد (وأزعج الناس في النقلة فتركوا أموالهم وأثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم. وبعث شاور إلىٰ مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فوق ذلك فيها فارتفع لهيب النار ودخان الحريق إلىٰ السماء فصار منظرًا مهولاً واستمرت النار من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يومًا... كل ذلك والنهابة ينقبون في المنازل في طلب الخبايا ومن ثم تحولت مصر الفسطاط إلىٰ تلك الأطلال المعروفة».

وعندما ولي صلاح الدين حكم مصر شرع في بناء سور يضم القاهرة والفسطاط[٢] وصار يطلق عليهما معًا اسم القاهرة.

---

(١) ابن الصيرفي: الإشارة إلىٰ من نال الوزارة ص ٥٥ - ٥٦.

(٢) المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ٢٣٣.



بـغـداد

بويع لأبي العباس السفاح في مدينة الكوفة بالعراق حيث اتخذها مقرًا لحكمه بدلاً من دمشق التي كانت عاصمة الأمويين وبها أنصارهم ثم تحول إلىٰ الأنبار حيث أسس مدينة اتخذها مقر حكمه سميت بالهاشمية.

وأقام أبو جعفر المنصور في الهاشمية في أول الأمر ثم قرر أن يؤسس مدينة جديدة يتخذها مركزًا لحكمه. وكانت الخطوة الأولىٰ هي اختيار الموقع. وقد قام المنصور برحلات كثيرة في سبيل الاهتداء إلىٰ المكان المناسب. وكان من الطبيعي أن يكون الموقع بصفة عامة أقرب إلىٰ الولايات الشرقية حيث قامت الدعوة العباسية ووجد مؤيدوها. وقد وقع الاختيار علىٰ موقع قرية ساسانية قديمة تسمىٰ بغداد ومعناها عطاء الله. ويقع هذا المكان في أرض السواد الخصيبة بين العراق وإيران، وتتقابل عنده طرق التجارة الرئيسية سواء عبر البر أو من البحر أو علىٰ طول النهر. كما يمتاز بحسن الجو صيفًا وشتاء[١].

ومما يسترعي الانتباه أن هذا الموقع بالقرب من مدينة المدائن القديمة طيسفون (Ctestiphon) عاصمة الساسانيين. وكان هذا الاختيار يحمل في طياته منذ البداية ميل العباسيين للفرس وللتقاليد الفارسية.

(١) بشير فرنسيس: بغداد تاريخها وآثارها عن المقدسي.

وبعد اختيار الموقع بدأت مرحلة الإعداد والتخطيط: فطلب أبو جعفر من ولاته أن يوافوه بأفضل من عندهم من العمال والخبراء في تأسيس المدن والبناء والتعمير وزعم اليعقوبي في كتاب «البلدان» أن المنصور كتب إلىٰ كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئًا من البناء فحضره مائة ألف من أصناف المهن والصناعات».

وقبل الشروع في البناء خططت المدينة. واتبع في ذلك طريقة معينة، إذ رسم التخطيط بالرماد، فوضعت كرات من القطن مشبعة بالنفط ثم حرقت هذه الكرات فتركت آثارًا ثم بدأ حفر أساس المدينة مكان هذه الآثار.

ويقال إنه أشرف علىٰ تصميم المدينة خمس من المهندسين واشترك في بنائها أربعة من المشرفين كان أحدهم أبر حنيفة النعمان الذي يقال إنه كان يحسب الطوب بعد المداميك بواسطة مسطرة مدرجة.

وفي سنة ١٤٥هـ بدأ البناء وكان في وقت اختاره نوبخت أحد رجال الفلك والتنجيم، وفي سنة ١٤٦هـ نقل إلىٰ المدينة بيت المال والديوان، وفي سنة ١٤٧هـ تم البناء[١].

وعرفت المدينة بعدة أسماء: هي بغداد، ومدينة أبي جعفر، والمدينة المدورة. أما الاسم الرسمي فكان مدينة السلام وسميت بالمدينة المدورة نسبة إلىٰ تخطيطها الذي كان علىٰ هيئة دائرة، ويقول اليعقوبي إنه «لا تعرف في جميع أقطار الدنيا مدينة مدورة غيرها». غير أنه يبدو أن مثل هذا التخطيط الدائري قد عرف قبل ذلك. إذ يذكر علماء الآثار مدنًا ذات تخطيط مدور ترجع إلىٰ عصر أقدم من عصر بغداد: مثل سنجرلي من القرن الثامن

(١) Creswell, Early Muslim Architecture, II, Port 2.Tahe Bagir, Baghdad, p. 3.

قبل الميلاد، واكبتانة[١] من القرن السابع قبل الميلاد، وهاترا من القرن الأول بعد الميلاد وحران من العصر البيزنطي، ودارا بجرد وكان بها ثماني طرق محورية، ومن ثم فإنه من المحتمل تأثر تصميم بغداد بها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن التصميم علىٰ هيئة دائرة يؤدي إلىٰ توفير في بناء أسوارها: ذلك أن محيط المساحة المدورة يقل طوله عن محيط مساحة مربعة مساوية لها بحوالي ١١ في المائة.

هذا ويقال إن محيط المدينة المدورة كان ستة عشر ألف ذراع، وقطرها ٥٠٩٣ (الذراع = ٥١,٨ سم). وكان أساسها من الحجر ومبانيها بالطوب اللين الذي كانت تبلغ مساحة الواحدة منه ذراعًا مربعة، ووزنها ٢٠٠ رطل أما الأقبية والقباب فكانت من الآجر (الطوب الأحمر) كما استخدم الجص في لحام المداميك.

وكان للمدينة سوران خارجيان بينهما فصل أو فضاء. وكان ارتفاع السور الداخلي ٣٥ ذراعًا، وسمكه من أسفل ١٠ أذرع، ومن أعلىٰ ٨,٥ ذراع، وكان بهذا السور أبراج عددها ١١٣برجًا أما السور الخارجي فكان يحيط به خندق عميق عرضه حوالي ١١ ذراعًا أجري فيه الماء من قناة تخرج من نهر كرخايا[٢].

وكان للمدينة أربعة أبواب رئيسية محورية هما باب الكوفة في الجهة الجنوبية الغربية، وباب البصرة في الجهة الجنوبية الشرقية، وباب خراسان في الجهة الشمالية الشرقية، وباب الشام في الجهة الشمالية الغربية. وكانت مداخلها من النوع المنحرف أي أن الداخل من الباب لابد أن ينحرف أثناء

(١) همدان الحالية.

(٢) محمد الخضري: الدولة العباسية ص ٧٧ - ٧٩.

دخوله علىٰ زاوية قائمة. وهذه المداخل هي الأولىٰ في الإسلام من حيث هذا التخطيط، وقد استخدم بعد ذلك في البيوت الإسلامية. وقد وجد هذا النوع من المداخل في العمارة المصرية القديمة.

وكان للمداخل بوابات حديدية جلبت جميعها من مبان أقدم فيما عدا بوابة دمشق التي صنعت خصيصًا لباب دمشق.

وفي وسط المدينة المدورة شيد قصر الخليفة، وكان يعرف باسم باب الذهب أو قصر الذهب. وكان يعلوه قبة خضراء ارتفاعها ٨٠ ذراعًا، وفي أعلاها تمثال فارس بيده حربة[١] يقال إنه كان يتجه نحو الجهة التي يخرج فيها ثائر. ولو صح ذلك لما خلا وقت من خروج ثائر. وقد سقطت هذه القبة سنة ٣٢٩هـ (٩٤١م).

وشيد لصق الحائط الشمالي الشرقي للقصر المسجد الجامع. وأقيم حول القصر والجامع قصور الأمراء ومقار الدواوين، أما المناطق السكنية فكانت تقع في المساحات الأربعة المحصورة بين المداخل الأربعة الرئيسية، وكان في كل قسم شوارع رئيسية يتراوح عددها بين ثمانية وإثني عشر شارعًا، وكانت تتجة نحو قلب المدينة، وينتهي كل شارع بباب علىٰ محوره.

هذا وقد بنىٰ المنصور أيضًا قصر الخلد خارج الأسوار كما بنىٰ في شماله الرصافة لولي العهد.

وكان لميزة موقع بغداد بالإضافة إلىٰ مركزها السياسي والاجتماعي ما أدىٰ إلىٰ سرعة عمرانها: إذ لم تقتصر المباني علىٰ المدينة المدورة بل شيدت حولها الأحياء والقصور وامتد العمران عدة أميال علىٰ جانبي

---

(١) المرجع نفسه.

نهر دجلة. كما أقيمت المطاعم وأماكن الترويح علىٰ الضفتين. وكان يصل بين الجانبين جسور ثلاثة أقيمت عبر النهر علىٰ عوامات مشدودة بعضها إلىٰ بعض.

كما وجد في نهر دجلة السفن والمراكب الكثيرة. وعرف منها نوع للنزهة يسمىٰ بالحراقات وكانت هذه الحراقات مشكلة علىٰ هيئة حيوانات وطيور مثل الأسد والفيل والعقاب والفرس والحية.

ومن الملاحظ أنه منذ حرب الأمين والمأمون زالت أسوار المدينة المدورة(١) وصارت بغداد كلها مدينة واحدة متصلة المباني.

هذا وقد صحب اتساع عمارة بغداد ازدياد في ثرائها وتحضرها وازدهار لها ولمجتمعها.

ونظرًا لأن موقع بغداد كان داخل النفوذ الحضاري الفارسي فضلاً عن اعتماد العباسيين علىٰ الفرس في قيام دولتهم واستخدامهم للعناصر الفارسية في جيوشهم وإدارتهم انتشر في المجتمع البغدادي التقاليد الفارسية من أعياد واحتفالات وأطعمة وملابس وأصبحت مركزًا لتصدير هذه التقاليد إلىٰ باقي المدن الإسلامية. ومع ذلك فقد ظلت بغداد متمسكة بلغتها العربية وعقائدها الإسلامية.

ويبدو أن مدينة بغداد بلغت أوجع عظمتها في عهد الرشيد(٢). وساعدت انتصاراته الحربية علىٰ البيزنطيين علىٰ تأكيد عظمة عاصمته التي تسنىٰ لها في عهده أن تنتصر علىٰ منافستها الوحيدة في مجال الحضارة والرخاء ونعني بذلك القسطنطينية في الدولة البيزنطية، كما رجحت حضارتها بشكل واضح حضارة أقوىٰ دولة في أوروبا في ذلك الوقت وهي دولة

(١) أشار الخزيمي إلىٰ ما أصاب بغداد من خراب في هذه الحرب. الطبري ج ١٠ ص ١٧٦.

شارلمان ولقد أذهلت هدايا الرشيد حاشية شارلمان وبخاصة تلك الساعة التي حسبوها من أعمال السحرة.

ولقد كان الخليفة العباسي في بغداد بلاط فخم سواء من حيث العمارة أو الحاشية أو الحرس أو الحريم. وكانت قصور الخليفة تشتمل علىٰ قاعات العرش واستقبال السفراء ودواوين الحكم والإدارة ومجالس العلم والسمر واللهو والمنادمة ودور الحريم ومساكن الحرس والجند ومنازل الموظفين والمطابخ والاصطبلات والمخازن فضلاً عن الحدائق والميادين والملاعب وغيرها. وكانت هذه المباني من السعة بحيث كانت تكون ثلث المدينة المدورة.

وقد أثثت قاعات العرش والاستقبال ودور الحريم ومساكن كبار الموظفين بأفخم الأثاث والرياش، ففرشت أرضها بأثمن أنواع السجاد والوسائد، وجهزت بالستائر، وأضيئت بالثريات والشمعدانات، وزخرفت جدرانها بالصور الجميلة التي ابتدعها يد الفنانين. ويقال إن قصر الخليفة في عهد المقتدر كان مفروشًا باثنين وعشرين ألف بساط علىٰ الأرض. وثمانية وثلاثين ألف بساط علىٰ الحوائط، منها ١٥٠٠ من الحرير المطرز بالذهب. وكان بالقصر شجرة مصنوعة من الفضة والذهب وزنها خمسمائة ألف درهم عليها تماثيل طيور من الذهب والفضة تتحرك وتغرد.

كما صارت بغداد مركزًا تجاريًا ترد إليها السفن المحملة بالمتاجر والقوافل من مختلف أقطار العالم من الصين شرقًا ومن أوروبا غربًا وكذلك تصدر منها المنتجات المختلفة إلىٰ شتىٰ بقاع العالم. كما كان يفرد بها لكثير من أنواع السلع أسواق خاصة[١].

(١) من سنة ١٧٠هـ إلىٰ سنة ١٩٤.

وكانت طبقة التجار في بغداد من أكثر طبقات المجتمع ثراء، كما نافسوا كبار رجال الدولة في الأخذ بأسباب الرفاهية.

ولم تكن بغداد مركزًا سياسيًا وتجاريًا فحسب بل كانت أيضًا مركزًا ثقافيًا مزدهرًا تنتشر منه الثقافة إلىٰ سائر أنحاء الدولة بل وإلىٰ أوروبا نفسها. وقد أسست فيها بيوت الحكمة والمدارس[١] وخزائن الكتب والبيمارستانات وازدهرت فيها حركة التأليف والترجمة ونشأ فيها أشهر علماء الإسلام. وقد قدر عدد سكان بغداد في القرن الخامس الهجري (١١م) بنحو ٣ ملايين نسمة وكان بها ٦ آلاف حمام و٣٠ ألف زورق و٢٧ ألف مسجد.

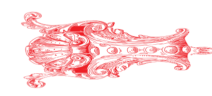
كما ازدانت بغداد بأروع المواكب واحتفلت بالأعياد والمواسم. واستمع القادرون من أهلها بحياة الترف واللهو ومختلف الألعاب الرياضية. فمارسوا رياضة الصيد وسباق الخيل وقذف الرمح ورمي القوس والمبارزة بالسيف ولعبة البولو واللعب بالكرة وبالمطارق الخشبية. كما أقاموا الولائم حيث كانت تقدم أشهىٰ الأطعمة، وسهروا في الحفلات المسائية الراقصة. وعنوا بالمجتمعات الشعرية ومجالس العلم والأدب والمناظرة.

هذا ويجب ألا ننسىٰ دور الفرد البغدادي العادي الذي كان عماد هذا الرخاء بكدحه وعمله وابتكاره في صنعته وفنه. وكان هذا الفرد العادي شغوفًا بحب مدينته وليس أدل علىٰ ذلك من استماتته في الدفاع عنها ضد جيوش المأمون.

ولم يقتصر سكان بغداد علىٰ المسلمين بل وجد بها كثير من أهل الذمة من النصارىٰ واليهود. وقد حظوا جميعًا بعيش هانئ قلما وحدوا مثيله في غير البلاد الإسلامية.

---

(١) محمد الخضري: المرجع السابق ص ٧٩ عن الخطيب البغدادي.



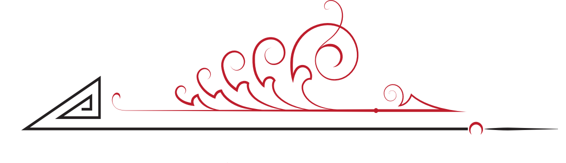

ولم تكن بغداد دائمًا في سلام بل أحيانًا ما كان يعتريها أحداث مثيرة مثل نكبة البرامكة، والحرب بين الأمين والمأمون، وثورات الجند، وعسف الغلمان من الأتراك. وأدىٰ بعض هذه الأحداث في وقت ما إلىٰ انتقال الخلافة إلىٰ سامرا، غير أن بغداد كانت لا تلبث أن تعود إلىٰ سيرتها الأولىٰ فتستأنف نشاطها وأفراحها.

وظلت بغداد عاصمة الخلافة طوال العصر العباسي ١٤٥-٦٥٦ هـ (٧٦٢-١٢٥٨) وذلك باستثناء فترة امتدت خمسة وخمسين عامًا حين انتقلت الخلافة إلىٰ مدينة سامرا[١]، ثم لم تلبث أن رجعت إلىٰ بغداد التي لم يتأثر عمرانها كثيرًا في تلك الفترة، علىٰ عكس مدينة سامرا التي ما أن انتقلت منها الخلافة إلىٰ بغداد حتىٰ أخذت يدب فيها الخراب إلىٰ أن تقلصت إلىٰ قرية صغيرة، وتهدمت عمائرها وأصبحت خرائب أثرية يحاول علماء الآثار في العصر الحديث كشف آثارها المطمورة.

وبعد زوال الخلافة العباسية ظلت بغداد عاصمة للعراق في مختلف عصوره ولا تزال كذلك حتىٰ اليوم.

---

(١) أشهر هذه المدارس المدرسة النظامية (سنة ٤٥٧هـ) والمدرسة المستنصرية (٦٣١هـ) انظر ناجي معروف: علماء المستنصرية ص ١ وما بعدها.

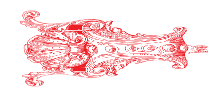


سامـــرا

كان من نتيجة استكثار المعتصم من مماليكه من الترك أن كثر النزاع بينهم وبين أهالي بغداد، وضاق أهل بغداد بالأتراك ذرعًا وكثرت شكاويهم منهم فما كان من المعتصم إلا أن عمل علىٰ نقل مركز الخلافة من بغداد. وكان المعتصم قد سبق أن شيد له قصر في موضع يبعد عن بغداد شمالًا بنحو ستين ميلاً وكان قد وهبه لأشناس. وكان السفاح قد شرع في بناء مدينة له فيه من قبل ثم بني الرشيد قصرًا بجوارها، وحفر عندها نهرًا سمي «القاطول».

واختار المعتصم هذا الموقع ليشيد فيه عاصمته الجديدة وانتقل إليها في سنة ٢٢١هـ (٨٣٦م) ويقال إنها سميت أول الأمر بسرور من رأىٰ، ثم اختصر الاسم إلىٰ سر من رأي، ولما خرجت سميت ساء من رأي، ثم اختصرت فقيل سامرا. غير أنه من المرجح أن موقع المدينة القديمة كان يعرف باسم قريب من سامرا. وقد أطلق عليها أيضًا اسم العسكر.

وخطت في المدينة قطائع لأصحاب الحرف والجنود والقواد والكتاب وسائر أفراد الشعب. وكانت قطائع الجند بعيدة عن الأسواق وعن أحياء أصحاب المهن. واشترك في بناء سامرا وعمارتها عمال من سائر الأقطار الإسلامية ثم نمت نموًا سريعًا.




وكان في مركز المدينة المسجد الجامع ومئذنته الملوية[١] ويعتبر هذا الجامع أكبر جوامع العالم أما مئذنته فتختلف عن سائر المآذن بأن يصعد إليها بمنحدر يلف حولها من الخارج ولا يشبهها في ذلك إلا مئذنة أخرىٰ في سامرا أيضًا هي مئذنة أبي دلف ومئذنة جامع ابن طولون بالقاهرة وكلتاهما متأثرة بالملوية من حيث التصميم. ومن المعتقد أن الملوية قد تأثرت بدورها ببناء الزقورة وهي من الآثار العراقية القديمة[٢].

وبنىٰ المعتصم وخلفاؤه بسامرا القصور وجعلوا فيها البساتين والبحيرات والميادين.

وينسب إلىٰ المعتصم والمتوكل في سامرا بناء سبعة عشر قصرًا ذكر ياقوت أسماءها وصارت هذه القصور مثالاً احتذاه المهندسون في بناء القصور في العالم الإسلامي بعد ذلك.

ومن قصور سامرا قصر الجوسق الذي شيده المعتصم، والقصر الهاروني الذي شيده الواثق، وقصر العروس والقصر المختار والقصر الوحيد والقصر الجعفري وينسب إلىٰ المتوكل هذا وقد شيد المتوكل أيضًا مدينة شمال سامرا سماها الجعفرية اتصل البناء بينها وبين سامرا وضواحيها.

وأقام المتوكل في قصور الجعفرية تسعة أشهر قبل قتله بتدبير من ابنه المنتصر الذي خلفه ورجع إلىٰ الإقامة بسامرا مما أدىٰ إلىٰ خراب الجعفرية وقصورها.

ورغم ذلك فلم يعد إلىٰ سامرا عظمتها الأولىٰ ودب إليها الاضمحلال في حكم المستعين والمعتز والمهتدي. ثم شيد الخليفة المعتمد في جانبها

---

(١) من سنة ٢٢١ هـ إلىٰ سنة ٢٧٦ هـ (٨٣٦- ٨٨٩م).

(٢) Creswel 1 K.A.C. Early Muslim Architectue, II.

الشرقي قصر المعشوق. ثم تركها وأعاد مركز الخلافة إلىٰ بغداد في سنة ٢٧٦هـ (٨٨٩م)، فدب إليها الخراب وهدمت مبانيها وصارت أكوامًا ولم يبق منها إلا المسجد الجامع ومئذنته الملوية. وتقلصت سامرا إلىٰ قرية صغيرة بها قبر علىٰ الهادي (ت٨٦٨م) الإمام العاشر من أئمة الشيعة الاثني عشرية، والسرداب الذي دخله محمد المنتظر (اختفىٰ ٨٧٨م) الإمام الثاني عشر بالإضافة إلىٰ قبور الخلفاء العباسيين الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهتدي والمعتمد. وينسب إليها الحسن العسكري الإمام الحادي عشر من أئمة الشيعة الاثني عشرية (ت ٨٧٤)[١].

ونظرًا لخراب سامرا فإنها تمثل من وجهة النظر الأثرية منطقة مهمة: ذلك لأن المناطق المهجورة تفوق المناطق المعمورة أهمية عند الأثريين: أنه بإجراء الحفائر في المناطق الخربة التي لم تستمر مأهولة بالسكان يمكن اكتشاف المخلفات الأثرية القديمة وذلك علىٰ عكس المدن المأهولة التي تندثر فيها عادة الآثار القديمة ليحل محلها مبان أحدث.

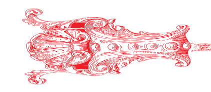
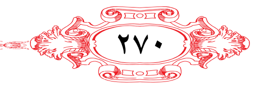
وقد جذبت منطقة سامرا أنظار الأثريين: فأجريت فيها حفائر تعتبر من أقدم أعمال الحفر الإسلامية، وكشفت هذه الحفائر عن آثار عمائر وصور جدارية وتماثيل وزخارف جصية وتحف خزفية وزجاجية وغير ذلك من الآثار الإسلامية[٢]وقد اتضح من هذه الآثار أن مدينة سامرا قد ازدهرت فيها الفنون والصناعات وجلبت إليها المنتجات من شتىٰ الأنحاء وقد عثر علىٰ خزف صيني ضمن مكتشفات سامرا. كما يتضح من هذه المكتشفات أن الفن الإسلامي كان قد اتخذ في هذا الوقت طابعه الخاص المتميز وبلغ

---

(١) دكتور حسن الباشا: تاريخ الفن في العراق القديم ص ٤٨.

(٢) دكتور حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف ج٢ ص ٧٨٣ - ٧٨٤.

(٣) Die Ausgrabungen Ven Samarra.

مستوىٰ عاليًا من النضج الفني[١] ويعتبر فن سامرا فنا دوليًا إذ انتشر في سائر أقطار العالم الإسلامي. ومن المعروف أن جامع ابن طولون بني في القطائع علىٰ نمط المسجد الجامع في سامرا ولا تزال مئذنته حتىٰ اليوم تشبه في بعض عناصرها الملوية في سامرا كما سبق أن قدمنا ولو أن مئذنة ابن طولون الحالية قد عمرت في عصور تالية.

ومما كشفت عنه حفائر سامرا آثار قصر الجوسق وملحقاته. واتضح من هذا الكشف أنه كان للقصر مدخل واحد كبير يسمىٰ « باب العامة». وكان له واجهة تطل علىٰ نهر دجلة وخلفها ثلاث قاعات تغطيها أقبية «نصف إسطوانية، ثم صحن مربع في وسطه نافورة، وعلىٰ كل جانب من جوانبه ثلاث حجرات ثم قاعات الخليفة والحريم. أما قاعة العرش فكان قوامها بهوًا مربعًا يحيط به من جهاته الأربع قاعات علىٰ شكل حرف T وجد علىٰ جدرانها كثير من الزخارف الجصية التي امتاز بها الطراز العباسي في سامرا وظهر تأثيرها في مصر في العصر الطولوني. وعثر في قسم الحريم بالقصر علىٰ بعض قاعات صغيرة للنظافة والغسل كان الماء الجاري يصل إليها في أنابيب من الرصاص أو الفخار، كما وجد أن بعض هذه القاعات كانت تزخرف جدرانه صور مرسومة بالألوان المائية علىٰ الجص[٢] ووجد أن صور سامرا قد وضعت النماذج التي استخدمها الفنانون في سائر أنحاء العالم الإسلامي والتي تطور منها فن التصوير الإسلامي في القرن السابع الهجري (١٣م).

(١) انظر دكتور فريد شافعي: زخارف وطرز سامرا. مجلة كلية الآداب ديسمبر ١٩٥١ ص ٢١-٢٣.

(٢) انظر: Die Malereien Von Samarra.

هذا ومما عثر عليه في سامرا نوع من الخزف زخرف بأكاسيد معدنية بحيث صار له بريق يشبه المعدن ومن ثم اصطلح علىٰ تسميته بالخزف ذي البريق المعدني. وهو ابتكار إسلامي ويعتقد أنه بدأت صناعته في سامرا وانتقل منها إلىٰ مختلف الأمصار الإسلامية مثل بلاد الشام وإيران ومصر وشمال إفريقيا والأندلس كما سبق أن ذكرنا عند كلامنا عن الخزف.

